المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

عبير

آنوك دي كونينغ

أحلام عولمية

الطبقة والجندر والفضاء العام

في القاهرة الكوزموبوليتانية

1725

ترجمة: أسامة الغزولي

أحلام عولمية

الطبقة والجندر والفضاء العام
فى القاهرة الكوزموبوليتانية

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1725
- أحلام عولمية
- آنوك دى كونينغ
- أسامة الغزولى
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب :

Global Dreams:
Class, Gender, and Public Space in Cosmopolitan Cairo
By Anouk De Koning

Copyright © 2009 by The American University in Cairo Press
113 Sharia Kasr El Aini, Cairo, 11511, Egypt
420 Fifth Avenue, New York, NY 10018, USA
Arabic Translation © 2011, National Center for Translation
Translated into Arabic with the permission of the American University in Cairo Press
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .
شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
E.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel. : 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

أحلام عولمية

الطبقة والجندر والفضاء العام

فى القاهرة الكوزموبوليتانيـــة

تأليــف : آنوك دى كونينغ

ترجمــة : أسامة الغزولى

2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دى كونينغ ، آنوك
أحلام عولمية:الطبقة والجندر والفضاء العام فى القاهرة الكوزموبوليتانية / تأليف : آنوك دى كونينغ ؛ ترجمة: أسامة الغزولى .
ط١، القاهرة ، المركز القومى للترجمة ؛ ٢٠١١
٣٠٤ ص ، ٢٤ سم
١ - العولمة .
٢ - المجتمع المصرى .
(أ) الغزولى ، أسامة (مترجم) .
(ب) العنوان ٣٠١,٢

رقم الإيداع ١٩٩٨٦ / ٢٠١٠
الترقيم الدولى 5 - 333 - 704 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

هذا الكتاب مهدى إلى جدتي آغنيس (سيوى تجوى) غروثويزن - لاو، وإلى جدي بيرت غروثويزن.

المؤلفة

المحتويات

مقدمة المترجم 9

تنويه 29

بيان بالنقوش الإفرنكية للأصوات العربية 33

مقدمة: المهنيون الشبان والمدينة 35

الفصل الأول: أحلام بقاهرة عولمية: التاريخ والحاضر والمستقبل........................ 61

الفصل الثانى: التربية الطبقية........................ 105

الفصل الثالث: منطق الإصلاح: حكايا سوق العمل فى القاهرة 147

الفصل الرابع: الطبقة والانتماء الكوزموبوليتانى فى محال الكوفى شوب القاهرية 185

الفصل الخامس: عن سائقى التاكسى والمومسات والمهنيات: الجندر والفضاء العام والفصل الاجتماعى 239

خلاصة: أحلام عولمية وأزمات بعد كولونيالية 279

الهوامش 291

مقدمة المترجم

مع تصاعد الضغوط على الخط المستقيم:هل تفلت القاهرة من قبضة هاوسمان؟

تنتمى مؤلفة كتاب " أحلام عولمية " إلى " مدرسة القاهرة للدراسات الحضرية " التى تتخذ من الجامعة الأمريكية بالقاهرة مركزا لنشاطها والتى لها ثلاثة كتب مهمة عن القاهرة المعاصرة هى " القاهرة الكوزموبوليتانية " فى ٢٠٠٦، و" القاهرة المهيمنة " فى ٢٠٠٧، و" القاهرة المتنازع عليها " فى ٢٠٠٩. وقد شاركت مؤلفة كتاب " أحلام عولمية " فى " القاهرة الكوزموبوليتانية "بفصل بعنوان" كافيه لاتيه وسلطة سيزر: الانتماء الكوزموبوليتانى فى الكوفى شوب القاهرية "بعرض أفكار تعد بذرة كتاب "أحلام عولمية".

ففى هذا الكتاب تعالج المؤلفة آنوك دى كونينغ الانتماء الكوزموبوليتانى كما يتجسد فى الكوفى شوب القاهرية الراقية: فى جمهورها المنتمى للطبقة المتوسطة العليا، فى لغتهم المهجنة، فى ملابسهم المستوردة الثمينة، فى لغة أجسادهم، فى خلفياتهم التعليمية، فى أوساطهم الأسرية والاجتماعية، فى ارتباطهم بثقافة العولمة واقتصادياتها. ويتجسد هذا الانتماء، أيضًا، فى الكوفى شوب ذاتها: فى كونها حلقة من سلسلة دولية، ملتزمة بأسلوب معين فى المظهر الخارجي وفى التصميم الداخلى وفى قائمة الأطعمة والمشروبات، وفى الاسم الإفرنكى للكوفى شوب ولكل صنف من أصناف الطعام والشراب، وفى النظافة والالتزام بالصحة العامة، وفى نوعية الزبائن.

وكما قال ويل وارد فى العدد الثالث (خريف ٢٠٠٧) من " الميديا والمجتمع العربيان Arab Media & Society " فإن " مدرسة القاهرة للدراسات الحضرية " اعتبرت

كتاب " القاهرة الكوزموبوليتانية " فاتحة أعمالها، لتقدم أفكارها ومفكريها من خلاله، فجمعت له فريقًا من تخصصات أكاديمية متنوعة من العمارة إلى علم الاجتماع إلى الأنثروبولوجيا(علم الإنسان) إلى الجغرافيا، وفعلت الأمر ذاته عندما أنتجت المجلدين التاليين عن العاصمة المصرية.

وتتبع مدرسة القاهرة للدراسات الحضرية منهجًا كيفيًا، بالأساس، يرى ويل وارد أنه يتعايش مع الغموض ومع الاحتمالات المتشابكة فى الواقع القاهرى لدرجة أن تمثيلها وتحليلها للحياة فى القاهرة ينتقل إليهما هذا الغموض وهذا التشابك. ولاحظ عزيزى القارئ أن وارد يرى الغموض أصيلا فى مجتمع شرقى، وليس نتيجة لعجز مدرسة القاهرة أو وارد نفسه عن فهم مجتمع هو بالضرورة غرائبى بالمعنى الذى انتقده إدوارد سعيد فى كتابه الاستشراق (١٩٧٨) والأهم أن الباحثين المنتمين لهذه المدرسة والذين اشتركوا فى وضع كتاب " القاهرة الكوزموبوليتانية " الذى عرض له وارد واشترك عدد منهم مع زملاء لهم فى المجلدين التاليين - يعالجون المفاهيم الأساسية التى يقوم عليها الكتاب الأول، برأى " وارد " والكتابان الثانى والثالث أيضًا برأينا، مثل " العولمة " و" الكوزموبوليتانية " وفق تعريفات متباينة، أو بناء على افتراضات مختلفة، رغم محاولة التوصل إلى فهم مشترك لهذه المصطلحات فى مقدمة المجلد الأول. ويرى وارد أن هذا التباين يتسبب فى إرباك القارئ.

لكن وارد يجد نقاط اتفاق بين الباحثين المشاركين فى المجلد الأول " القاهرة الكوزموبوليتانية " نقول نحن إن لها أصداء قوية فى المجلدين الثانى والثالث وإنها محور رئيسى فى الكتاب الذى نقدم له هنا " أحلام عولمية " الذى ساهمت مؤلفته بكتابة فصل فى " القاهرة الكوزموبوليتانية " هو نواة لكتابها " أحلام عولمية " بعد تعميق معطياته واختبارها من خلال المقابلات والمحاورات والملاحظات والقراءات التى انتهت بالمؤلفة إلى كتابها النافع والمشوق هذا.

وأهم النقاط التى اتفق عليها الباحثون الذين وضعوا ثلاثة مجلدات مهمة عن العاصمة المصرية والتى تولد عنها المحور الرئيسى لكتاب " أحلام عولمية " يلخصها ويل وارد بقوله: "التيمة المركزية هى هرب النخب القاهرية من منطقة وسط البلد المركزية وإعادة توطنها فى مناطق بعيدة عن مركز المدينة، وهى مناطق وفرتها مشروعات الإصلاح الهائلة للصحراء وإنشاء طريق دائرى جديد حول المدينة". ويؤكد أحد الكتاب المشاركين (فى القاهرة الكوزموبوليتانية) وهو إيريك دينيس أن تنامى مشروعات التنمية العقارية الخاصة التى تحمل أسماء مثل " يوتوبيا " و " بيفرلى هيلز " و " دريم لاند " هى " كاملة التناغم مع السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التى تمثل جوهر اتفاق التكيف الهيكلى الذى أبرمته مصر مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى فى ١٩٩١ ". ويشير دينيس إلى وجود خطاب الخطر والتهديد الذى روجت له المخاوف المبالغ فيها من الإرهاب والجريمة، كخطاب يمثل الدافع والمبرر المشروع لانسحاب الطبقة العليا إلى المجتمعات المسوّرة القاصية.

تصريح " القاهرة الكوزموبوليتانية " بأن " المخاوف " من " الإرهاب والجريمة " مبالغ فيها، هو تصريح يشكك فى جدية ما يشار إليه من " الخطر والتهديد " فى أعمال صحفية وأكاديمية عديدة تناولت موضوع تمدد القاهرة الكبرى فى ظهيرها الصحراوى، لكن هذا التصريح يقف، رغم ذلك،فى منطقة وسط بين توجه أساسى لدى "مدرسة القاهرة للدراسات الحضرية " رافض لما تسميه ديان سينغرمان وبول عمار "السرديات المهيمنة" التى تدور حول الإرهاب والتطرف، تارة، واللامبالاة والجمود، تارة أخرى، وبين هذه "السرديات المهيمنة" ذاتها.

أما نحن فنرى وبكل اليقين أن النخب القاهرية لم تخرج وحدها ولم تهرب من وجه الخطر بمغادرة وسط البلد إلى مناطق صحراوية بعيدة، ولم تستخدم " خطاب الخطر والتهديد " الذى يقوم على " مخاوف من الإرهاب والجريمة " لتبرير الخروج/ الهرب.

ونحن نناقش هذه الفكرة هنا لأنها واحدة من الدعائم المركزية التى يقوم عليها كتاب " أحلام عولمية " الذى نعتبره شجرة فى غابة " مدرسة القاهرة للدراسات الحضرية ".

ما حدث هو أن النخبة التى تسكن الآن الأحياء المسوّرة الراقية ذهبت إلى الصحراء ضمن زحف ضم مختلف فئات الطبقة المتوسطة: الطبقة المتوسطة الدنيا، والمتوسطة الوسطى، والمتوسطة العليا، والنخبة ، من القاهرة المكتظة والمرهقة إلى مستوطنات شيدت على نحو هو فى الغالب قانونى و منظم فى ظهيرها الصحراوى الشاسع،فى حين توجه الفقراء والأشد فقراً إلى أماكن مثل منشية ناصر القابعة فى حضن المقطم وإلى المستوطنات الصحراوية الجديدة الفقيرة مثل مدينة السلام والكيلو أربعة ونص وغيرهما. وقد كانت الطبقات الأفقر أسرع فى التحرك إلى المستوطنات الجديدة والتجمع بكثافة ملموسة فيها. وكلما صعدنا أعلى السلم الطبقى اتخذت سرعة الانتقال إلى خارج المدينة وتيرة أبطأ ؛ لأن الأغنى يكون أقل قدرة على الانخلاع من القاهرة التى تربطه بها مصالح أقوى، خاصة أن ترتيبات انتقاله تكون تكاليفها أعلى. أضف إلى ذلك أن انتقال الفقراء وأشباه الفقراء إلى المستوطنات الصحراوية يكون كاملا وخطوط رجعتهم إلى القاهرة مقطوعة، فى حين أن الأغنياء يكون انتقالهم ناقصا لأن مقارهم السكنية فى القاهرة والساحل الشمالى وربما ساحل البحر الأحمر تظل باقية وصالحة للاستخدام المتكرر، أو تبقى عقاراتهم فى المستوطنات الصحراوية الجديدة مغلقة حتى يكبر الأنجال أو حتى تسنح الفرصة لبيعها وشراء غيرها. فالمضاربة هى من أهم دوافع الشراء فى المستوطنات الصحراوية الجديدة وفى الأبنية الغالية الكلفة فى أحياء النخبة، حتى لو أقام فيها من يشتريها. فالبيت لدى الطبقات المتوسطة العليا والنخبة الطالعة أصبح أصلا اقتصاديا بقدر ما هو مقر للسكن أو أكثر.

فى كل الأحوال فانتقال السكان إلى مدن مثل السادس من أكتوبر والقاهرة الجديدة أمر فرض نفسه ولم يكن الهدف الأساسى من إنشاء هذه المدن، التى قامت

لتخلق فرص عمل جديدة، بالأساس. لكن الواقع الديموغرافى فرض نفسه؛ فالانفجار السكانى العالمى الذى صعد بعدد سكان الكوكب من مليار وسبعمائة مليون إنسان فى مطلع القرن العشرين إلى ستة مليارات وستمائة مليون فى نهايته، صعد بعدد سكان مصر من حوالى عشرة ملايين فى بدايته إلى ما يفوق السبعين مليونًا، فى نهايته.

ولأن المجلدات الثلاثة الصادرة عن مدرسة القاهرة للدراسات الحضرية التى أشرنا إليها، والتى تمثل إطارا مرجعيا للكتاب الذى نقدم له هنا، معنية بالسلطة المركزية أو بالطابع التسلطى للحكم فى مصر وبأثره على التدافعات بين مختلف الأفراد والفئات والطبقات المتنازعة على الفضاءات القاهرية، فلا بد أن نتذكر أن الضغوط الديموغرافية الهائلة التى لها تأثير قوى على كل شىء فى مصر لها علاقة قوية، فى الوقت ذاته، بالحكم المركزى. فكلما قويت السلطة المركزية واستقرت أمورها، زاد عدد السكان فى مصر التى كان سكانها يقتربون من حافة الفناء عندما تضعف السلطة المهيمنة على النهر فى عصور الفوضى، التى يعد أقربها إلينا نهايات عهود الأسر الوافدة مثل الطولونيين والإخشيديين ومن بعدهم ، وفترات الاضطراب المتكرر – داخل إطار راسخ –فى العهد العثمانى قبل ولاية محمد على.

قوة العامل الديموغرافى

وقد ظل عدد سكان مصر يتناقص ويتزايد عبر القرون إلى أن اتخذ منحنى صاعداً ومتواصلاً منذ استقرت سلطة القاهرة بشكل مؤسسى راسخ، نسبيا، بدخول مصر تحت الحكم العثمانى فى ١٥١٧ فزاد سكانها من ثلاثة ملايين فى ذلك العام إلى أربعة ملايين ونصف المليون عند وصول محمد على باشا إلى الحكم. ورغم أن عالم السكان الفرنسى دانييل بانزاك (١٩٨٢) يعتبر أن زيادة السكان بمليون ونصف المليون فى ثلاثة قرون تعنى أن مصر عاشت " مرحلة شبه ركود عدديًا " فنحن نرى

ذلك تقدمًا ثوريًا؛ لأنه نقل البلاد من مرحلة استغرقت قرونًا طويلة من النقصان والثبات والزيادة، مرحلة اضطراب، إلى مرحلة زيادة مطردة وإن كانت بطيئة. لكن معدلات هذه الزيادة، كما يشير بانزاك، اكتسبت زخمًا قويًا فى ظل محمد على باشا مع زيادة فاعلية السلطة المركزية للقاهرة، فزاد عدد السكان إلى حوالى خمسة ملايين وأربعمائة ألف فى الفترة من ١٨٠٠ إلى ١٨٤٦ ثم وصل عدد السكان إلى ٨ر٧ فى ١٨٨٢. الاحتلال البريطانى نقل مصر من تبعية متعددة الطبقات: للسلطة العثمانية المترنحة وللوالى الخاضع للسلطان ولكافة ممثلى القوى الأوروبية، إلى تبعية لطرف واحد هو هوايت هول التى جعلت كل تأثير آخر بما فى ذلك التأثير العثمانى (الذى ألغته فى ١٩١٤) اسميًا وغير فعال، وحققت بذلك استقرارًا وتطويرًا ملموسين فى إدارة البلاد، وتحديثًا لبنيتها الأساسية ولإدارتها المالية، بهدف تعظيم مكاسب الإمبراطورية البريطانية، فزاد السكان زيادة ملموسة، من أقل من ثمانية ملايين فى ١٨٨٢ إلى أكثر من ٢٢ مليونًا فى ١٩٥٢.

وفى ظل جمهورية يوليو التى جعلت مصر خاضعة لسلطة سياسية محلية وواحدة، بعد أكثر من ألفى سنة كانت حكومة القاهرة فيها مجرد هيئة تمثيلية محلية لقوة أجنبية غازية مثل الفرس واليونان والرومان والعرب، أو لعناصر حربية متنقلة مثل الأجناس المغولية التى حكمت البلاد مستقلة أو تابعة حتى نهاية العصر العثمانى، أو لقوة احتلال أوروبية مثل الفرنسيين والبريطانيين - زاد السكان فى نصف قرن من ٢٢ مليونًا إلى قرابة الثمانين مليونًا، وهو ما جعل معدل الزيادة السكانية فى مصر القرن العشرين أربعة أضعاف المعدل العالمى.

وينقل كتاب جوان كول المعنون بـ"الكولونيالية والثورة فى الشرق الأوسط: الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر " تحليل بانزاك للدلالات والتأثيرات السياسية للزيادة السكانية فى مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر وحتى انفجار الثورة العرابية، فى محاولة لفهم النتائج الثورية التى أسفر عنها هذا النمو

الديموغرافى. لكن تأثير الزيادة السكانية يبدو هامشياً فى تحليلات سينغرمان وعمار والباحثين الذين ساهموا فى إنجاز المجلدات الثلاثة المهمة عن العاصمة المصرية وكذلك يبدو أثر العوامل الديموغرافية قليل الأهمية فى كتاب " أحلام عولمية ". وقد يكون السبب فى ذلك هو الإصرار المبالغ فيه لدى مدرسة القاهرة للدراسات الحضرية على تجنب المعالجات الكمية للظواهر الاجتماعية ، والتركيز على المعالجات الكيفية ، وهو توجه لاحظناه فى مناقشات عابرة مع باحثين معاصرين فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

وفى تعليق ويل وارد على زعم " مدرسة القاهرة للدراسات الحضرية " بأن " الهرب " إلى الصحراء كانت له علاقة بالاتفاق بين مصر وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى على التكيف الهيكلى – يرى وارد أن هذا الزعم يتجاهل " اتجاهاً تاريخيًا مصرياً قديم العهد نحو المشاريع التنموية فى الصحراء ". وإذا كان وارد يقصد بذلك مشروعات كبرى مثل إنشاء مديرية التحرير ومحافظة الوادى الجديد، فى العهد الناصرى، أو مشروعات حضرية خالصة مثل إنشاء ضاحية مصر الجديدة فى مطلع القرن العشرين أو المبادرة إلى إنشاء مدينة نصر فى ستينيات ذلك القرن – فهو يصيب جزءاً من الحقيقة. هو لم يوضح فى تعليقه ما يقصده بالاتجاهات التاريخية، لكننا نحب أن نشير إلى أن شعورا قويا بالذنب يطارد العقل العام المعاصر فى مصر فيما يتعلق بالبناء على أرض الوادى والدلتا ، خاصة بعد أن أصبح هذا البناء يهدد الجنة المصرية الموروثة.

تتابع النخب

وتشير دى كونينغ فى "أحلام عولمية" إلى النخبة القديمة التى سكنت وسط البلد إشارات متكررة يبدو أنها شديدة التأثر بما جاء فى رواية علاء الأسوانى "عمارة

يعقوبيان"وما يدور من ثرثرات فى مقاهى وسط البلد، لكن النخبة التى احتلت ذلك الجزء من المدينة من أيام إسماعيل باشا وحتى ذروة تجميد الإيجارات السكانية فى زمن التأميم والتمصير فى الستينيات من القرن العشرين - انهارت مكوناتها المحلية وهربت مكوناتها الأجنبية الغالبة والمهيمنة، فى الفترة بين ٢٩ أكتوبر ١٩٥٦ و٩ يونيو ١٩٦٧. وقد أجريت حوارًا تلفزيونيًا مع ساكن إحدى الشقق فى ميدان طلعت حرب (سليمان باشا سابقا) فقال لى إنه من أوائل المصريين الذين سكنوا فى هذا الميدان، وكان ذلك فى ١٩٥٩. وعندما كان يرسل خادمه لشراء بعض حاجيات البيت من محال البقالة المجاورة كان الباعة يقولون للخادم: أنت تعمل عند المصريين؟

بعد تأميم قناة السويس أصبح واضحًا أن الحكم يصل إلى أعلى درجات المركزية بتمصير المشروعات الاقتصادية الأجنبية الذى كان مقدمة للتأميم، لتحقيق هدف يبدو الآن أنه سيطر على وجدان المصريين منذ نهاية القرن الثامن عشر: تمصير الدولة، ولأمر آخر يتجسد فى تجربتى محمد على وجمال عبد الناصر وهو ارتباط التمصير بمركزية الحكم.

لقد كانت صفوة الموظفين فى الحكومة والبنوك والشركات قبل الاستقلال الذى تحقق بين ١٩٢٢و١٩٥٦ هى من الأجانب والمتمصرين. وكانت الشرطة أوربية. وعندما تولى عزيز عالى المصرى باشا منصب مدير كلية البوليس ألبس الضباط وصَفَّ الضباط المعلمين وأعدادا من الطلبة ملابس فرعونية وقادهم على ظهور الخيل حتى جامعة القاهرة. وعندما خرج الطلاب من الجامعة للقائهم هتف طلاب كلية البوليس: الشرطة تحيى الجامعة. ورد الطلاب: الجامعة تحيى الشرطة. وعلق الأهرام على ذلك بالقول: وخفق قلب مصر. لماذا؟ إنشاء الجامعة المصرية وتمصير قوات الشرطة كانا خطوتين باتجاه التمصير الشامل الذى كان كل تقدم له يسفر عن قدر مكافئ من هجرة الأجانب والمتمصرين. وقد كان النزوح على أشده فى منطقة وسط البلد، التى

يشير إليها جيل بيرو وهو يؤرخ لهنرى كورييل باسم "الحى الأجنبى". ووصل نزوح الأجانب إلى أعلى معدلاته بين ١٩٥٦ و١٩٦٧.

أحد من هجروا تلك المنطقة الزعيم الشيوعى اليهودى مارسيل إسرائيل الذى أسس وقاد تنظيم "إيسكرا-أو الشرارة" الشيوعى الموالى لموسكو، ولو بدليل الاسم الروسى، والذى كان ينافس تنظيما شيوعيا آخر هو "حديتو" الذى كان يقوده يهودى مصرى إيطالى آخر هو هنرى كورييل، الذى حمل الجنسية الفرنسية ومات فى باريس بعد أن نزح هو أيضا من منطقة وسط البلد. قابلت مارسيل إسرائيل فى القاهرة عندما جاء من إيطاليا، وكان لقاؤنا فى بيت صديقه الفنان التشكيلى عادل السيوى الذى عرف مارسيل إسرائيل عندما هاجر إلى إيطاليا. وروى لى مارسيل إسرائيل أن أوروبيًا كان يستوطن مصر مثلما استوطنها مارسيل إسرائيل وهاجر إلى أوروبا كما هاجر هو الآخر، ثم عاد لزيارة مصر. وبعد انتهاء زيارته قابله مارسيل إسرائيل فى أوروبا. وفى سياق سرده لانطباعاته عن القاهرة قال لمارسيل إسرائيل متعجبًا: تصور أن كل الناس فى شارع سليمان باشا لا يتكلمون الآن إلا العربية؟!

وقد روى لى صديقى بيير واصف المقيم فى باريس منذ ستينيات القرن العشرين، وهو حفيد ويصا واصف سكرتير سعد باشا زغلول ورفيق كفاحه - أن سيدة فرنسية من معارف الأسرة كانت تقيم فى القاهرة، أيام كان بيير واصف يعيش فيها، فى بيته المطل على ميدان مصطفى كامل، وذهبت تلك السيدة فى زيارة إلى الإسكندرية، ثم عادت لتشكو من شىء واحد: فى الإسكندرية عرب كثيرون !!. ولأنها كانت تتحدث إلى عرب مصريين فلا بد أنها كانت تعنى بـ " العرب " الطبقات الفقيرة الناطقة بالعربية من أهل البلاد، فمن لا يملكون الوضع الطبقى الذى تميز به من كانت تتحدث إليهم، ولا التعليم والثقافة الأوروبيين اللذين يتمتعون بهما، ولا العلاقة مع الخارج. وهذا يفسر لك لماذا تتمسك الشرائح الاجتماعية الطالعة الآن بالتعبير عن نفسها بغير العربية أو بعربية مخلوطة بغيرها من اللغات، وخاصة الإنكليزية.

وقد كانت الفرنسية لغة النخبة من السياسيين ورجال الأعمال والتنفيذيين والمثقفين والمهنيين قبل ثورة يوليو. ويقول المستشار الصحفى للملك فاروق كريم ثابت باشا فى كتابه " فاروق ملك النهاية " إن الملك كان يطلب أن تترجم إلى الفرنسية أى وثيقة يحتاج إلى أن يقرأها بعناية. كان فاروق يجيد العربية بعكس أبيه الذى عاش طفولته ورجولته، حتى ناهز الأربعين، منفياً فى إيطاليا. وعندما كان فاروق يلقى خطاباً عاماً كان يحرص على إلقائه بعربية قرشية خاصة عندما ينطق الجيم المعطشة، لكن عربيته لم تكن تكفى، على ما يبدو، لإقناعه بأنه استوعب كل ما فى وثيقة يعتبرها مهمة؛ ولهذا فقد كان يصر على الترجمة إلى العربية، عندما تبدو له وثيقة ما أنها كذلك.

وقد يكون مشروع محمد على تجسيداً لرؤية فرنسية لصياغة مصر والشرق على هوى باريس. ورغم انفراد بريطانيا بالهيمنة على مصر منذ ١٨٨٢ فقد اضطرت لندن إلى إطلاق يد فرنسا فى الشئون الثقافية والتجارية فى مصر فى ١٩٠٤، فى إطار ما يعرف باسم " الاتفاق الودى ".

و بقيت المدارس الكاثوليكية الفرنسية تلعب دوراً مهماً فى مجال التعليم فى مصر، حتى بعد أن سقطت الملكية. و قال لى الأب يوحنا قلتة نائب مطران الكاثوليك فى مصر إن الغالبية العظمى من وزراء مصر فى العهدين الملكى والجمهورى هم من خريجى المدارس الكاثوليكية وأن أبناء رؤساء جمهورية مصر الثلاثة "ناصر" و"السادات" و"مبارك" تعلموا فى المدارس الكاثوليكية.

لكن الثقافة الفرنسية – وهو ما يرصده كتاب أحلام عولمية – بدأت تتراجع فى مصر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. واقتصر الحديث بالفرنسية منذئذ على عائلات قبطية قديمة، بينهم عائلة بيير واصف. وقد كان المؤرخ والناقد لويس عوض يقول فى نهاية الستينيات من القرن الماضى إن الأوساط الاجتماعية المصرية التى تتحدث الفرنسية وقفت معرفتها بها على أعتاب الجمهورية الخامسة. وقد وصف لويس عوض فرنسيتهم بأنها " فرنسية بزرميط ".

ويصف لى بيير واصف كيف أن قريبا له كان أستاذاً فى كلية الطب جاء ليزوره فى باريس ومعه زوجته، وقد ضلا الطريق فراحا يسألان المارة عن الوجهة التى يقصدانها. وذهل المارة عندما وجدا هذين الشخصين يتكلمان لغة قديمة. " كأنهما شخصيتان من فيلم سينمائى فرنسى قديم " على حد تعبير بيير واصف.

كل هذا تغير. هاجر الأجانب من مصر وهاجرت معهم الطبقات والفئات التى ارتبطت بهم، أو انزوت بعد أن أضعفها التمصير والتأميم. وكما خلعت الجماهير تمثال فرديناند ديليسبس الذى كان يقف عند مدخل قناة السويس، خلعت حكومة الجمهورية تمثال سليمان باشا، الكولونيل سيف الذى أسس جيش محمد على، وهو جد فاروق لأمه. ووضعت الحكومة مكانه تمثال طلعت باشا حرب مؤسس الاقتصاد المصرى الحديث فى عشرينيات القرن العشرين. وتغير اسم الميدان والشارع المتفرع منه، من سليمان باشا إلى طلعت حرب.

وحلت محل النخبة القديمة نخبة جديدة، ولدت من رحم البيروقراطية التى أدارت المؤسسات الصناعية والتجارية المؤممة واحتلت المراكز العليا والمتوسطة أيام رأسمالية الدولة التى أسماها " ناصر " الاشتراكية العربية، لأنها كانت رأسمالية ذات ضمير اجتماعى وذات توجه وطنى وعروبى مناهض للاستعمار والصهيونية، أبناء وبنات هذه النخبة التى هاجرت مع حركة التاريخ من رأسمالية ناصر ذات الأفق التنموى والضمير الاجتماعى إلى رأسمالية مدرسة شيكاغو هؤلاء هم الذين يركز كتاب "أحلام عولمية" على أسلوب حياتهم وعلى نزوحهم إلى المستوطنات الصحراوية الجديدة حول القاهرة، ضمن ما نقول إنه نزوح مصرى عام إلى خارج كوردونات المدن القديمة فى مختلف أنحاء البلاد. وفى وقت كتابة هذه المقدمة أطالع فى أهرام يوم ٥ يونيو ٢٠١٠ خبراً عن مظاهر العافية الحضرية والنشاط الاجتماعى الملموس فى أسوان الجديدة. وهو من نوع الأخبار التى تتواتر هذه الأيام عن مختلف المدن الجديدة فى مختلف أنحاء مصر.

إذن فلم يكن النزوح هروب نخبة خائفة من خطر حقيقى أو موهوم، بل هناك انتقال لسكان من مختلف الطبقات من القاهرة التى أصبحت الحياة فيها مشقة حقيقية إلى فضاءات جديدة يشيّد فيها كل فريق من الناس حياته الجديدة على النحو الذى تساعده عليه موارده.

تفاعلات طبقية

وكما كانت تفعل الطبقات المتميزة القديمة عندما حرصت على اللغة الفرنسية وآدابها (يقول بيير واصف إن جده علم جدته الفرنسية وجعلها تقرأ موليير) فإن الطبقات المتميزة الجديدة حريصة على اللغة الإنكليزية وعلى متابعة السينما والتليفزيون والموسيقى الأمريكية.

فإذا أضفنا إلى الرأسمال الثقافى هذا رأس مال اقتصاديًا تراكم، فى الغالب، عبر العمل بوظائف فى الشركات المتعددة الجنسية، أو بحيازة وكالات عن هذه الشركات فى مصر والمنطقة، حق لنا أن نتساءل كما تتساءل مؤلفة كتاب "أحلام عولمية" هل مصر مقبلة على صراع طبقى حاد بين الامتيازات المتزايدة لهذه الفئات المحظوظة وبين الفقر المتفاقم لبقية طبقات المجتمع؟ وهل لهذا الأمر علاقة بما يسميه كتاب "مصر فى لحظة تحول"، الذى أصدرته مطبعة الجامعة الأمريكية بترتيب مع دار زيد البريطانية، دورات الاحتجاج؟ وهل مصر بطريقها إلى أن تصبح "أمة منقسمة" كما يلمح كتاب "أحلام عولمية"؟

لا يبدو محتملا فى المستقبل المنظور أن تنشأ صراعات طبقية تعبر عن أمة منقسمة فى مصر؛ فالمطالب التى تطرحها الحركات الاحتجاجية المختلفة التى ظهرت على الساحة العامة منذ تأسيس حركة كفاية فى ٢٠٠٤ ليست مطالب جذرية. ولا يبدو أن هناك استقطابًا حادًا بين القوى الاجتماعية فى مصر. ولو أن أحزاب وتيارات

المعارضة تمثل قوة اجتماعية يعتد بها لحدث زلزال سياسى بعد أن أسفرت انتخابات مجلس الشورى التى أجريت أول يونيو ٢٠١٠ وأعلنت نتائجها النهائية يوم الرابع منه عن حصة بالغة الهزال للمعارضة.

لو أن المعارضة تستند إلى قوى اجتماعية لها حضورها الفعال ولها تأثيرها الذى لا ينكر ولها هيمنتها على جماهير عريضة، ثم يقف حظ هذه القوى عند عدد ضئيل من المقاعد فى التجديد النصفى لمجلس الشورى فى يونيو ٢٠١٠ - لانفجرت غضبة بحجم هذه القوى، غضبة يكون لها تأثير مساو لقوة الفئات الاجتماعية التى حرمت من أن تمثل تمثيلا يكافئ وجودها المفترض، على مختلف الأنشطة التى تقوم عليها الحياة الاجتماعية.

لكن شيئا من هذا لم يحدث. لم يسفر هذا الفوز الضئيل لقوى المعارضة إلا عن بضع مقالات احتجاجية وتعبير عن السخط على شاشات الفضائيات وعلى مواقع الإنترنت. ولقد بلغ ضعف الاهتمام العام بهذه النتائج أنها غرقت فى موجة التظاهر ضد الهجوم الإسرائيلى على أسطول الحرية الذى كان فى الطريق إلى قطاع غزة الفلسطينى المحاصر محملاً بمساعدات إنسانية ثم فى موجة الجدل حول قرار من القضاء الإدارى يسمح بالزواج الثانى للمطلقين من الأقباط وموقف الكنيسة من القضاء ومن الدولة، وإن دل هذا على شىء فإنما يدل على أن الرأى العام مشغول بقضايا وطنية وقومية وإنسانية أكثر مما هو مشغول بصراعات طبقية.

والفئة التى يصف أسلوب حياتها كتاب " أحلام عولمية " هى فئة من المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة تزيد نسبتهم قليلا عن خمسة فى المائة من سكان القاهرة الكبرى الذين يقدر عددهم بحوالى ١٥ مليون نسمة، أى أن هؤلاء المهنيين من أبناء وبنات الطبقة المتوسطة العليا القاهرية لن يزيد عددهم بأى حال عن مليون من البشر يعيشون بين أكثر من ثمانين مليونا.

لكن أساليب حياة هؤلاء تنتقل إلى الفئات الأقل ثراءً من شرائح الطبقة المتوسطة، ومن هؤلاء إلى الطبقات الدنيا. فأبناء وبنات الطبقات الأفقر يقلدون أبناء وبنات الطبقات الأغنى فى الملبس وفى طريقة الكلام وفى خلط العربية بالإنكليزية وفى الاستماع إلى الموسيقى الأمريكية ومشاهدة الأفلام والبرامج التليفزيونية الأمريكية. يلبس الفقراء نظارات وقمصانًا وبنطلونات تحمل أسماء الماركات العالمية التى يحرص عليها الأثرياء، وإن كانت نسخًا مقلدة منها. ويدخلون إلى كلامهم عددًا أقل من المفردات والتعابير الإنكليزية، خاصة الرائج جدا منها. ويتطلعون إلى دخول فضاءات الشغل التى يحتكرها أبناء وبنات الأثرياء وفضاءات السكن والترفيه التى تخصهم.

أما أبناء وبنات الأثرياء فقد تطلعوا هم أيضًا إلى اكتساب الهوية التى تمثل جوهر الشخصية المصرية فى العقود الأخيرة وهى هوية ذات مكونات وطنية ودينية واستهلاكية. والعولى فى هذه المكونات هو المكون الاستهلاكى. أما الدينى فعلامته الظاهرة عند النساء هى الحجاب، وبنات الطبقات المائزة محجبات، منذ انتقل الحجاب من رؤوس بنات الطبقات الفقيرة إلى رؤوسهن،بفضل عمرو خالد، الذى يوضح كتاب "أحلام عولمية" كيف أنه حقق مصالحة بين الحداثة الاستهلاكية وبين التوجهات الإسلامية فى مصر، دون أن تربط مؤلفة الكتاب بين بزوغ نجم عمرو خالد، فى البداية، عبر ما ألقاه من دروس فى النوادى الاجتماعية الراقية، وبين هجرة فتيات الطبقات التى تعمُر هذه النوادى من الفضاء الرحب والمتنوع فئويا وطبقيا فى النادى إلى الفضاء الأضيق والأكثر تجانسا فى الكوفى شوب، وهو الفضاء الذى تسهل السيطرة عليه ورقابته. لكن حرص الكاتبة على التقليل من تأثير التأسلم على حياة القاهريين، وهو اتجاه له ما يبرره، خاصة مع مبالغة إعلام الإسلام السياسى والإعلام الغربى فى قوة هذا التأثير، جعلها لا تلتفت إلى تأثير عمرو خالد فى هجرة الفتيات من جمهوره إلى الكوفى شوب الذى تولى المواءمة بين هويتهن التى اكتسبنها بفضله وبين عالم الاستهلاك الغربى الذى خفف الكوفى شوب طبيعته الأصلية، فَقَبِلَ الاختلاطَ وفرض

عليه قدرا من الحشمة حفظ للكوفى شوب سمعته وحفظ، بالتالى، قدرته على البقاء كمكان يصلح لأن ترتاده بنات الطبقات المحترمة بهويتهن الجديدة ، بحثا عن شريك العمر، فى فضاء حصرى مغلق وليس بحثا عن صديق(بوى فريند) فى فضاء النادى المفتوح ، أو هكذا تقول السردية التى ولدت فى دروس عمرو خالد ، دون أن يسعى هو إلى تخليقها.

وتبدو الفتيات المحجبات الواقفات مع خطيب المستقبل (أو مع البوى فريند)على امتداد الكبارى على نهر النيل وعلى الكورنيش من ماسبيرو إلى كوبرى قصر العينى من جهة القاهرة وعلى امتداد مواز فى الجيزة صورة أقل قدرة على الإنفاق وأقل قدرة على تجنب التحديق العام من مرتادات الكوفى شوب الأكثر ثراء والأكثر تمسكا بالمظهر الخارجى للاحتشام (دون أن يعنى ذلك ما يفيد أن تدينهن غير صادق بالضرورة). لكن من الواضح أن كلا من الفئتين صورة محورة من الأخرى، وقد يقال الأمر ذاته عن شركائهن من الشباب. التمايز الطبقى يعطل التواصل على مستوى فردى لكن الإطار العام للثقافة العضوانية organicist بتعبير حامد ربيع الذى نقله عنه نزيه الأيوبى فى كتابه "المبالغة فى دور الدولة العربية" (١٩٩٦) يحد، برأى كاتب هذه السطور، من احتمالات الصراع الطبقى بقوة التفاعل الاجتماعى، وعبر قنوات التواصل – السياسية والتربوية والإعلامية والثقافية – التعبوية المتجاوزة للطبقات.

وفى المناسبات التى يخرج فيها الشباب والشابات لإظهار تأييدهم للعراقيين أو للفلسطينيين أو للفريق القومى لكرة القدم ، مثلا ، تسقط الحواجز الطبقية. وفى صلاة الجمعة وفى صلاة العيدين، عيد الفطر وعيد الأضحى، تجد جميع الشباب من جميع الطبقات.

ويشير كتاب " القاهرة الكوزموبوليتانية " إلى هذا الامتزاج بين مختلف الطبقات زاعمًا أن تحولاً جديداً بدأ فى صيف ٢٠٠٢ تضامنًا مع الانتفاضة الفلسطينية الثانية التى تضامن معها ملايين الشباب فى العواصم العربية، ثم فى ٢٠٠٣ احتجاجًا على

الغزو الأمريكي للعراق الذي احتج عليه ملايين الشباب في مختلف عواصم العالم، وهذا هو ما تذهب إليه أيضا رحاب المهدي في الفصل الخامس من كتاب "مصر في لحظة تحول". لكن دي كونينغ تطور هذا كله في "أحلام عولمية" إلى أجندة جديدة يحاول الكتاب أن ينتزعها من سياقها التاريخي الوطني قائلاً إن هذه الأجندة التي تبلورت في ٢٠٠٥ هي " أجندة ذات قاعدة حضرية، وهي كوزموبوليتانية وديمقراطية راديكالية ".

ويوافق كاتب هذه السطور على ما قالته من أن الأجندة التي تبلورت في ٢٠٠٥ هي ذات قاعدة حضرية وأنها تتوازى مع تحولات مشابهة في الدول التي كانت ، يوما ما ، ضمن حركة عدم الانحياز، لكنه يعتبر ما يشير إليه هؤلاء الكتاب من المنتمين لمدرسة القاهرة للدراسات الحضرية ، في كتاب "أحلام عولمية" وفي الكتب الأخرى التي أشرنا إليها من مطالب موجهة للحكومة تتعلق بـ " المساءلة، وسيادة القانون، واحترام حقوق الإنسان" مطالب إصلاحية ذات أجندة محلية ، وجزءاً من حركة "مطلبية" – أي غير جذرية وغير ثورية – وطنية ديمقراطية قديمة في مصر ، كانت تنطق بلسان حركات التحرر الوطني في العالم من بدايات القرن العشرين، ومالت إلى الرطانة الأممية والاشتراكية من الخمسينيات إلى السبعينيات من ذلك القرن، ثم اعترضتها حقبة أصولية انحسرت في ١٩٩٧، وعادت وطنية ديمقراطية بعد ذلك ، خاصة بعد أن تبنت جماعة الإخوان المسلمين المطالب الإصلاحية العامة في مصر. وهذه الأجندة ذات قاعدة حضرية، لأن الشباب الريفي الذي كان وقود التمرد الأصولي طوال التسعينيات أصابته خيبة الأمل وتركزت جهود الغاضبين والمحبطين في الريف على الهجرة المشروعة ، أساسا ، وغير المشروعة في هامش لا يتجاوز ١٥ بالمائة من الحركة العامة للهجرة ، بعد أن وضعت الأصولية المسلحة طموحاتهم السياسية على طريق مسدود.

ولعل أهم ما أسهمت به " مدرسة القاهرة للدراسات الحضرية " وهو ما يتضح تأثيره القوي في كتاب " أحلام عولمية " هو أنها ترى بروز الطابع الإسلامي في

السلوك العام لدى غالبية المصريين فى حدوده الوظيفية كعامل للتقريب بين الطبقات ولتخفيف حدة التغريب فى السلوكيات الاستهلاكية للمصريين، سواء من حيث استهلاك السلع أو الخدمات أو استهلاك الأماكن السكنية والمواقع السياحية والترفيهية.

لكن مؤلفة كتاب " أحلام عولمية " لم تحلل لغة الحديث اليومى للمهنيين من الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة الكبرى تحليلاً كافيًا. ولو فعلت لاكتشفت حرص أبناء وبنات هذه الطبقة على مفردات وتعابير تصلهم بجذورهم المحلية، وإن كانوا ينطقون بها بأداء صوتى ذى طابع طبقى مميز. فالواحد منهم لا يشير إلى والده باللفظ الذى يناديه به فى البيت " دادى " أو " بابى " وقد حل محلهما " با " و " ما " فى العقد الأخير، ولكن يتعمد، أمام الأصدقاء، أن يقول " أبويا " و "أمى". لماذا؟ لأن استخدام"بابى" و"مامى" قد يبدو مبررا للاتهام بنقص فى الرجولة، وهو اتهام يبدو أن الذكور من الطبقات المنعمة يخافونه بدليل الإعلان التجارى الذى ظهر فى ٢٠١٠ فى الأحياء الراقية فى القاهرة والذى يعتبر مشروب الشعير(الخالى من الكحول، وهذا أمر يرتبط بالإسلامية الاستهلاكية) تعبيرا عن الرجولة ويخاطب المستهلك من سكان تلك الأحياء بقوله: استرجل.

ومن الأمور ذات الصلة هنا حرص أبناء الطبقات المائزة على ارتياد مطاعم شعبية كان بينها " الجحش " فى السيدة زينب، و"أبو رامى" فى المدبح، فى التسعينيات وحتى نهاية العقد الأول من القرن. ومنها الآن "زيزو نتانة" فى الناصرية و "البرنس" فى إمبابة. ورغم أن مطاعم مثل "جاد" وخاصة فى الإسكندرية، و"سى السيد" فى الزمالك هى مطاعم راقية فإن ذوقها المحلى الخالص يجتذب أبناء وبنات الطبقات الميسورة الذين فرضوا تدخين الشيشة (النرجيلة) وهو ممارسة شعبية قديمة على أرقى فنادق القاهرة.

وقد اكتسبت المسافة الفاصلة بين القاهرة وبين المستوطنات السكنية الصحراوية الجديدة دلالة مبالغا فيها عند دى كونينغ التى لم تنتبه إلى أن الصحراء التى تعزل

"دريم لاند" أو "الربوة" عن القـاهرة هـى ذاتهـا التى تعـزل "النهـضـة" و"السـلام" و"الحرفيين" عنها. لكنها على حق فيما تقوله من أن العلاقة بين المؤسسات المتعددة الجنسية وبين فروعها ومركزها الرئيسى فى الخارج أقوى من علاقتها بمحيطها الوطنى. فإلى أين يمضى بنا كل هذا؟ وإلى أين يمضى بنا إصرار مختلف الجماعات من مسلمين وأقباط وبهائيين وسنة وشيعة ونوبيين وسيناويين على التمايز وعلى تعميق الهوية المميزة لكل جماعة، وربما على المغالبة؟ إلى وحدة يعززها التنوع أم إلى تباعد يتصاعد لدرجة تهدد وحدة تسبق التاريخ الإنسانى كله؟ وهل تفكيك الكتلة السكانية المركزة فى الوادى القديم بالخروج الى الظهير الصحراوى وبتعمير سيناء وبإنشاء مجتمع زراعى جديد على الساحل الشمالى ومراكز صناعية فى الصحراء، وهو المطلب المتكرر لشيخ الجيولوجيين المصريين رشدى سعيد، وتوصيل كل محافظات الصعيد بالبحر الأحمر - يمكن أن يخلق مجتمعا منقسما أم يخفف المركزية مع المحافظة على التكامل الإقليمى لبلادنا كما ورثناه عن الأسلاف؟

وإذا أضفنا انفجار العشوائيات، والعمل على توصيل المناطق الحبيسة فى الوادى والصحراء الغربية بالبحرين الأحمر والأبيض ، والميل المتصاعد الى التعددية بكل تجسيداتها إلى ما تحقق من أشكال الخروج من القاهرة وما لا يزال مجرد خطط تنتظر التنفيذ - فقد يكون السؤال الأهم هو : هل تتمرد القاهرة على الخط المستقيم فى التخطيط الحضرى؟ لقد كانت فلسفة الخط المستقيم تحول فضاء المدينة إلى مجموعة ميادين يخرج من كل منها عدد من الشوارع المتوازية والمتقاطعة - كانت طريقة فى التخطيط الحضرى تفرض هيمنة الحكومة المركزية التى ضمنها البارون هاوسمان مخطط باريس الحديثة للإمبراطور نابليون الثالث وبالتالى لإسماعيل باشا الذى استنسخ هذا النموذج ولمن حافظوا عليه من بعده. فهل فجرت الضغوط السكانية هذا الخط وأعلنت نهايته فى القاهرة؟

هذه تساؤلات لا تمكن معالجتها إلا من موقع يتيح رؤية أوسع من تلك التى يتيحها الفضاء الضيق والمغلق والحصرى لمحال الكوفى شوب الراقية فى قاهرة الطبقة المتوسطة الراقية.

أسامة الغزولي

القاهرة - صيف ٢٠١٠

تنويـــه

فى أول عـهدى بالقاهرة كان من أعرفـهم من الناس قليلين وما أعرفه عن المدينة قليـلا. والآن، بعد سنوات من البحث والزيارات الشخصية أصبحت القاهرة موطنا ثانيا، بفضل كل من ساعدونى على التعلم، وقاسمونى الحكايا وأدخلونى فى صداقتهم. وقد أسهم أناس عديدون، بشكل أو بآخر، فى فهمى للقاهرة المعاصرة كما هى مبينة فى هذه الدراسة: قابلت بعضًا منهم مرة واحدة وأصبح آخرون أصدقاء حميمين. ولا يسعنى أن أذكر إلا قلة من هؤلاء الناس، لكنى أبقى مدينة لكل أولئك الذين أظهروا لى مساندة وحنانا صادرين عن حسن الطوية. وعلى رؤاهم تعتمد هذه الدراسة. ولا يسعنى إلا أن آمل أن يتعرفوا على بعض ما أسهموا به وعلى ما قدمت أنا، فى حدود متواضعة، من رؤى جديدة أيضًا.

أشكر جمال ويحيى اللذين ساعدانى على أن أبدأ، وعادل عبد المنعم لأنه علمنى عربية المصريين بهذا القدر من الفعالية، وغادة طنطاوى التى ساعدتنى على استكشاف الأدبيات المصرية عن الطبقة المتوسطة. وأدين بالعرفان لكل من نهى ومايسة لما قدمتاه من مساندة ومودة، ولما بدر عن عائلتيهما من كرم وحنان. وأشعر أن حسن الطالع ساق إلى دينا وسامر وتامر كزملاء وكأصدقاء. وقدم لى أفراد أسرتىْ الخيال والشعبى بيتًا وأنا بعيدة عن بيتى. وكان شاكر ومروى ودينا ونعمة مستعدين دائمًا لتقديم الحلول ومناقشة مختلف الأمور واقتسام بعض خبراتهم ومعارفهم معى. وأنا شاكرة، أيضًا، لنيفين على محادثاتنا المطولة عن مصاعب الحياة ومتاعبها فى القاهرة، وشاكرة لمنى لأنها جعلتنى جزءا من حياتها. وأود أن أشكر مصطفى وأحمد وفريال وإيمان وهايدى

وياسر وعلاء على إسهاماتهم التى لا تقدر وعلى صداقتهم. وقد أتيح لى، من بداية البحث،أن أختبر أفكارى بأن أطلع عليها محمد واكد الذى كانت لديه، دائمًا، حكايا جديدة عن الزمن المجنون الذى نعيشه. وأود أن أشكره على احتماله لتساؤلاتى التى لا تنتهى، فى صبر، وعلى تصويبه لما قمت به من نقش إفرنكى للأصوات العربية. وقد حال مصطفى دون أن أغرق فى أوقات الشدة بحنانه وبتفاؤله الراسخ. وقد ساعدنى بطرق تفوق قدرتى على التعبير. ويسعدنى أن صداقتى مع هؤلاء الأفراد امتدت إلى ما بعد فترة البحث وإلى بعض الأماكن غير القاهرة، فى بعض الحالات.

ولم تقتصر مدرسة أمستردام للعلوم الاجتماعية على التمويل السخى لرسالة الدكتوراه التى أنشأت عليها هذا الكتاب بل إنها أمنت، أيضًا، بيئة مضيافة ومحفزة ذهنيًا. فالتفانى الذى أظهره العاملون فى المدرسة تجاه الطلاب جعلها أكثر من مجرد مؤسسة أكاديمية. وساندت المنظمة الهولندية للبحث العلمى بسخاء رحلة متابعة بحثية ومولت زمالة فى المركز الدولى للدراسات المتقدمة " إيكاس ICAS "، بجامعة نيويورك، فى شتاء/ ربيع ٢٠٠٦ وهو ما أتاح لى رفاهية التبطل الأكاديمى. أدين بالعرفان لتيموثى ميتشيل وللطاقم المقيم فى إيكاس على ما أظهروه من رفاقية فى تلك الفترة.

ولم يكن لهذه الدراسة أن تتحقق من دون الحماس والمساندة والعطاء الذهنى من أصدقائى وزملائى وأساتذتى فى أمستردام. وأود أن أعبر عن العرفان تجاه أينليس مورز لما منحتنى من حرية فكرية وتجاه بيتر جيشيار وبيرجيت ماير وفرانسيس جودة على ما أبدوه من مساندة وحماس. وأود، أيضًا، أن أشكر كل أعضاء النادى الأنثروبولوجى الذى أمن منتدى بناء للمناقشات الصريحة وللمناظرات التى كانت، فى بعض الأحيان، متأججة. وقد شاركتنى إينيس تريغو دى سوسا كثيرًا من المصاعب والمتاعب فى هذه الرحلة، فى حين شاركتنى ميريام أوراغ الاشتباك مع الشرق الأوسط. وكانت بيا دى ماتيو أقرب الشهود إلى الاطلاع على جنون كتابة أطروحة. أشكرها على المساندة والصداقة، من البداية للنهاية. وقد كانت الرفاقية والحضور

الذكى والفعال من جانب باتون ساسترا ميديايا موضع تقدير بالغ، وكانت كذلك أيضاً الصحبة المخلصة والذكية لفازيرا زامندار. وقد أعارتنى ويكى فينك عينها الناقدة وساعدتنى على صياغة أكثر فعالية لوجهات نظرى. وبرغم المسافة بقيت جوليا هورنبيرغر صديقة حميمة وشريكًا أكاديميًا محفزًا يحظى بكل تقدير. وقد وقفت إيلين موير بجانبى منذ البداية، زميلة وصديقة. وساعدتنى على إدراك مغزى الدراسات الحضرية بالنسبة للقضايا التى واجهتها فى القاهرة. وقد علمتنى الكثير، أيضًا، عن تعقيدات اللغة بتحرير نسخة أولية من هذه المخطوطة التى ساعدنى، بعد ذلك، فى مراجعتها عرفان أحمد وريفكى جافى وآندرو غيبهاردت. وأنا مدينة لمحررى هذا الكتاب فى مطبعة الجامعة الأمريكية بالقاهرة على ما أظهروا من حماس لنشر هذا الكتاب. وقد نشرت آنتيبود: مجلة الجغرافيا الراديكالية العدد ٤١ من المجلد الثالث (يونيو٢٠٠٩) نسخة من الفصل الخامس بعنوان " الجندر والفضاء العام والفصل الاجتماعى فى القاهرة: عن سائقى التاكسى والمومسات والمهنيات " أشكر هيئة تحرير آنتيبود والناشرين وايلى- بلاكويل للسماح لى بنشر الاثنين معًا.

وأخيراً فلم يكن بوسعى أن أنجز هذه الدراسة من دون الحب والمساندة غير المشروطين اللذين قدمهما لى والداى توم وماريكى دى كونينغ - غروثويزن. وكان جداى ملهمين لى بطرائق أقل صراحة. فمنذ البدايات وحكايتهما العابرة للقومية مصدر دهشة متسائلة ومصدر حب للتاريخ الاجتماعى. وقد امتلكت آغنيس (سيوس تدجوى) غروثويزن القدرة على الحركة بين العوالم فى أسلوب واقعى مذهل، فى حين وجد بيرت غروثويزن مسالك إلى الحنان رغم التجارب الصعبة فى حياته.

وأمدنى الاثنان بدروس عن عالم يكون فيه الجميع، بالنهاية، مجرد بشر. إليهما أهدى هذا الكتاب.

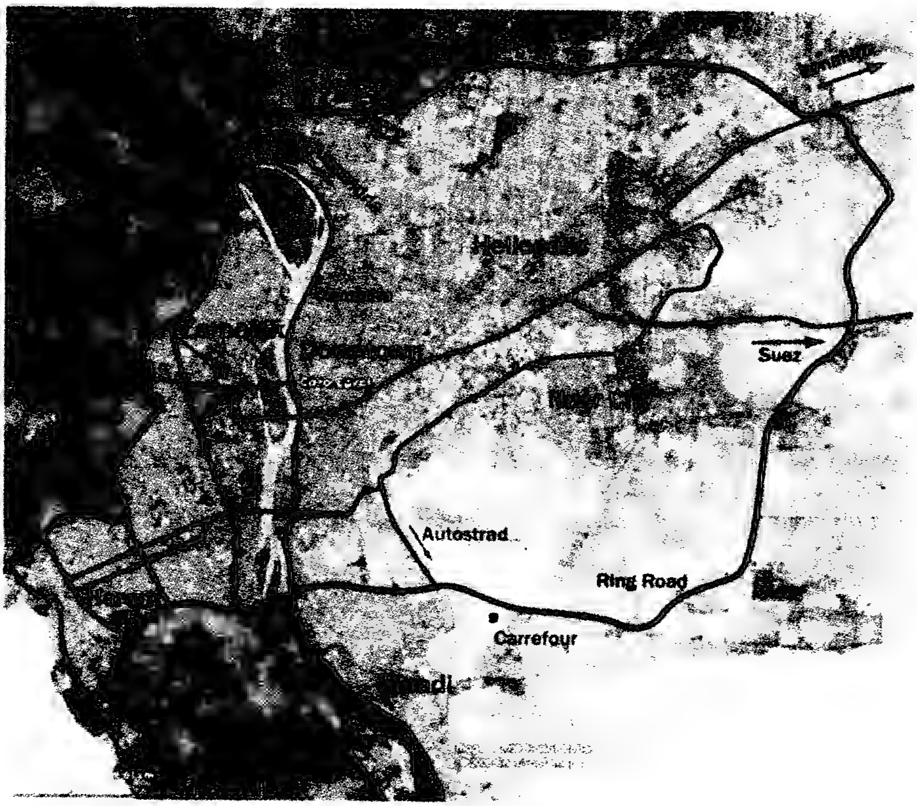

خريطة للقاهرة توضح عدداً من مناطق الطبقات الوسطى والراقية والطرق العامة. طورها مارتن دى كونينغ على أساس صور غوغل الخرائطية.

بيان بالنقوش الإفرنكية للأصوات العربية(*)

لأن معظم الكلمات العربية فى النص تعبيرات عامية قاهرية فقد اخترت نظاماً للنقش يعكس النطق المحلى. وقد اتبعت النظام الذى اكتسبه قاموس العربية المصرية تصنيف السيد بدوى ومارتن هندس (بيروت: مكتبة لبنان، ١٩٨٦) لكنى بسطت نسخ الأبجدية العربية لتكون ميسرة على نحو أكبر للقراء الذين لا دراية لهم بالعربية. وهكذا فأنا أستخدم:

(s) لكل من س و ص

(h) لكل من ح و هـ

(t) لكل من ط و ت

(d) لكل من د و ض

(z) لكل من ز و ظ

(sh) لـ ش

(kh) لـ خ

(gh) لـ غ

(،) لـ ع

(*) ملحوظة خاصة بالنسخة الإنجليزية.

(,) لكل من ء و ق، عندما يحل محل ق صوت حنجرى انفجارى كما فى أهوا (قهوة بالعامية المصرية - المترجم)

أما الحروف الصائتة الطويلة فتمثل بحرفين صائتين، وتمثل الحروف الصامتة المشددة، على نحو مشابه، بمزدوجات صامتة بالإنكليزية (مثلا، muhaggabat) . وقد كتبت أسماء الأعلام للأشخاص والأماكن وفقًا لهجائها الإنكليزى المعتاد.

مقدمة

المهنيون الشبان والمدينة

لو بطلنا نحلم نموت
لو عاندنا نقدر نفوت
لو عدينا مرة خلاص
لو ردينا ضاع الخلاص
حبة صبر حبة حماس
يبقى الحلم صورة وصوت

من أغنية محمد منير " لو بطلنا نحلم نموت "
(ألبوم افتح قلبك)

إذا كان على أن أروى قصة هذه الدراسة فإن إحدى أمسيات نوفمبر ٢٠٠١ يمكن، بالتأكيد أن تكون نقطة بداية مهمة. كنت قد وصلت إلى القاهرة قبل ذلك التاريخ بعدة أشهر وجعلت مشهد وسط البلد اليسارى التقدمى بفنانيه وصحفييه ونشطائه والحالمين فيه قاعدة لاستقرارى. ولكن فى ذلك المساء توجهت إلى فندق خمسة نجوم فى الزمالك، حى الصفوة القاهرية القديمة، حيث قابلت حشداً من الشباب القاهريين المتأنقين فى ملابسهم الرسمية. كانوا أعضاء " صحارى سفاريز " وهو تجمع قام

على أساس الإنترنت قبل عدة أشهر خلت، للتقريب بين الناس المزمعين على القيام برحلات إلى الصحراء وإلى مناسبات اجتماعية أبسط، في المدينة. انعقد الاجتماع استعداداً لرحلتنا القريبة إلى سيوة. وفي حين كانت هناك تجمعات عديدة قاهرية المنشأ عبر الإنترنت تنظم منتديات وعدداً متنوعا من الأنشطة الاجتماعية للمهنيين من الشرائح العليا للطبقة المتوسطة، فقد كانت "صحارى سفاريز" واحدة من أشهر وأنشط المجموعات. وكانت إحدى نقاط الجذب القوية لديها اللقاء مع أصحاب عقليات متشابهة، خاصة من الجنس الآخر.

وقد تكونت عضوية المجموعة، التي كانت تنمو بسرعة، وعلى نحو واسع، من مهنيين من شباب الشرائح العليا من المهنيين العاملين في شركات متعددة الجنسيات، وفي مؤسسات استشارية وفي جمعيات أهلية ووكالات تسويق وغير ذلك مما يعد الشريحة الأعلى في الاقتصاد الحضري. وقد تعلم معظمهم في " مدارس لغات " وهي مدارس خاصة تدرس معظم المنهج المقرر بلغة أوربية، وكانت إنكليزيتهم طليقة، نسبياً، معظم المحادثات كانت تدور بخليط من العربية والإنكليزية، وهذه هي عامية شباب القاهرة من المهنيين من الشرائح العليا للطبقة المتوسطة. ورغم تمام اعتيادهم على المتطلبات والذوائق الكوزموبوليتانية فقد بدا أن معظم أعضاء المجموعة حريصون على الأعراف المحددة طبقياً للتهذيب وللياقة الدينية. لقد كانوا جزءا من طبقة تناسب الشرائح الأعلى في سوق العمل، فضاءات الشغل العابرة للقوميات في القاهرة والتمثيلات الميدياوية لجيل المستقبل المصري.

وقدمني من تعرفت إليهم في بداية خروجات(*) " صحارى سفاريز " إلى عدد من الشبكات المترابطة بغير إحكام من المهنيين في الشرائح العليا للطبقة المتوسطة. ولأني

(*) استخدمنا اللفظ العامي "خروجات "المقابل للكلمة الإنكليزية outings لأنه متطابق معها ومع الروح البسيطة لأسلوب المؤلفة في هذا الموضع. (المترجم)

من الشريحة العمرية ذاتها، تقريبًا، وقادرة مثلهم على المزج بين المخزونين العربى والإنكليزى، بسهولة، كنت رفيقًا حسن المعشر فى خروجاتهم. أخذتنى هذه الخروجات إلى قاهرة كنت غير عارفة بها إلى حد بعيد. وسرعان ما وجدت نفسى أزور الكوفى شوب الراقى مثل سيلانترو وبينوز والريتروكافيه القائمة فى مناطق غنية مثل المهندسين والزمالك والمعادى ومصر الجديدة بشكل يومى، تقريبًا. وقد تميزت محال الكوفى شوب هذه بما فيها من قوائم طعام وشراب غربية وتصاميم مزينة ونظافة رائعة وجو مكيف الهواء إضافة إلى جمهورها المختلط الجندر. وعلمت أن هذه الأماكن أصبحت الفضاءات الحضرية المركزية للحياة الاجتماعية لكثير من المهنيين الحضريين الميسورين نسبيًا.

وأثار لقائى مع مجموعة من المهنيين على هذه الدرجة من الاختلاف عن أهل الطبقات المتوسطة الذين التقيتهم قبل ذلك – عديداً من الأسئلة المتعلقة بالفروق الاجتماعية فى ساحة الطبقة المتوسطة بالقاهرة. وهذه الدراسة هى محاولتى لرسم خريطة هذه الفوارق الاجتماعية وتفسيرها.

وبذلك فهى تعالج المياومة الطبقية فيما أصبح يدعى المرحلة الليبرالية الجديدة فى مصر (دينيس ١٩٩٧) وتفحص تجربة القاهرة فى التحرير الاقتصادى فى مرحلة عولمية. وأنا أتتبع الطرائق التى تنغرس بها التفاوتات الجديدة فى أشكال التشظى الأكثر قدما، وتعيد بذلك صياغة هذه الأشكال.

وأرسم مسالك إعادة الصياغة للتفاوتات والتمييزات، فى شكلها هذا، عبر المجالات المترابطة للتربية وسوق العمل وفضاءات الترفيه والساحة الحضرية الأوسع. وتضطرم عبر هذه المجالات التناقضات بين ما هو محلى على نحو ظاهر وما هو كوزموبوليتانى على نحو صارخ.

صورة القاهرة على ضفاف النيل

من التنمية الوطنية إلى الليبرالية الجديدة

فى مطلع القرن الحادى والعشرين اكتسب المشهد الدينى فى القاهرة لمسة عولمية باهرة. ففنادق الخمسة نجوم الباذخة، الأبنية الإدارية المرتفعة، المولات الجديدة النظيفة على نحو رائع والكثير من محال الكوفى شوب الراقية المستطرفة التى تقدم أنواع الإكسبريسو باللبن المبخر (الكافيه لاتيه) وسلاطة الخس المخلوط **Caesar salads** بدت وكأنها تبشر بموقع القاهرة كمدينة عولمية. وقدمت المجتمعات المغلقة الراقية الطالعة ومثلها الفنادق وملاعب الغولف والمؤسسات التربوية الأجنبية فى الصحراء المحيطة بالقاهرة للميسورين من أهلها منتجات وخبرات متجاوزة للقومية، كما قدمت لهم عالمًا متجانسًا اجتماعيًا وكاملاً لم يكن بوسع المدينة بما فيها من معدلات فقر مرتفعة وازدحام وتلوث (انظر دينيس ٢٠٠٦). هذه القاهرة الباهرة هى أحد أوضح التعابير عن ثلاثة عقود من اللبرلة الاقتصادية. ورغم أن أفخم عوائد المرحلة الليبرالية الجديدة فى مصر يمكن العثور عليها فى الأحياء الصحراوية الجديدة فى القاهرة، فإن الأحياء الحضرية الأرسخ تعرضت هى الأخرى لتحولات عميقة. وفى حين يلمع البريق والواجهات البراقة لأحدث صور العصرنة الحضرية لجذب الاهتمام، فمن المهم تفحص الطرائق التى أعيدت بها صياغة المجتمع القاهرى وراء هذا السطح الباهر.

فقصص الحياة اليومية فى قاهرة الطبقة المتوسطة تنم عن التحول الأكبر فى مصر من دولة تنموية إلى دولة نيوليبرالية. فهذه القصص ترسم خريطة الآثار التى ترتبت على الانتقال من اقتصاد وطنى تحكمه المشروعات العامة وتوجيهات الدولة إلى اعتماد على القطاع الخاص والتكامل مع الشبكات العولمية. فقد جرى، على نحو متصاعد، أن استُبدل بمشروع التنمية التى تقودها الدولة فى زمن عبد الناصر سياسات تسعى إلى اختزال الدور الراسخ للدولة كراع وإلى إعادة صياغة العقد الاجتماعى السابق بين الدولة والشعب. وفى الوقت ذاته تتولى الدولة مهمة تنموية جديدة يقصد بها الوصول بالشرائح المميزة فى البلاد لمجاراة العولمى.

لقد لعبت الدولة المصرية، فى السنوات التالية على ثورة ١٩٥٢، دوراً تصاعدت مركزيته وسيطرته على الاقتصاد الوطنى. وكما كان الأمر فى عدد من الدول الرئيسية فى حركة عدم الانحياز، اتسمت هذه المرحلة التكوينية فى التاريخ المصرى بنوع خاص بها من الاشتراكية وبمشروع للتنمية الوطنية قامت الدولة بدور اللاعب الأساسى فيه، واعتمدت سياسات الدولة على طبقة متوسطة حضرية كبيرة، وخاصة بمقرطة التعليم وتأمين وظائف حكومية لكل الخريجين (عبد الفضيل ١٩٨٠). وأصبحت الطبقة المتوسطة من المهنيين فى القاهرة تلعب الدور المركزى فى سرديات التقدم الوطنى والحداثة. ومنذ منتصف سبعينيات القرن الماضى، صعوداً، شهدت مصر انسحاب الدولة من دورها السابق باعتبارها اللاعب الأول على ساحة التنمية الوطنية. فقد كان على مصر ، نظريًا على الأقل، أن تصبح اقتصاد سوق ليبراليا مندمجا فى السوق العالمية ومنصاعا للتصورات النيوليبرالية.

وزادت وتيرة هذا التحول، على نحو ذى مغزى، فى تسعينيات القرن الماضى مع تبنى سياسات التكيف الهيكلى. ويدفع إيريك دينيس بأن مصر دخلت عصراً ليبراليا جديدا يذكر بمرحلتها الليبرالية الأبكر قبل الحرب العالمية الثانية (١٩٩٧، ٢٠٠٦) ونظرا لارتباطها القوى تاريخيا بالمشروع والدولة الناصريين، فقد شعرت الطبقة المتوسطة المهنية، على نحو خاص، بأثر الفروق الاجتماعية والتمييزات الثقافية الجديدة فى العصر الليبرالى الجديد فى مصر.

ومع التخلى عن السردية والمشروع الناصريين الأقدمين لصالح محاولات الارتفاع بالبلاد إلى مستوى يساير المعايير والأساليب المسيطرة عالميا، فإن الأحلام المتصلة بعهد عبد الناصر يتصاعد اصطدامها بواقع معاد. وفى الوقت ذاته فإن أحلاما جديدة حول مصر منتمية إلى العالم الأول هى فى متناول أولئك المهنيين الحضريين الشبان القادرين على محايلة المجالات الكوزموبوليتانية على نحو صارخ فى القاهرة الراقية. فهم يقدمون باعتبارهم الوسطاء الناجحين بين " المحلى " و " العولمى " بغير اختلاف

عن "الطبقة المتوسطة الجديدة" فى الهند التى، كما تؤكد ليلا فيرناندين، بنيت لتكون "الطائفة الاجتماعية القادرة على التفاوض من أجل علاقة جديدة للهند مع الاقتصاد الكونى من الناحيتين الثقافية والاقتصادية" (٢٠٠٠ب: ٩١).

المدينة المنقسمة

صاغت ساسكيا ساسن (٢٠٠١) الدفوع المنظومية المعروفة الآن فى أن العولمة الاقتصادية تنشأ عنها شبكة متصاعدة الكثافة من المدن العولمية التى تضم مراكز السيطرة على عمليات الإنتاج المبعثرة مكانياً والتى هى مواقع لإنتاج الخدمات التجارية المتخصصة التى تجعل هذه السيطرة ممكنة. وتصبح القطاعات الحضرية المنخرطة فى مثل هذا النوع من وظائف التنسيق الكونى منفصلة، على نحو متصاعد، عن المشهد الاقتصادى المحيط بها. هذا التفكيك فى الاقتصاد الحضرى يصحبه تحول فى التمثيلات الطبقية مع جغرافيات حضرية متباعدة وأنماط متباينة لسكنى المدينة واستهلاكها.

ويعالج تحليل ساسن " للتكوين المدينى العولمى " تحولات الساحات الاجتماعية – الاقتصادية فى نيويورك ولندن وطوكيو. وفى مناقشة جرت قبل وقت قصير بينهما ، دفعت ليلى فينيال وإيريك دينيس بأن نماذج المدينة العولمية، وإن كانت مفيدة لفهم "اقتصاديات الأرخبيل فى المدن والمراكز الحضرية المتعولمة " فهى قليلة الجدوى فى فهم تعقيدات العولمة فى مدن العالم الثالث. وهما يشيران، على نحو خاص، إلى التركيز الفريد على أنشطة قطاع التمويل والخدمات على حساب " استمرار القطاعات الصناعية والإنتاجية فى المدينة، مع تحويلها " (فينيال ودينيس ٢٠٠٦: ١٠١) فالشبكات العولمية التى وقعت فيها مدن جنوبية مثل القاهرة ليست أكثر تنوعاً فحسب بل إنها تضم، أيضًا، مدنًا " هى على الطرف المعاكس تماما من سياق التحكم

والسيطرة فى وظائف المدينة العولمية " (روبنسون ٢٠٠٢: ٥٤٧، داوسون وإدواردز ٢٠٠٤). ومن الأمور ذات المغزى أن " المحركين العولميين " للقاهرة لا يقتصرون على الشركات متعددة الجنسيات، بل ينضم إليهم أيضًا، وهذا أمر مهم، صناعة التنمية - المنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية شبه المحلية التى تمولها - وكذلك السياحة. وهذا الوضع غير المستقل له تاريخ طويل. وكما يدفع آشلى داوسون وبرنت هينز إدواردز فإن " الخرائط الإمبراطورية القديمة لاتزال تؤثر على دوائر الثقافة ورأس المال، فى ظل " الإمبريالية الجديدة " وفى توتر معها، فى مجال العولمة الاقتصادية" (٢٠٠٤: ٣، كينغ ١٩٩٠).

ورغم هذه الفروق المهمة فى المسارات التاريخية، والبنى الاجتماعية- الاقتصادية والمواقع المعاصرة فى الشبكات الكونية، فإن أعمال ساسن تدعونا إلى استكشاف العلائق بين العولمة الاقتصادية والتحول الاجتماعى والاقتصادى فى الساحات المدينية، شمالية كانت أم جنوبية.

وتدفع ساسن بأن الاستقطاب الاجتماعى والاقتصادى، بما له من تأثير خاص على الطبقات المتوسطة هو واحد من الملامح المركزية للتحولات الاجتماعية - الثقافية التى تصحب " التكوين المدينى العولمى ". وتتناغم هذه التمثيلات الطبقية المتحولة مع حقائق الواقع القاهرى. فقد اتسعت التفاوتات الاجتماعية، بشكل ملحوظ، فى سياق ثمانينيات وتسعينيات القرن الماضى. وشهدت المدينة صعود بورجوازية جديدة، وكذلك نمو الطبقة المتوسطة العليا المهنية الميسورة نسبيا التى يعمل أعضاؤها فى القطاعات ذات التوجه الدولى من الاقتصاد الحضرى. وفى المشهد الاجتماعى الذى يقع وراء هذه المجموعات الأوفر حظًا، ظلت الأجور الحقيقية فى تدهور متصل فى حين أدى سحب مجموعة كاملة من أشكال الدعم والخدمات الحكومية إلى جعل الحياة مكلفة بشكل متزايد. فقد كان نصف سكان مصر فى تسعينيات القرن الماضى يعدون ضمن الفقراء أو على حواف الفقر[1]. كانت الطبقة المتوسطة المهنية العريضة فى الحضر التى نمت

فى عهد عبد الناصر يتزايد انقسامها بين مهنيين فقدت مؤهلاتهم التى يغلب عليها الطابع المحلى كثيراً من قيمتها السالفة ، وآخرين تسمح لهم مؤهلاتهم الكوزموبوليتانية الرسمية وغير الرسمية بالتنافس على الوظائف المجزية نسبيًا فى فضاءات العمل الأعلى فى مصر.

ويتصل هذا الاستقطاب الاجتماعى بإعادة هيكلة الاقتصاد فى مصر وبتعزيز قطاع خاص مندمج فى الشبكات الاقتصادية العولمية (ميتشيل ٢٠٠٢). وظهر فى اقتصاد القاهرة الحضرى قطاع أعلى يتألف من شركات ومؤسسات دولية التوجه. ويمثل المهنيون من الشرائح العليا فى الطبقة المتوسطة من الموظفين فى مراكز إدارية ومهنية فى هذه القطاعات ذات التوجه الدولى - المعادل القاهرى لشريحة أصحاب الدخول العالية التى ناقشتها ساسن. فهم يحصلون على أجور جيدة نسبيًا بالمقارنة مع الرواتب الضئيلة لوظائف هى إلى حد بعيد غير مستقرة، فى القطاع الخاص وفى المستويات الدنيا للوظائف الحكومية، يشغلها مهنيون شبان من شرائح أقل تميزاً فى الطبقة المتوسطة (عبد المعطى ٢٠٠٢: ٣٢٤-٣٣٠) وفى حين كانت الرواتب فى ٢٠٠٢ فى المجموعة الأخيرة من الوظائف تتراوح بين ١٥٠ و١٠٠٠ جنيه مصرى شهريًا، فإن الرواتب فى القطاع الأعلى من سوق العمل كانت تبدأ من ١٠٠٠ جنيه وكان يمكن أن تتجاوز عشرة آلاف جنيه(٢). وقد احتمى مهنيون كثيرون من كبار السن من صدمة التقسيم هذه وراء هياكل اقتصادية قديمة بقيت قائمة، لكن المهنيين الأصغر سنًا واجههم سوق العمل المقسم على نحو أشد فى الاقتصاد الحضرى.

ونشوء هذا المعادل القاهرى للطبقة المهنية ذات الدخل المرتفع عند ساسن هو بؤرة اهتمام القسم الأكبر من هذه الدراسة. وأنا أدعوهم شريحة عليا من الطبقة المتوسطة لأبرز الفوارق المهمة بينهم وبين المهنيين من الشرائح الأخرى للطبقة المتوسطة من حيث الدخل وأسلوب الحياة والعوالم الاجتماعية. وما يميز هذه الشريحة الأعلى من الطبقة المتوسطة، بوضوح، عن غيرهم من المهنيين من الطبقة ذاتها هو ما

أسميه " رأس المال الكوزموبوليتانى": التآلف مع المعايير القياسية والمخزونات المسيطرة كونياً للعالم الأول – منها إتقان الإنكليزية، على سبيل المثال – وكذلك القدرة على المشاركة فى أساليب حياة كوزموبوليتانية صارخة، وهى الأساليب التى أصبحت امتيازاً حصرياً للطبقة المتوسطة العليا والنخب فى القاهرة. وفيما كان المهنيون من الطبقة المتوسطة الحضرية، الذين يرمز إليهم بالمهندس والطبيب، الفاعل الرئيسى فى مصر الناصرية، فالمهنيون من الطبقة المتوسطة العليا الموظفون فى المكاتب المتقدمة تكنولوجيا للشركات ذات التوجه الدولى أصبحوا أيقونات السرديات والمشروعات الوطنية فى الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر. فبعد أن تزودوا بأحدث الموضات والتكنولوجيات صاروا القادرين على مجاراة المستويات العولمية وشغل فضاءات العمل العابرة للقوميات.

وتتجسد هذه التفاوتات الاجتماعية فى المشهد الحضرى فى شكل فصل حيزى واجتماعى – ثقافى (سنغرمان وعمار ٢٠٠٦). وقد أصبحت الساحة المدينية فى القاهرة موسومة بدرجة عالية من التقسيم إلى قطاعات فى مجالات الإنتاج والاستهلاك (أمين ١٩٩٩). ومعظم القاهريين مجبرون على استهلاك النواتج والخدمات التى تؤمنها أسواق غير رسمية للاستهلاك والترفيه تناسب قدرتهم الشرائية المحدودة. ويتعين عليهم التفتيش عن البقايا الشحيحة لمنافع نظام الدعم الناصرى وشراء واردات صينية رخيصة. ورغم ذلك، يجد الكثيرون صعوبة لتأمين الاحتياجات. وفى الوقت ذاته فالمشهد يتحدث، أيضاً، عن وجود قاهرة أخرى. فالمجتمعات المغلقة تبنى فى الصحراء المحيطة بالقاهرة، والشوارع مليئة بالسيارات الفخمة، وحى المهندسين الراقى يواصل انتزاع دور وسط البلد (مركز المدينة) باعتباره المركز الحضرى بالنسبة للقادرين على دفع أسعاره المرتفعة نسبياً (آرمبراست ١٩٩٩، دينيس ٢٠٠٦) وفوق ذلك، ونتيجة لتدهور الخدمات الحكومية وما يتزامن مع ذلك من اليسار النسبى بين الطبقات العليا والمتوسطة العليا فى القاهرة، شهدت المدينة ازدواجية فى الخدمات والمؤسسات

الاجتماعية (أمين ١٩٩٩). ففى القاهرة الآن عدد دائم التزايد من المدارس والمعاهد والجامعات الخاصة، وكذلك المستشفيات الخاصة. وفوق ذلك ففى المناطق الغنية مثل المهندسين ومصر الجديدة والمعادى تقدم محال السوبر ماركت البالغة النظافة مثل مترو وألفا ماركت السلع التى تلزم أساليب الحياة من الدرجة الأولى، فى حين تؤمن محال الكوفى شوب والمطاعم الراقية فضاءات عامة جديدة توحى بمسرات وانتماءات العالم الأول.

وتدفع ساسن بأن العاملين أصحاب الدخول المرتفعة فى المدينة العولمية هم رواد ممارسات استهلاكية جديدة لها تأثير ذو مغزى على المشهد الحضرى لهذه المدن (٢٠٠١: ٣٤١). وقد ساهمت أنماط الاستهلاك وأساليب الحياة لدى القاهريين من شباب الطبقة المتوسطة العليا، على نحو مماثل، فى ظهور فضاءات عامة جديدة للاستهلاك والترفيه، كما حولت محاور المركزية فى المدينة على اتساعها. فهم يسكنون ويستهلكون فضاءات القاهرة الراقية وخلقوا حضوراً محدداً شاباً ومهنياً ينتمى للطبقة المتوسطة العليا فى المشهد الحضرى، فى محال الكوفى شوب الراقية التى أناقشها فى الفصلين الرابع والخامس، قبل أى مكان آخر.

العاصمة الكوزموبوليتانية

لادعاءات المعرفة بالخارج (بره: الغرب، العالم الأول، الكونى) والاتصالات معه، فى القاهرة، تاريخ طويل باعتبارها علامات انتماء نخبوى، تماماً كما تمثل الجذور المحلية والأصالة علامات تميز ما يسمى "الطبقات الشعبية"، (الشعب). وفى كثير من المناطق الكولونيالية وبعد الكولونيالية مثل القاهرة تعد ممارسات النخبة الكوزموبوليتانية أو " المستغربة " إشارة إلى الحداثة والنضج. وتلاحظ إيما نيويللا

غوانو، على سبيل المثال، أنه فى الأرجنتين، فى القرن التاسع عشر لعب " توطين الديناميات العابرة للقومية – وخاصة الاستهلاك الصارخ للثقافة الأوربية – دوراً محورياً كمصدر لشرعية نخبة يونيس آيريس باعتبارها "حداثية" (غوانو ٢٠٠٢ – ١٨٢). وفيما يتعلق بالطبقات المتوسطة البرازيلية تلاحظ مورين دوهارتى، بالمثل، أن البرازيليين من الطبقة المتوسطة يعتبرون توفر البضائع الغربية إشارة إلى تقدم البلاد ودخولها على مسرح العالم (٢٠٠٢: ١٣٠ – ١٣١) وفى القاهرة لا تنم هذه المرجعيات الكوزموبوليتانية عن مركز نخبوى وعن نضج فحسب، لكنها يمكن أن تعتبر، أيضاً، دليل اغتراب واستغراب بلا جذور مرتبطين بتسيب أخلاقى. فتهمة الاستغراب واردة منذ أكثر من قرن، واستخدمت لنقد ما يتصور من فساد ثقافى وأخلاقى لدى الطبقة العليا (آرمبراست ١٩٩٦، ١٩٩٩، بركات ١٩٩٨)

وقد طرح المصطلح " كوزموبوليتانى " بطرائق متباينة، فى الدوائر الأكاديمية وخارجها (انظر، مثلا، كالهون ٢٠٠٣، روبنز ١٩٩٨، تشياه ١٩٩٨) وقد ركز بعض المؤلفين على الكوزموبوليتانيات العامية لدى الناس العاديين، الذين خلقوا، فى تعاملهم مع عالم متعولم، طرائقهم الخاصة ليعيشوا الازدواجية (انظر، بالنسبة للقاهرة، غنام ٢٠٠٢، سنغرمان وعمار ٢٠٠٦) ورغم أنى أعترف بوجود الكوزموبوليتانيات العامية، فاستخدامى لمصطلح " كوزموبوليتانى " يقصد به إبراز العلاقة القديمة بين ادعاءات الاتصال وعضوية النخبة فى مصر. ويدفع جيمس فيرغسون (١٩٩٩) فى دراسته عن عمال المنجم فى حزام النحاس فى زامبيا بأن " المحلى " و "الكوزموبوليتانى" يمثلان أسلوبين متاحين محلياً. ويعكس اختيار أحدهما أو الآخر موقفاً محدداً فى الظروف المحلية. فيشير تبنى أسلوب محلى إلى الولاء لشبكات القرابة والمحلية، فى حين يشير اختيار أسلوب كوزموبوليتانى، بالمقابل، إلى انسحاب من هذه الشبكات إلى حياة حضرية أقل تعييناً. وعلى طريقة فيرغسون، فأنا أفهم " المحلى" و "الكوزموبوليتانى"

كمخزونين محليين يؤخذان ضمن إستراتيجيات وأداءات شخصية. ويدل هذان المخزونان المتمايزان على خيارات وولاءات وأساليب انتماء محددة فى المحيط المحلى. وهذه الخيارات تصرف تصريفًا قويًا بربط المخزونات المحلية على نحو واضح (شعبى أو بلدى) بالطبقة العاملة وربط المخزونات الكوزموبوليتانية الصارخة بالنخبة.

وبرغم مرجعياتها العابرة للقوميات ، فالمخزونات الكوزموبوليتانية تولد محليًا وتكتسب مغزاها من الرغبة فى اكتساب تعقيد العالم الأول والدخول فيه وكذلك من موقعها القديم كمؤشرات طبقية (آرمبراست ١٩٩٩، أباظة ٢٠٠١). وخلال النصف الأول من القرن العشرين، أمنت فرنسا نقاطًا مرجعية لمثل هذه الممارسات وأساليب الحياة الكوزموبوليتانية المحلية المميزة (أباظة ٢٠٠١) وأسست المرحلة الناصرية تحولاً نوعيًا ابتعد عن التماهى المقبول بين أساليب الحياة الكوزموبوليتانية وبين عضوية النخبة.

أما فى عصر الليبرالية الجديد فى مصر، وهو يحاول التكامل مع الشبكات والأسواق العولمية، ويسعى لبلوغ مستويات ومظاهر العالم الأول، فقد أصبحت هذه الكوزموبوليتانية الفجة، مجددًا، مؤشرًا قويًا إلى الانتماء إلى النخبة وإلى التميز. وهنا فقط تجاوزت الولايات المتحدة فرنسا كمرجعية لمثل هذه الممارسات الكوزموبوليتانية المميزة.

وتكرار التيمات القديمة فى المجتمع المصرى الذى قسمته الطبقية وادعاء الاتصال مع "الخارج" والتمكن من المعايير القياسية والموضات الكونية، كل هذا يساعد على تمييز النخب عما يتصور أنه ثقافة محلية الجذور لدى الطبقات الشعبية، وكذلك عن الطبقة المتوسطة الناصرية التى تخلفت عن العصر لدرجة لا يمكن إصلاحها بدرجاتها العلمية المحلية وإجادتها المحدودة للإنكليزية (آرمبراست ١٩٩٦). وأنا أستخدم مصطلح " رأس المال الكوزموبوليتانى " للإشارة إلى تلك الأشكال من رأس المال

الثقافى التى يميزها التآلف مع الرواميز(*) الثقافية السائدة عالميًا. وفى عصر الليبرالية الجديد فى القاهرة، فإن هذا النوع من الرأسمال الثقافى هو مكون مهم فى الثقافات الفرعية للطبقة المتوسطة وللنخبة فى القاهرة. ويستتبع رأس المال الثقافى هذا، بوضوح تام، إتقان الإنكليزية والقدرة على استخدام خلطة العربية والإنكليزية الشائعة فى دوائر الطبقة العليا والمتوسطة العليا، إلى جانب الدبلومات أو الدرجات العلمية الغربية التى تمنحها مؤسسات تربوية مرتبطة بالمعرفة الغربية، مثل مدارس اللغات الخاصة أو الجامعة الأمريكية فى القاهرة. ويقتضى الأمر، أيضًا، معرفة بالغرب وبالثقافة الاستهلاكية الغربية ورواميز الملبس النخبوية التى تحيل إلى الموضات العالمية. وقد أصبح رأس المال الكوزموبوليتانى هذا تعيينًا للقيمة الاجتماعية والثقافية عبر المجالات المختلفة التى ناقشتها هذه الدراسة. فهو مؤشر مهم لدى مدارس اللغات الخاصة والمكاتب الراقية وكذلك فى أماكن الاستهلاك والترفيه الراقية مثل المولات ودور السينما ومحال الكوفى شوب.

الأنثروبولوجيا والحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر

رغم الدور المركزى للطبقة المتوسطة الحضرية فى الصورة الوطنية فى مصر، فإن قلة من الدراسات الإثنوغرافية فقط هى التى ركزت على الطبقة المتوسطة القاهرية. فالعوالم الشعبية الغنية وغير الرسمية، إلى حد بعيد، للطبقة العاملة القاهرية قد درست بتوسع أكبر (مثلا، سنغرمان ١٩٩٥، وهودفار١٩٩٩، ديكان ١٩٨٠، ١٩٩٦). والدراسات الإثنوغرافية للثقافة الشعبية المصرية والأفلام والتلفزة، التى تناقش

(*) codes وتترجم هذه الكلمة منذ عشرات السنين إلى مدونات لكن هذا اللفظ اكتسب معنى جديدا مع ظهور الإعلام الإلكترونى، لهذا فضلنا رواميز ومفردها راموز منعا للالتباس. (المترجم)

التعقيدات الثقافية للطبقة بتوسع، هى الأوثق صلة بدراستى للطبقة المتوسطة فى القاهرة، ويحلل والتر آرمبراست (١٩٩٦، ١٩٩٨، ١٩٩٩) وليلى أبو لغد (١٩٩٣، ١٩٩٥، ٢٠٠٤) السينما والتليفزيون فى مصر كناقلين مهمين للسرديات والخيالات الوطنية، وباعتبارهما جزءا مما تسميه ليلى أبو لغد " تعليمًا وطنيًا ". فقد لعبت الطبقة المتوسطة الحضرية الدور الرئيسى فى هذه السرديات. وأعمال آرمبراست عن الثقافة الجماهيرية والحداثة هى التى تؤمن، على نحو خاص، مناقشات ممتازة عن الانتماء للطبقة المتوسطة فى مصر وتؤمن أيضًا رؤى تحليلية للصلات بين الثقافة والطبقة فى القاهرة.

وقد كان صعود الحركات الإسلامية وكذلك أشكال التدين القاعدية موضع جدل ساخن فى مصر وحازا قدرًا كبيرًا من الاهتمام فى الجامعات والميديا فى الغرب. وقد عالج الأهمية المتزايدة للتدين فى القاهرة وكيفية تأثيرها على الذاتيات والمؤسسات العامة فى مصر – كثيرون بينهم سابا محمود (٢٠٠٥) وتشارلز هيرشكند (٢٠٠٦) وغريغورى ساريت (١٩٩٨). لكن حتى إن كان الإسلام السياسى والتسيد الزائد للخطابات الدينية مهمينًا فى القاهرة المعاصرة، فليسا المصدرين الوحيدين للتماهى والتنافس الاجتماعيين. ويمثل التفكيك البطيء والحاسم للموروث الناصرى وما يصحبه من نشوء تفاوتات اجتماعية شاسعة موضوعين لهما قدر مساو من الأهمية. وأكثر من ذلك، فمن المهم أن يؤخذ بعين الاعتبار إعادة التوجه سياسيًا واقتصاديًا فى مصر وما ينشأ عنه من ترتيبات طبقية إن رغب المرء فى أن يفهم ديناميات الحياة الاجتماعية – الثقافية فى القاهرة. ويتضح هذا، على سبيل المثال، فى الطريقة التى تشيع بها أشكال جديدة من التدين بطرائق بالغة التباين لدى، مثلاً، نساء الطبقة العاملة ونساء النخبة (انظر ماكليود ١٩٩١ عن الديناميات الطبقية للتحجب الجديد).

ولم تصبح الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر موضوعًا لدراسة إثنوغرافية إلا فى وقت قريب. وعند إلياتشار مناقشة لدور " التنمية " (٢٠٠٥) فيما تناقش أباظة دور

الاستهلاك (٢٠٠١ و ٢٠٠٦) أما المناقشة عند واينغار (٢٠٠٦) فتتناول الصدامات بين المحلى والعولى فى عالم الفن القاهرى. وتعالج الإحداثيات الأوسع للحقائق الواقعية الطالعة فى مصر الليبرالية الجديدة بأوفى قدر من الاكتمال فى حقل الدراسات الحضرية والاقتصاد السياسى (انظر المساهمات فى أعمال سنغرمان وعمار٢٠٠٦، دينيس ١٩٩٧، ميتشيل ١٩٩٩ و ٢٠٠٥) وأنا أستكشف كيف تتجسد التطورات التى لحظتها هذه الأدبيات على الأرض فى المنازعات اليومية الناشئة عن التفاوت وفى إعادة رسم التمايزات الاجتماعية - الثقافية وفى الأشكال الجديدة من الفصل الاجتماعى والحصرية الطبقية.

فالطبقة حقيقة يومية طاغية فى القاهرة، سواء من حيث التفاوتات الاجتماعية الشاسعة فيما بين القاهريين أو بسبب الارتباطات القوية بين الطبقة والثقافة، وهى الاتباطات التى تخلق عوالم ثقافية متقابلة وإن كانت مترابطة على نحو معقد. ونادرًا ما عولجت هذه التعبيرات والتنافسات الطبقية فى المشهد المدينى المنقسم فى القاهرة.

ورغم أن كثيرًا من الدراسات الإثنوغرافية عن المجتمع المصرى تمركزت بالفعل فى القاهرة، فإن قلة منها هى التى اتخذت من حياتها الاجتماعية المتشعبة بشكل معقد موضوعا ذا أولوية بالنسبة لها (ومع ذلك فيمكن أن تنظر، مثلاً، غنام٢٠٠٢ وآرمبراست ١٩٩٨). وتركز هذه الدراسة على مثل هذه التفاوضات والتنافسات الطبقية فى فضاءات القاهرة التى تتحول إلى الليبرالية. وتبدأ باستكشاف الفضاءات المؤسسية للتربية وسوق العمل، ثم تتحرك إلى الحياة العامة التى تتكشف فى محال الكوفى شوب والشوارع القاهرية. وتستتبع المياومة الطبقية أداءات ظرفية تتصل بالتفوق والإذعان والشعور بالانتماء أو بعدم الانتماء. وتقرر أداءات طبقية معينة أى أرجاء المدينة يمكن للمرء أن يشعر فيها بأنه فى مكانه، وكيف يرى المرء ويعامل فى فضاءات مختلفة فى خريطة القاهرة المقسمة طبقيا (غنام ٢٠٠٢: ٨٣) فلا يقف الأمر عند اختلاف المواقع المادية والاجتماعية فى القاهرة العاصمة، اختلافًا ذا مغزى، بل إن الخرائط والرواميز

والسلوكيات المسموحة والمتوقعة هى الأخرى شديدة التمايز (انظر، مثلاً، باتيستى ٢٠٠٦) وتتقابل هذه الطرائق المختلفة لسكنى المدينة فى الفضاءات الحضرية القاهرية وتنشأ عنها الحياة الاجتماعية الحضرية الموسومة بمقابلات عابرة للطبقات أعتبرها مميزة للقاهرة. وفى حين يركز جانب كبير من هذه الدراسة على قاهرة الطبقة المتوسطة الأوسع ثروة، فقد سعيت إلى الإبقاء على الحضور التأسيسى والصراعى غالبا لعوالم اجتماعية أخرى فى هذه الفضاءات الحضرية ذاتها. ومع استكشافى لنشوء قاهرة شابة من الطبقة المتوسطة، فإنى أحاول أن لا يغيب عن بصرى ما يكمن تحتها من حرمانات وصراعات هى مكونات صامتة فى تركيب هذه المساحات من الوفرة واليسر الظاهرين.

ويعود الفضل فى فهمى للطبقة المتوسطة القاهرية المعاصرة إلى حد كبير، إلى خبرة من عرفتهم من أهل الطبقة المتوسطة وإلى ما لديهم من معرفة، وهم الذين يعالجون الحقائق الواقعية فى الحياة اليومية القاهرية، على نحو روتينى. وكثير من التحولات الاجتماعية التى لاحظوها عصية للغاية على التوثيق الكمى؛ نظراً لغياب البيانات أو لاستحالة الوصول إليها أو لافتقادها الدقة على نحو مفضوح؛ أو لأنها ليست تفصيلية لدرجة توضح التحولات داخل الطبقة المتوسطة المهنية فى المدينة(٣). وتضيف حداثة عهد معظم هذه التحولات والسرعة التى تغير بها المشهد الحضرى القائم مستوى آخر من التعقيد. وما أستكشفه فى هذه الدراسة من انقسامات وأساليب حياة وفضاءات حضرية هو جزء من مشهد حضرى طالع.

وهذه الدراسة، بما تشتمل عليه من إثنوغرافيا حضرية لمدينة عولمية جنوبية. ومن تحليل للنماذج المتحولة للتشعب الاجتماعى، واستكشاف أساليب حياة جديدة للطبقة المتوسطة، هى فوق كل شىء، فحص متعمق للحظة خاصة فى التاريخ الاجتماعى للقاهرة ولمصر. فالدراسة تسأل عما حدث لطبقة متوسطة بعد كولونيالية كانت، فى يوم ما، حامل الأحلام والتطلعات الوطنية. ورغم أن التحولات الجذرية فى

اقتصاد القاهرة ونسيجها الاجتماعى ومشهدها المدينى هى سبب كاف لمثل هذا الاستكشاف، فإن قصة الطبقة المتوسطة القاهرية فى الزمن الليبرالى الجديد تلقى ضوءاً كاشفًا، أيضًا، على تحولات بدأت حركتها فى مدن بعد كولونيالية رئيسية أخرى. ففى أعقاب الاستقلال أطلقت بلدان بعد كولونيالية كثيرة، وعلى نحو مماثل، مشاريع كبيرة لبناء الدولة، ثم تحولت، فى العقود الثلاثة الأخيرة، باتجاه مفاهيم الليبرالية الجديدة فى عالم ينخرط فى سياق العولمة. فتجليات التحضر الباهرة والتشظى الاجتماعى فى المشهد الحضرى القاهرى يعكسان اتجاهات نجدها فى عديد من المدن العولمية فى الجنوب. وتحليلى للتجليات اليومية للبرلة الاقتصادية فى القاهرة يتصل، من هذه الناحية، بمصير المجتمعات بعد الكولونيالية فى حقبة عولمة نيوليبرالية. وبالمثل، فإن قصة الجيل الأصغر سنًا من المهنيين القاهريين تردد أصداء قصص أقرانهم فى مدن بعد كولونيالية رئيسية أخرى، أولئك الذين ربما طافت بذاكرتهم، بالمثل، بعض الوعود السابقة بحياة محترمة للطبقة المتوسطة. والذين ربما داعبتهم، وبمقدار مساو، احتمالات الارتقاء إلى المستويات القياسية الكونية والموضات وعضوية العالم الأول، لكنهم يجدون أيضًا أن بطاقات الدخول إلى هذا الجيل الجديد يجرى توزيعها بقدر فادح من اللامساواة.

شباب ومهنيون ومن الطبقة المتوسطة

وتقوم هذه الدراسة على عشرين شهراً من البحث الإثنوغرافى فى أوساط المهنيين القاهريين الشبان.

وقد نفذ العمل الميدانى من سبتمبر ٢٠٠١ إلى فبراير ٢٠٠٣ ومن مايو ٢٠٠٤ إلى يوليو ٢٠٠٤. وشمل ملاحظة تشاركية ومقابلات مع مهنيين ذوى مراكز مختلفة من الطبقة المتوسطة، معظمهم فى منتصف العشرينيات إلى مطالع الثلاثينيات. وكما يقول

والتر آرمبراست فالانتماء إلى الطبقة المتوسطة تأسس، بداية، على التعليم. فانتماء المرء إلى الطبقة المتوسطة كان يعنى حصوله على تعليم، ومعرفته بالمؤسسات الحديثة، واستمتاعه بحياة " نظيفة "، بمنأى عن المعيشة المتدنية للطبقات القاهرية الأدنى (آرمبراست ١٩٩٩). وبما يتمشى مع هذه المفاهيم المحلية للانتماء للطبقة المتوسطة، اعتمدت فى تشخيص الطبقة المتوسطة المهنية على التعليم. فأنا أركز على أولئك القاهريين الذين يعتمدون، بوصفهم مهنيين حصلوا على تعليم جامعى، على رأسمالهم التعليمى كمصدر للمعيشة. وهذه الطبقة المتوسطة المهنية تمثل قرابة ثلاثين بالمائة من سكان القاهرة(٤).

ووفقًا لما يقوله كل من آرمبراست وجون ووتربيرى فإن الانتماء للطبقة المتوسطة المصرية لم يضمن، بالضرورة، حداً أدنى من المستوى المعيشى (آرمبراست ١٩٩٩: ١١١، ووتربيرى ١٩٨٣: ٢٦٢) فقد تراوحت دخول الطبقة المتوسطة بين عدة مئات وعشرات الألوف من الجنيهات شهرياً. وشملت هذه " الطبقة المتوسطة " مهنيين متعلمين لا يكسبون إلا ما يقيهم الفقر، دون أن تتناقض ظروفهم المالية مع تحديد هويتهم على أساس الانتماء للطبقة المتوسطة ولا مع تميزهم من حيث التعليم والوظائف المكتبية. وبالأحرى فقد كان ذلك يعكس الوضع المهتز لأقسام كبيرة من الطبقة المتوسطة المتعلمة، وبشكل خاص موظفى الحكومة ذوى الرواتب الضئيلة والعاطلين من خريجى الجامعات. وقد عرفت الطبقة المتوسطة المهنية القاهرية، منذ عهد بعيد، الفروق الملموسة فى الدخل ومستوى المعيشة وأسلوب الحياة، لكن هذه الفروق اتسعت واشتدت فى الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر. ورغم أنى أستخدم إشارات " الطبقة المتوسطة الدنيا " و " الطبقة المتوسطة " و " الطبقة المتوسطة العليا ". لتوضيح الاختلافات فى الحالة المالية والعوالم الاجتماعية، فهذه الإشارات لا ترتبط بشرائح اجتماعية واضحة التمايز أو بحقائق واقعية كاملة التناقض. ففى مطلع القرن الحادى والعشرين كان تركيب الطبقة المتوسطة القاهرية وتقسيماتها تتغير نتيجة للعمليات التى تقدم هذه

الدراسة وصفًا لها. فالتراتبيات الاجتماعية والاقتصادية الأقدم صبت فى تقسيمات جديدة، رغم أنها تحولت على نحو كبير إبان ذلك، فى حين بقيت عمليات التشكيل الطبقى غير حاسمة.

فكل من اتصلت بهم، تقريبًا، من الطبقة المتوسطة كانوا ممن حصلوا على تعليم جامعى ومساهمين فاعلين فى سوق العمل، رغم أن بعضهم كان من العاطلين أو منقوصى التشغيل(*) ورغم أن الانخراط فى قوة العمل شمل كل الرجال، فقد تباين الانخراط فى قوة العمل بين النساء، تباينًا قويًا، وفقًا للمركز التعليمى والمنطقة. ووفقًا لأرقام ١٩٩٨ فإن قرابة ٨٨ فى المائة من غير المتزوجات الحاصلات على تعليم جامعى كن منخرطات فى قوة العمل فى المدن، مقارنة إلى ٤٠ فى المائة بين الحاصلات على تعليم متوسط. أما نظيراتهن المتزوجات فإن ٦٦ فى المائة منهن انخرطن فى قوة العمل الحضرية (أسعد ٢٠٠٢: ٢٤) وهذا يعنى أن كل الجامعيات الحضريات غير المتزوجات، تقريبًا، ونسبة كبيرة من المتزوجات، كن موظفات أو ناشطات فى البحث عن وظيفة. وكانت الوظيفة والهويات والتطلعات المهنية بوضوح جزءًا من حياة أولئك النسوة، بقدر ما كانت جزءًا من حياة الرجال. لكن فريقًا من المقبلين على الزواج كانت تدور بين كل رجل وامرأة منهم نقاشات جادة حول عمل المرأة بعد الزواج. وقد تعلقت هذه النزاعات بأفكار حول حقيقة الذكورة والأنوثة وأدوار الجندر فى الأسرة، وخاصة قدرة الزوجة على الجمع بين عملها الخارجى وواجباتها الأسرية وقدرة الزوج على الوفاء باحتياجاتها دون أن تتخذ لنفسها وظيفة.

ومعظم هؤلاء المهنيين لم يكونوا متزوجين وقت إجراء البحث وكانوا يعيشون مع الأهل. وبقى كثير منهم أيضًا معتمدًا على الوالدين، ماليًا. ورغم أن هذه كانت، كما هو

(*) underemployed من يعين فى وظيفة دون مستواه المهنى، مثل طبيب يعمل مدرسًا للغة أجنبية أو موظف علاقات عامة. (المترجم)

واضح، حالة من كانوا عاطلين أو شاغلين لوظائف هزيلة الراتب، فقد اعتمد كثير من المهنيين فى الطبقة المتوسطة العليا على أسرهم ليتمكنوا من سد احتياجات أساليب حياة الطبقة المتوسطة العليا. وانطبق ذلك، بشكل خاص، على الذين يبحثون، بنشاط، عن شركاء حياة محتملين يمكن أن " يفتحوا بيتًا " معهم. ويحتاج الزواج إلى مساهمات مالية كبيرة من أسرة العريس، على نحو خاص.

العمل الميدانى فى قاهرة الطبقة المتوسطة

فى القاهرة تمثل الشبكات الشخصية الواسعة رأس المال الاجتماعى الذى له دور حاسم فى الحصول على وظيفة أو الزواج أو، كما كان الحال بالنسبة لى، العمل البحثى. وقد ثبت أن إنشاء علاقات الصداقة أهم من العلاقات مع المصدر- الباحث كشرط رئيسى لمعرفة أوثق بحياة الطبقة المتوسطة فى القاهرة. وتعكس إشاراتى العديدة إلى " الأصدقاء " و " المعارف " أكثر من "المصادر" الطبيعةَ المشخصنةَ للعلاقات التى استخدمت فى بحثى. وقد فتحت الملاحظة التشاركية عالمًا من الحكايا والنميمة والأداءات الاجتماعية والمعرفة والرواميز الضمنية. وتعلمت الكثير عبر المناقشات غير الرسمية أو التعليقات العابرة أو الارتحالات إلى مختلف أرجاء المدينة أو المحادثات الشخصية فى الكوفى شوب. وكانت طلاقتى المتنامية فى الحديث بالعربية المصرية (العامية) عاملاً حاسمًا فى هذه الأمور(٥). وقد أجريت بحثى كله بالعامية أو بمزيج من العامية المصرية واللغة الإنكليزية عندما أكون فى تجمعات من الطبقة المتوسطة العليا.

وسهل لى كونى أجنبية أوربية، عارفة باللغات الخاصة بكل طبقة وبأساليبها ومعايير التفاعل الاجتماعى فيها، الانخراط فى هذه الشبكات. وباعتبارى مهنية فى أواخر عشرينياتها وقادرة على المزج السهل بين المخزونين المصرى و" الأجنبى " فقد

أمكنني الاندماج بسهولة، خاصة في دوائر الطبقة المتوسطة العليا حيث يسود هذا النوع من خلط المخزونين المحلي والغربي. ولأن جانبًا كبيرًا من الحياة الاجتماعية لشباب الطبقة المتوسطة يدور في فضاءات وشبكات الاختلاط بين الجنسين، فقد تيسر لي أن أقابل الرجال والنساء وأصادقهم، رغم أن علاقاتي الأوثق كانت مع النساء. وهذا يفسر تركيزي على المسارات الحضرية للنساء في الجزء الأخير من هذه الدراسة. ولأني لست بيضاء خالصة فقد ساعدني ذلك على الاندماج في الفضاء المديني القاهري واقتسام بعض الخبرات الحضرية مع صديقاتي ومع من عرفت من النساء في محال الكوفي شوب والمواصلات العامة والشوارع والأسواق في القاهرة.

ورغم أن شبكات الطبقة المتوسطة العليا ومحال الكوفي شوب الراقية أصبحت تمثل مواقع البحث الأولية، فقد كنت أشعر بأعلى درجة من الاندماج في ساحة مثقفي الطبقة المتوسطة وناشيطها في وسط البلد القاهري.

وكان هذا المشهد اليساري يجمع الصحفيين والناشطين والفنانين وغيرهم من الرجال والنساء الذين اجتذبتهم فضاءاته الأكثر ترفقا. ومثلت الصلات مع هذه المجموعة في وسط البلد مسالك مهمة أخرى للتشبيك وأمدتني بوفرة من الشركاء في النقاشات حول القاهرة المعاصرة. وهذه الدراسة مكتوبة باعتبارها - إلى حد كبير- حوارًا مع هؤلاء النظراء المحليين العارفين.

وباستثناء علاقتي مع عدد من الأصدقاء المقربين فقد غلب على نشاطي الاشتراك في الحياة الاجتماعية العامة للناس التي كانت تدور، أساسًا، في محال الكوفي شوب الراقية، بالنسبة للطبقة المتوسطة العليا في القاهرة. ويعكس تركيزي على الفضاءات العامة الطبيعةَ المفتوحةَ لكثير من جوانب حياتهم العامة. وقد كان أصدقائي ومعارفي جزءا من شبكات اجتماعية واسعة وسريعة التحول. وقد أكسبت الطبيعة اللحظية للشبكات والسمة العمومية لمقابلاتي لمسة حضرية مؤكدة لهذا البحث.

فالبحث يناقش حياة اجتماعية موسومة بـ "الاحتكاكات المتواصلة بالغرباء وبخبرة نشأت عن ملاحظة كسرات من ' الحكايا ' التى يحملها الرجال والنساء معهم، دون أن تعرف نهاياتها، أبداً " وهى خاصية تعتبرها إليزابيث ويلسون مميزة لحياة العواصم (٢٠٠١: ٨٦) فكل هؤلاء القاهريين من الطبقة المتوسطة كانت لهم حيوات غير تلك التى شاركتهم إياها. وكان هذا ينطبق، بشكل خاص، على الحياة الأسرية.

وقد حاول معظم هؤلاء المهنيين المنتمين إلى الطبقة المتوسطة أن يحافظوا على مسافة بين حيواتهم العائلية وحيواتهم الاجتماعية خارج مملكة العائلة. وقد اقتضت الاختلافات بين الأجيال من حيث المواقف والمعتقدات، خاصة فيما يتعلق بالاتصالات المختلطة الجندر والرواميز الاجتماعية والجنسية، الفصل بين هذين المدارين المختلفين. وكان من المحتمل أن يكسر تقديم الأصدقاء الشخصيين إلى الأسرة هذا الفصل ويفتح الباب للنقد أو للتساؤل حول حياة اجتماعية كانت محاطة بالأقواس، بعيداً عن البيت. وفوق ذلك، وبرغم أهمية الأسرة فى حياة كثيرين ممن كانوا مصادر لى، فإن بيئاتهم العائلية وحيواتهم العائلية نادراً ما تحولت إلى موضوع للحديث أو المناقشة. ونادراً ما سمعت، فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا أناساً يتساءلون عن المحيط الاجتماعى لمن يجاذبونهم أطراف الحديث. لكن كان هناك فيض من قبيل الأسرار المتداولة والهمسات عن أسر بعض الأشخاص أو سمعتهم أو ثرواتهم المادية. هذا التزامن بين غياب الأسرة وحضورها يعكس الموقف المزدوج لكثير من المهنيين غير المتزوجين الذين ظلوا يعيشون مع أسرهم حتى تزوجوا. ولأن الكثيرين لم يتزوجوا حتى نهايات العشرينيات أو بدايات الثلاثينيات من العمر فقد أنفقوا جانباً كبيراً من حياتهم كباراً، عاملين، فى بيوت الأهل، حيث انتفى مركزهم المهنى والمستقل، جزئياً، بتأثير وضع البنوة فى الإطار الأسرى.

وإضافة إلى الملاحظة التشاركية فإنى أعتمد على المقابلات الأكثر رسمية فيما يتعلق بشئون التعليم وسوق العمل، وكذلك ثقافة الترفيه التى نمت فى محال الكوفى

شوب الراقية، وفى معالجات الفضاء العام، على نطاق أوسع. وإضافة إلى المهنيين من شباب الطبقة المتوسطة الذين كانوا يمثلون أغلبية مصادرى فقد استجوبت، أيضًا، عددًا من " الاختصاصيين ": هم ملاك محال الكوفى شوب ومديروها وندلها ومدرسون ومهنيون أكبر سنًا واستشاريون تجاريون وكذلك محررو مجلتين تصدران بالإنكليزية وتستهدفان المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا.

محطات

فما الذى حدث، إذن، لقاهرة الطبقة المتوسطة فى الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر؟ أسأل فى هذه الدراسة عن خطوط الإدماج والإقصاء التى وجه بها المهنيون من شباب الطبقة المتوسطة فى بواكير القرن الحادى والعشرين وأتتبع الكيفية التى تجسدت بها هذه التقسيمات فى المشهد الحضرى.

يستكشف الفصل الأول العصر الليبرالى الجديد فى مصر باعتباره لحظة خاصة فى تاريخها الاجتماعى ويقدم خيالات جديدة حول قاهرة ذات تطلعات عولمية. ويمضى إلى رسم الإطار العام لبعض تجسداتها فى البيئة المعمارية. ونظام التعليم وسوق العمل موقعان أوليان لإنتاج تقسيمات وتمييزات ثقافية - اجتماعية جديدة. فخطوط النبالة الجديدة القائمة على توليفات من الرأسمال التعليمى والثقافى والاجتماعى تميز بوضوح متزايد بين أولئك القادرين على المشاركة فى دوائر الاستهلاك والإنتاج الراقية والحصرية والمعولمة على نحو فج وبين أولئك الذين لا يقدرون على ذلك. ثم يناقش الفصل الثانى التراكبية بين التعليم والطبقة فى إنتاج التراتبيات الاجتماعية القاهرية. لقد أخلى مشروع وطنى يهدف إلى خلق طبقة متوسطة عريضة وذات تعليم راق مكانه لشبكة أكثر تنافسية وحصرية من المدارس الخاصة التى تتعايش مع مدارس عامة متداعية. ولم يقتصر الأمر على توسع ملحوظ فى التعليم الخاص فقد أصبح هذا

التعليم، أيضًا، من أهم آليات التقسيم والتمييز فى الطبقة المتوسطة القاهرية. ويبرز الفصل الثالث، وهو يناقش سوق العمل، الطرائق التى تصبح بها هذه المؤهلات التعليمية فعالة فى اقتصاد مصر المتشظى بقوة.

وهذه التقسيمات والتمييزات مطبوعة ومتمفصلة فى المشهد الحضرى. ويناقش الفصلان الرابع والخامس الطرائق التى حايل بها المهنيون الشباب من الطبقة المتوسطة مدينتهم.

فأنا أناقش فى الفصل الرابع الساحات القاهرية المتحولة فى مجال الترفيه، مع التركيز على ظاهرة محال الكوفى شوب الراقية والأجواء الاجتماعية التى تتحقق فى هذه الفضاءات الراقية. وتنتزع محال الكوفى شوب الراقية هذه فضاءات ذات انتماء محدد للطبقة المتوسطة فى المشهد الحضرى القاهرى وموسومة بدرجة عالية من الانغلاق الطبقى. وأنا أرى أن محال الكوفى شوب هذه تسمح بمؤشرات جديدة للانتماء والانفصال فى الفضاء المدينى للقاهرة. وبهذا فهى تقوى الاتجاه إلى تشريح الفضاء المادى والاجتماعى وتشظية الحياة فى المدينة. وأنا أفحص فى الفصل الأخير اقتفاء آثار الفصل الاجتماعى فى القاهرة بالنظر إلى المسارات الحضرية لنساء الطبقة المتوسطة العليا. وأتتبع الممارسات المنتظمة والنشطة التى تمضى بهن من البيت إلى العمل إلى الكوفى شوب، وأستكشف ما يمكن أن تشف عنه هذه المسارات عن القاهرة اليوم. وأنا أدفع بأن الإشعارات والمخاوف المحيطة بأنوثة الطبقة المتوسطة العليا أصبحت تشرع الفصل الاجتماعى. وظنى أن أجساد نساء الطبقة المتوسطة العليا أصبحت ميدان معركة لصيغ ومنازعات طبقية جديدة، تجسد كلا من قوة وهشاشة الطبقة المتوسطة العليا القاهرية، بالمعنى الحرفى لذلك.

وفى الخلاصة أعود إلى الأحلام العولمية التى تحتل نقطة مركزية فى قلب الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر. وأنا أرى أن ليبرالية مصر الجديدة تشتمل على وصفة

لأمة منقسمة بما تنتجه من تجسدات متزامنة لعالم أول وعالم ثالث فى فضاءات مدينة تتعمق انقساماتها.

" لو بطلنا نحلم نموت " هكذا غنى المغنى المصرى محمد منير وهو يخاطب جمهوراً يستميت فى السعى وراء الحلم بشىء أفضل، فى مواجهة ظروف معاكسة. وتختلف هذه الأحلام، اختلافاً كبيراً، عن الأحلام العولمية التى تدور حول حياة الرخاء واليسر فى قاهرة كوزموبوليتانية على نحو صارخ. والسؤال هو: أحلام من هى التى يعول عليها؟

الفصل الأول

أحلام بقاهرة عولمية
التاريخ والحاضر والمستقبل

فى ديسمبر ٢٠٠٢ كان افتتاح هايبر ماركت فرنسى على مشارف القاهرة موضوعًا مثيرًا فى الدوائر التى أتحرك فيها من الطبقة المتوسطة العليا. كان يبدو أن الكل يتحدث عن " كارفور" الجديد الذى اختير مكانه ليكون قريبًا من الكومباوند الحصرى (مجمع سكنى مغلق) قطامية هايتس خارج المعادى الراقية (انظر الخريطة). وقد كانت مها، وهى صديقة من الطبقة المتوسطة العليا، بادية الانفعال وهى تدعونى لأن أذهب معها لرؤية " الهايبر ماركت الجديد الذى هو أيضًا مول تجارى". وفى الأسابيع الأولى بعد الافتتاح ذهبنا لزيارة صديقة لها كانت تعمل مصممة محال تجارية فى سيتى سنتر مول، وهو الاسم الرسمى للمجمع الأكبر الذى يضم هايبر ماركت كارفور (انظر الششتاوى ٢٠٠٦).

وبعد أن نجحنا فى اجتياز التكدس المرورى فى قلب القاهرة، وتحركنا عبر كوبرى المنيب ذى الثمانى حارات وقطعنا الطريق السريع فى عدة دقائق، وصلنا إلى ما أصبح، فى تلك اللحظة، أحد أهم المقاصد فى القاهرة. انتصب قبالتنا مبنى مربع يشبه حظيرة الطائرات، فى قلب الصحراء. ولأن المجمع يقع على مسافة من المدينة بجوار تقاطعات الطرق السريعة ولا يمكن الوصول إليه إلا بالسيارة فقد كان موقعه يبشر بجمهور منتقى. دخلنا قاعة فسيحة، نظيفة، باهرة الإضاءة، بدت معزولة عن بقية الفقر والغبار فى مصر. وقد احتل جانبًا من الممر الرئيسى صف طويل من نضد محاسبة الخارجين من كارفور. ويطول الجانب الآخر من الممر عدد من المحال الراقية تغوى المارة ببضائع ثمينة فى واجهات العرض الجذابة. كان بين هذه المحال تيمبرلند، محل يبيع نايك وآديداس، وكذلك أحد محال موباكو لبيع الملابس الأنيقة المنتجة محليًا. وكان

بوسع الزائرين الذين أرهقهم التسوق أن ينالوا قسطاً من الراحة فى الكوفى شوب "سيلانترو" بما فيه من ديكور عصرى وتبسيطى من الفولاذ والجلد. ورغم أن بهو الأغذية وحديقة ألعاب الأطفال ماجيك لاند لم يكونا قد افتتحا فقد كان كارفور قد أصبح، بالفعل، تجربة تسوق كاملة، تقف وحدها بعيداً عن المشهد الاجتماعى الملتبس للمدينة.

الاستثارة التى تولدت عن كارفور لم تأت من المنتجات المعروضة، فمحال السوبر ماركت الراقية مثل مترو وألفا ماركت كانت تلبى احتياجات النخبة لنحو عشر سنوات سبقت.

وكذلك فإن هذه الاستثارة لم يكن مصدرها الوعد ببيئة نظيفة، بل مطهرة ,كانت هى الملمح الرئيسى لمعظم المؤسسات الراقية. لقد بدا أن جانباً كبيراً من الفرحة يتصل بمجرد فكرة مؤداها أن صيغة فرنسية للتسوق/ العيش وصلت إلى القاهرة لتؤمن خبرة تسوق غير معتادة. وقد كان سيتى سنتر مول مشروعاً مشتركاً لمجموعة ماجد الفطيم ومقرها دبى وشركة كارفور الفرنسية.

ويذكر ياسر الششتاوى أن " الصحافة المحلية فى مصر لا تبرز علاقة دبى بالموضوع ولا تبرز حقيقة أن المركز بكامله تأسس على نموذج من دبى. والحقيقة أن معظم التركيز ينصب على البعد الفرنسى، وهو ما يعنى، على نحو ما، أن مصر سوف تستغرب من خلال إنشاء مراكز كهذه " (٢٠٠٦: ٢٤٥) وقد تم الترحيب بكارفور، ليس لمجرد أنه استثمار خليجى الأصل، ولكن باعتباره أحدث تجسيد لما وصفته إيما نويلا غوانو بأنه " السوق الحرة بوعدها المراوغ بالمشاركة فى الحداثة الغربية المحظوظة، فى النصف الجنوبى للكوكب – وهى الحداثة التى لا تزال بعيدة عن جنوب العالم " (٢٠٠٢أ: ١٩٧) وقد أضاف الموقع إلى جاذبية هذه الخبرة. فلأن المجمع يقوم بعيداً عن المدينة فإن رحلة إلى كارفور يمكن أن تؤمن الشعور بزيارة لبلد أجنبى. وعلى كوبرى المنيب الذى تم تمديده حديثاً تقول لافتة ضخمة فوق النيل: " كارفور، على مبعدة خمس دقائق فقط " داعية الذين ما زالوا يكابدون ضجر المدينة إلى تذوق أحدث طبعة من

الانتماء إلى العالم الأول. وقد أخبرتنا صديقة مها، بحماس، بأنه مكان رائع، ليس فقط لأنه ما زال جديداً ونظيفًا للغاية، ولكن أيضًا لأن جمهوره كان مختاراً إلى حد بعيد. وقالت لنا بدرجة عالية من التأكيد " الناس النظيفة فقط هى التى تأتى هنا ". كامل، حصرى، مثالى".

كارفور هو جزء من قاهرة الرخاء واليسر الكوزموبوليتانية على نحو صارخ، كما وصفناها فى المقدمة. والقاهرة الراقية هذه تتموضع فى الأحياء الأكثر ثراء مثل الزمالك والمهندسين ومصر الجديدة ومدينة نصر والمعادى. ومع معاناة غالبية المصريين التى نشأت عن سحب الدولة لدعم مواد الغذاء الأساسية وعن اضطرارهم للاعتماد على أسواق غير رسمية للاستهلاك والترفيه والإسكان بما يناسب قدراتهم الشرائية المحدودة فإن المشهد الحضرى ظل يضم، بين مكوناته، ثراءً صارخًا.

وقد تألفت هذه المدينة الراقية من محال جيدة التصميم والصيانة وكاملة النظافة، تعرض سلسلة شاملة من المنتجات والخدمات يجمع بينها التأكيد على المعايير القياسية للعالم الأول.

وكمثال على ذلك ففى ٢٠٠٣ كان فنجان القهوة فى " قهوة بلدى" (المقهى الواقع على جانب الطريق والذى يغلب عليه الطابع الذكورى) يتكلف مبلغًا يتراوح بين خمسين قرشًا وجنيه مصرى، فى حين كان الإكسبرسو باللبن فى محل كوفى شوب راق يبلغ ثمنه خمسة جنيهات(*)، على الأقل (بخلاف ٥ فى المائة كضريبة و١٢ فى المائة كرسم خدمة) وتمثل هذه المدينة الراقية ما يجرى فى القاهرة من "إعادة أقلمة للمتروبول"(**)

(*) ارتفعت الأسعار بفعل التضخم عن المستوى الذى يشير إليه الكتاب لكن التفاوت الذى يشير إليه ما زال قائما. (المترجم)

(**) retterretorialization إعادة الأقلمة هى توطين أنشطة ثقافية جاءت من المتروبول بعد تكييفها لتناسب الوسط الثقافى المحلى كما فعل محمد عبد الوهاب وفريد الأطرش بما نقلوه من موسيقى غربية وكما يفعل اليوم جورج عزمى ومحمد سالم وإسلام عبد الله بما يقدمونه من ستاند أب كوميدى- المترجم)

(غوانو ٢٠٠٢: ١٨٣) وهذا يفسر سعى مصر الراهن إلى الليبرالية والرغبات العميقة فى حياة تنتمى إلى العالم الأول.

وكما يلاحظ فينيال ودينيس فإن " غالبية الجماهير تركز على ضرورات البقاء، فى حين... تستهلك شريحة ضئيلة من ساكنى المدينة على مستوى دولى، بالإنفاق على أسلوب حياة يتزايد اقترابه من المستويات فى المدن العالمية الأخرى" (٢٠٠٦: ١١١)

وبالتالى فلم يكن كارفور سوى أحدث إضافة لمشهد القاهرة الراقية الذى يتسع. وقد ولد ظهور كارفور قدراً كبيراً من الإثارة اللحظية. فلم تعد المولات الأقدم تثير ذلك النوع من مشاعر الانضواء المتجدد فى الاستهلاك وأساليب الحياة المرغوبة للغاية والمنتمية للعالم الأول. ويشير الإدماج السريع للمولات ومحال الكوفى شوب والمطاعم الراقية فى الحياة اليومية للقاهريين الأثرياء إلى ترسيخ وتطبيع عملية إعادة أقلمة العالم الأول، على هذا النحو. ففى مطلع القرن الحادى والعشرين أصبحت هذه القاهرة الكوزموبوليتانية على نحو صارخ الخلفية الواضحة لحيوات القاهريين الأثرياء.

وأنا أستكشف فى هذا الفصل المشهد القاهرى المتحول فى إطار الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر. فإعادة التوجه بعيداً عن التنمية التى تقودها الدولة، على النمط الناصرى، سياسيًا واقتصاديًا، يبدأ فى منتصف سبعينيات القرن الفائت مع سياسات الانفتاح (الباب المفتوح) الساداتية التى أطلقت لبرلة تدريجية للاقتصاد. وقد تسارعت معدلات اللبرلة على نحو ذى مغزى فى تسعينيات القرن الماضى نتيجة لتبنى حزمة سياسات إعادة الهيكلة. وسوف أبدأ بتفحص هذا الابتعاد عن التنمية التى تقودها الدولة فى الحقبة الناصرية. ثم ألتفت إلى حقبة مصر الليبرالية الجديدة الموسومة بسياسات التكييف الهيكلى وبالتركيز على القطاع الخاص وعلى الاندماج فى الشبكات الاقتصادية العالمية. وأتساءل عن ماهية السرديات والخيالات الوطنية الجديدة التى تصحب هذا التحول إلى السياسات النيوليبرالية. وأخيراً، فسوف أستكشف التعابير المادية عن هذه السياسات والأحلام الوطنية الجديدة فى المشهد الحضرى للقاهرة.

العقد الاجتماعى فى مصر

اكتسبت الدولة فى السنوات التى تلت ثورة ١٩٥٢ دوراً متعاظمًا من حيث المركزية والسيطرة فى الاقتصاد المصرى، خاصة بعد التأميمات التى تلت أزمة السويس فى ١٩٥٦. وقد أطلق النظام الجديد الذى قاده عبد الناصر سياسات الإصلاح الزراعى التى خفضت الملكيات الزراعية لأكبر ملاك الأراضى، بدرجة كبيرة، وأعادت توزيع جانب من الأرض المصادرة (يانكوفسكى ٢٠٠٠: ١٤٨-١٤٩). وفى ظل نظام عبد الناصر بمركزيته وتسلطيته الشديدة بدأت مصر برنامج تصنيع طموحًا هدف إلى الاستغناء عن الواردات. وقد استفاد أهل القاهرة من التحسن الكبير فى فرص الوصول إلى المنشآت التربوية والصحية ومن النمو الكبير للوظائف فى القطاع العام الصناعى والبيروقراطية الحكومية المتنامية. وقد اتجه معظم هذه السياسات إلى خلق طبقة متوسطة حضرية كبيرة، وخاصة بمقرطة التعليم وتأمين وظائف حكومية لكافة الخريجين (عبد الفضيل ١٩٨٠) وفى مطلع ستينيات القرن الماضى أعلنت مصر رسميًا أنها دولة اشتراكية. وأصبحت الدولة اللاعب المسيطر فى الاقتصاد الوطنى كما أصبحت صاحبة العمل الرئيسى. وفى أوائل الثمانينيات كان أكثر من نصف قوة العمل غير الزراعى من موظفى الدولة (ريتشارد ووتر بيرى١٩٩٦: ١٨٤).

وفى ١٩٦٩ كتبت جانيت أبو لغد تقول إن المشهد الحضرى القاهرى بدا فى حالة تجانس متصل. فقد انمحى وجود النخبة الأقدم من المدينة فى حين " بدأت تنتشر نماذج الاستهلاك وأساليب الملبس وأنشطة وقت الفراغ التى كانت من قبل حكرًا على طبقة متوسطة على قدر من الاستغراب نازلة باتجاه المستويات الدنيا من الهيكل الاجتماعى. ويندر أن يرى المرء الجلابية... ولا تكاد تكون هناك امرأة محجبة " (ج أبو لغد ١٩٧١:٢٣٨ - ٢٣٩) وقد أزيلت الفوارق بين الأحياء الحضرية على وجه السرعة، وفقًا لما قالته، وبدأت محلات وسط البلد التى كانت تبيع البضائع الأجنبية المحترمة تبيع البضائع ذاتها المنتجة محليًا التى تباع فى أماكن أخرى. وعندما يستعيد

جيمس يانكوفسكى المرحلة الناصرية فهو يدفع بأن " التفاوتات الاقتصادية بدأت تتراجع بالفعل فى الفترة بين ١٩٥٢ و ١٩٧٠، وفى الفترة ذاتها اتسعت الفرص الاجتماعية المتاحة لكثير من المصريين.

وخلفت المرحلة الناصرية "التزامًا تجاه 'الشعب' وتجاه مذهب المساواة الاجتماعية – الاقتصادية، لا يزال كثير من المصريين يذكره بإعزاز " (٢٠٠٠: ١٥٢).

وقد خلفت المرحلة الناصرية أيضًا التراتبيات الطبقية الخاصة بها (عبد الفضيل ١٩٨٠، مور ١٩٩٤) فقد نشأت عنها بورجوازية جديدة " يمكن تحديدها بأنها أولئك المسئولون الذين 'تملكوا' بفضل مواقعهم الإدارية ومهاراتهم الخاصة وسائل تحويل الموارد العامة إلى موارد خاصة بالتعاون مع حلفائهم فى القطاع الخاص" (١٩٩٤: ١٢٢) وأكثر من ذلك فإن كليمنت هنرى مور (١٩٩٤) ومحمود عبد الفضيل(١٩٨٠) يلاحظان أنه كان هناك قدر كبير من التواصل الاجتماعى مع المرحلة قبل الثورية، حيث إن العائلات المتميزة نسبيًا كانت فى مواقع تساعدها على الاستفادة من المسارات الجديدة للحراك الاجتماعى فى مؤسسات الدولة ومن خلالها.

وقرابة نهاية الستينيات أصبح واضحًا أن كثيراً من الأهداف والبرامج الطموحة للتنموية الناصرية بدت مستحيلة التحقق. ويكتب جون ووتربيرى قائلاً إنه فى ظروف الركود الاقتصادى فى نهاية الستينيات وفى السبعينيات من القرن الفائت " تعين التخلى بهدوء عن أهداف توصيل الخدمات الأساسية لكل المصريين " والتخلى عن بعض الركائز المحورية فى النظام الناصرى (١٩٨٣:٢٢٣) لكن العقد الاجتماعى الناصرى بين الدولة والجماهير الذى وعد بتأمين الرفاه مقابل السلبية السياسية لم يكن يسهل الانقلاب عليه (يانكوفسكى ٢٠٠٠: ١٨٧) ورغم التحول باتجاه اللبرلة الاقتصادية منذ منتصف السبعينيات وما بعدها وما صحب ذلك من نسف للترتيبات التى أرستها الحقبة الناصرية فلا يزال العقد الاجتماعى الناصرى إطاراً مركزيًا لسياسات الدولة ولردود الفعل الشعبية إزاء هذه السياسات. ولا يزال هذا العقد معياراً

حيوياً فى المناقشات العامة والخاصة التى تتناول الدولة وسياساتها ولا يزال يصوغ الخيالات المتصلة بالعلاقات بين الدولة والأمة ومواطنيها.

وقد بدأ السادات، بعد وفاة عبد الناصر، مسيرة اللبرلة الاقتصادية والتقارب مع الغرب. وتحت عنوان الانفتاح صيغت عدة قوانين جديدة " حاولت أن تجعل مصر مضيافة لرأس المال الدولى، من جهة، ومن جهة أخرى منحت القطاع الخاص المحلى مزيداً من الحرية فى الداخل ومزيداً من التشجيع على التعاون مع المشروعات الأجنبية" (يانكوفسكى ٢٠٠٠: ١٧١). وكانت أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات مرحلة ازدهار نسبى، ولم يكن ذلك بفضل توسعة القطاع الخاص أو بسبب وجود الأجانب فى الاقتصاد بقدر ما كان نتيجة لارتفاع العوائد من مصادر خارجية: النفط، قناة السويس، السياحة، وكذلك مبالغ المساعدات الأجنبية، خاصة الأمريكية، والتحويلات الكبيرة من المصريين العاملين فى دول الخليج العربى الذين كان يقدر عددهم بمليون ونصف المليون (يانكوفسكى ٢٠٠١: ١٧٣) وأصبح العمل فى واحدة من الدول العربية الأغنى الطريقة الرئيسية لزيادات دخول الأسر بالنسبة للمتعلمين وغير المتعلمين على السواء (إبراهيم ١٩٨٢).

ونشأت عن الانفتاح شريحة من محدثى النعمة أصبحت قادرة على الاستفادة من انفتاح الاقتصاد على المستثمرين الأجانب والبضائع الأجنبية ومن القوة المتزايدة التى منحت للقطاع الخاص. وغالبًا ما كان هؤلاء من البيروقراطيين القريبين من مستوى القمة الذين كان بوسعهم استخدام سيطرتهم على مشروعات الدولة لضمان نقاط متميزة فى القطاع الخاص الذى تم تزويده بعافية جديدة. وبدأت النخب القديمة والجديدة – أرستقراطية السنوات السابقة على الثورة والنخبة العسكرية التكنوقراطية من العهد الناصرى ومحدثو النعمة التجاريون من زمن الانفتاح – تتلاقى فى طبقة عليا جديدة (أيوبى ١٨٢: ٤٠٣) وفى الوقت ذاته خلقت العمالة المهاجرة داخل الطبقة

المتوسطة المهنية القائمة بين أولئك الذين بوسعهم العمل لمدد طويلة بالخارج وتحسين الحالة الاقتصادية لأسرهم بدرجة كبيرة، وأولئك الذين عجزوا عن الرحيل أو اختاروا أن لا يرحلوا مخلفين وراءهم وظائفهم ذات الرواتب الهزيلة في مصر.

وقد تجسد الانفتاح في الحياة اليومية، أولا وقبل كل شيء، بوصفه انفتاحًا على السلع الاستهلاكية الفخمة المستوردة[٦]. وعادت الثروة والاستهلاك الصارخ إلى مواقع العرض في شوارع القاهرة. ويكتب ماكس رودنيك قائلاً إن كوزموبوليتانية جديدة بدأت تزدهر في القاهرة في ثمانينيات القرن الماضي. ظهرت سلاسل محلات عالمية، وديسكوهات عالية التقنية، ومطاعم الثيمة[*] لتلبي احتياجات السياح والشريحة الطالعة من المصريين الأثرياء (رود نبك ١٩٩٩-٢٤٤). وفي الوقت ذاته، راح التضخم ينسف الأجور الحقيقية للعاملين من أصحاب الرواتب في مصر. وقد خلقت سياسات دعم الأغذية منطقة تأمين رئيسية ضد السقوط السريع في الفقر، وزاد الإنفاق على دعم الأغذية من أقل من ٨ في المائة في ١٩٧٠ إلى معدل مذهل يبلغ ٦٠ في المائة من الإنفاق الحكومي في ١٩٨٠ (يانكوفسكي ٢٠٠٠-١٧٤).

وخارج مناطق الطبقة المتوسطة تنامى السخط بعد أن وجدت أعداد متزايدة من الشباب أن تداعي المؤسسات ذات الطابع الناصري والباب المفتوح على القطاع الخاص وعلى الغرب تركاهم يواجهون مستقبلاً مظلمًا. وفي الوقت ذاته أوسع المناخ السياسي في عهد السادات لـ "التعبير عن رؤية إسلامية بمجتمع بديل" اتخذت، على نطاق واسع، شكل نضالية اجتماعية إسلامية مع بروز متزايد للخطاب الديني في

(*) theme restaurants هي المطاعم التي تبني لنفسها شخصية مستمدة من الموقع أو من التاريخ أو من الفئة العمرية أو الاجتماعية المستهدفة مثل مطعم نجيب محفوظ في الحسين أو مطعم سي السيد الذي يوحي بأجواء القاهرة المحفوظية و لابوديفا بإيحاءاته اللاتينية وكلاهما في الزمالك – المترجم)

مختلف مجالات الحياة (يانكوفسكى ٢٠٠٠:١٧٦). هذا الانبعاث الدينى أدى، أيضًا، إلى نوبات من العنف الإسلامى من منتصف السبعينيات وما بعدها. وبانتصاف التسعينيات كانت الدولة على الجانب الغالب وتراجع النشاط النضالى الإسلامى بشكل كبير (يانكوفسكى ٢٠٠٠: ٨٧-٨٩).

ونتيجة الاعتماد فى الثمانينيات على الدخل الذى تؤمنه تحويلات العاملين والسياحة والنفط وقناة السويس والمساعدات الأجنبية أصبح الاقتصاد المصرى ضعيفًا أمام تقلبات الاقتصاد العالمى ومعتمدًا، على نحو متزايد، على رغبات المانحين الأجانب، خاصة الولايات المتحدة (عبد الرحمن ٢٠٠٤، ميتشيل٢٠٠٢). وفى الثمانينيات أدى تراجع أسعار النفط إلى تراجع فرص هجرة العمالة إلى الأقطار العربية النفطية الغنية. وفوق ذلك فقد أسفرت حرب الخليج فى ١٩٩٠ عن عودة فورية لكثير من العمال المهاجرين. ورغم استئناف هجرة العمالة فى بواكير التسعينيات من القرن الفائت فإن فرصة هجرة العمالة إلى البلدان العربية الأخرى لم تعد قط إلى مستواها السابق (عبد المعطى ٢٠٠٢:٢٣٦-٢٣٨)[٧].

وترتب على تراجع العائدات فى الثمانينيات زيادة الديون الخارجية لدرجة أن خدمة الدين أصبحت مهددة. وبنهاية الثمانينيات، وبعد عدد من المحاولات الجزئية والمترددة لتحقيق الاستقرار الكلى والتكيف الهيكلى لم يعد بمقدور الحكومة مواصلة التهرب من قبول حزمة التكيف الهيكلى الواسع التى وضعها صندوق النقد الدولى والبنك الدولى. وبدأت الدولة المصرية فى ١٩٩١ تنفيذ سياسات التكيف الهيكلى التى شملت إجراءات تقشف مالى، وتنزيل معدل التبادل للعملة، واستئصال الرقابة على الأسعار والدعم وإصلاح القطاع العام والخصخصة (كيينل ٢٠٠٢: ١٤٤) واستهدفت حزمة السياسات هذه تحويل مصر إلى اقتصاد السوق الحرة لتتكامل مع الشبكات الاقتصادية العولمية.

عقائد النيوليبرالية

تزعم المرتكزات الليبرالية تفوق السوق الكونية كقوة توزيع وتنظيم بين الاقتصادات والمجتمعات حول العالم. وقيل إن السيادة المطلقة للسوق الكونية ستكون مصدر رخاء أوفر لكل من يجرؤون على خوض المنافسة الكونية، يتنج العجز عن ذلك الأمر تراجعًا اقتصاديًا محتومًا. وأصبحت المرتكزات من هذا النوع نبوءات تعمل على تحقيق نفسها بالنظر إلى تأثيرها على الفاعلين الحكوميين وغير الحكوميين على المستوى المحلى والوطنى والكونى. فالدول فى جميع أنحاء العالم تعيد صياغة قوانينها وتعيد تنظيم ميزانياتها وسياساتها الاقتصادية الوطنية بهدف الامتثال للمقاييس المعيارية الكونية للاقتصاد النيوليبرالى. وتقدم هذه السياسات النيوليبرالية وهذه الأنساق التنظيمية على أساس كفاءة وعقلانية علميتين وغير مسيستين (بيك وتيكل ٢٠٠٢: ٤٠٠). وكما يقول تيموثى ميتشيل بحق "إن النضالات السياسية الدائرة فى أماكن مثل مصر ليست نتيجة لمنطق أكثر عولمية، لكنها سياق سياسى نشيط يهمش مغزاه ويهمل، على نحو متكرر، بإعادة إنتاج السرديات البسيطة للعولمة.." (٢٠٠٢: ٢٩٨)

وبالنسبة " لبلدان نامية " مثل مصر بديونها الحكومية التى تفاقمت فى الثمانينيات فهذا النوع من السياسات ينفذ فى كل الحالات تحت ضغط من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى وتصاغ باعتبارها حزم تكيف هيكلى. وهذه الحزم التى يغلب عليها الطابع المعيارى تتألف عمومًا من " خصخصة الأصول العامة والخفض الشديد للإنفاق العام وخفض الأجور وتعويم العملة وتحرير قوانين التجارة والاستثمار وتعزيز الصادرات " (ماكمايكل ١٩٩٨: ١٠٧، فيلتماير وآخرون ١٩٩٧) ولم يسفر برنامج التكيف الهيكلى فى مصر عن انسحاب الدولة من تأمين الرعاية الاجتماعية فحسب، بل عن نشوء الصندوق الاجتماعى للتنمية شبه الحكومى بتمويل دولى الذى كان يقصد به تخفيف آلام المصريين الناتجة عن التكيف الهيكلى. وشمل البرنامج، فوق

ذلك، إعانات حكومية كبيرة للقطاع الخاص فى شكل قروض ضخمة لرجال الأعمال من البنوك العامة وإعفاءات ضريبية للمشروعات التجارية واستثمارات فى البنية التحتية انتفعت بها مواقع الإنتاج الجديدة (ميتشيل ١٩٩٩، ٢٠٠٢).

وقد كان التنفيذ الفعلى لهذه الإصلاحات جزئيًا. وما زال العقد الاجتماعى بين الدولة والمجتمع مخيماً فى الأفق، برغم خمسة عشر عاماً من التكيف الهيكلى. وكما تقول ليلى أبو لغد فإن " مساندة الخصخصة والشركات المتعددة الجنسيات لا تنسجم، بسهولة، مع تبرير النخبة الحاكمة لوجودها بالاستمرار فى رطانة التنمية الوطنية التى تعد التنمية الاجتماعية والمصلحة الاجتماعية الأوسع حجر الأساس فيها " (٢٠٠٥: ١٨-١٩). ورغم السياسات والالتزامات النيوليبرالية، فإن البيانات الرسمية تكرر بانتظام التزام الدولة بالفقراء وبأهداف المساواة الاجتماعية.

ولأن المحاولات السابقة لخفض الدعم جذريًا أدت إلى انتفاضة شعبية خربت أجزاء من المدينة، فقد اختارت الحكومة التفكيك البطيء لمؤسسات المرحلة الناصرية، مفضلة ذلك على الإلغاء الفورى التام لترتيبات الرفاه الاجتماعى هذه. ولم تكتسب الخصخصة زخمًا حتى نهاية التسعينيات من القرن العشرين. وقد تضخمت أعداد الموظفين الحكوميين على نحو ثابت (أسعد ١٩٩٧) ودأبت الحكومة على الزعم بنجاح مشروعات التوظيف الحكومية[٨]. ومثّل تمديد برامج دعم الأغذية فى ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤ خروجًا مماثلاً على السياسات المقررة[٩]. وأجبر السخط المنتشر على نطاق واسع بين المصريين، بعد سنوات من التأزم الاقتصادى والتضخم، الحكومة و بشكل متكرر، على اللجوء إلى التدخلات الحكومية التى كان يفترض أنها شىء من الماضى.

وبرغم أن التقرير النقدى الشامل عن العقدين الماضيين، من زاوية إعادة الهيكلة اقتصادياً والسياسات الليبرالية فى مصر، لم يكتب بعد، فإن السجل يبدو كئيبًا. وقد قوبل أداء مصر، فى البداية، بالترحيب كمثال نموذجى لإصلاحات صندوق النقد

الدولى، وجرى الاستشهاد بمؤشرات الاقتصاد الكلى للتدليل على نجاح الإصلاحات: انخفاض معدل التضخم، وعجز حكومى ودين خارجى منخفضان نسبيًا، وكذلك نسب نمو معقولة. ومع ذلك، وكما يبين تيموثى ميتشيل بشكل مقنع، فهذه الأرقام، فى حقيقة الأمر، تروى قصة تدعو إلى الانتباه من الغفلة عن التدفق القصير العمر للفيوضات المالية الناشئة عن المضاربات والحقنات المالية التى أسفرت عن طفرة فى البناء استهدفت قسما صغيرا من المصريين الأثرياء أكثر مما كانت تجديداً للعافية الإنتاجية أو توسعًا فى الصادرات (ميتشيل ٢٠٠٢: ٢٧٣) ولم يسفر دعم القطاع الخاص على هذا النحو عن الثمرات المرتجاة. والتذكارات الأكثر إثارة للألم، فيما يتعلق بهذا العجز، هى مواقع البناء المهجورة (فينيال ودينيس ٢٠٠٦: ١٣٤) والقضايا الغارقة فى الأضواء ضد رجال الأعمال الذين رفعت ضدهم قضايا بسبب عجزهم عن خدمة ديون قائمة ترتبت على قروض من بنوك عامة (لم يحاكم مقترض بسبب العجز عن السداد ولكن الاتهامات التى وجهت لرجال الأعمال طوال العقد الثانى من القرن الحالى كانت لأسباب جنائية يتصل معظمها بتزييف البيانات الخاصة بالموقف المالى – المترجم)

ويزعم ميتشيل (٢٠٠٢) وكينيل (٢٠٠٢) أن التفاوتات الاجتماعية والفقر زادت فى مصر طوال ثمانينيات القرن الماضى وأصبحت، على الأرجح، أكثر حدة فى التسعينيات، نتيجة لسياسات التكيف الهيكلى. وفوق ذلك فهما يدفعان بأن الإصلاحات النيوليبرالية أسفرت عن مزيد من تكدس الثروة فى أيدى قلة تتميز بالقوة من حيث الموارد والصلات بالدولة. وتشير الإحصاءات المتوفرة إلى أن التفاوتات الاجتماعية أصبحت أكثر وضوحا فى القاهرة الكبرى(١٠). ويتوصل رجوى أسعد وملك رشدى إلى خلاصة غير نهائية مؤداها أنه بمنتصف التسعينيات كان ربع المصريين فقراء، بأى معيار، فى حين كان ربع آخر على حافة الفقر (١٩٩٩: ٢). كانت البطالة تتزايد، فى حين كانت الأجور الحقيقية تتناقص طوال الثمانينيات والتسعينيات من القرن

الماضى (انظر أسعد ٢٠٠٢ وعوض ١٩٩٩). ومن المحتمل أن الحالة أصبحت أكثر سوءاً فى السنوات التالية، حيث مر الاقتصاد المصرى بأزمة اقتصادية حادة مع مستويات تضخم مرتفعة.

وحتى الآن فأنا أركز على السياسات " السلبية " المميزة للتكيف الهيكلى: انسحاب الدولة من التدخلات الاقتصادية والاجتماعية، وتخفيضات الموازنة، وإسقاط الحواجز أمام " الأسواق المفتوحة ". ويقلل هذا التوصيف من شأن السيطرة المستمرة للدولة المصرية. فعلى الرغم من أن " الحكومية العابرة للقوميات " التى تمارسها المنظمات الدولية والجمعيات الأهلية " المحلية " المموّلة دوليًا ربما عوقت الدولة (فيرغسونوغوتبا ٢٠٠٢) فقد احتفظت هذه الأخيرة بدور مهم فى إدارة هؤلاء الفاعلين غير الحكوميين وتوصياتهم السياسية (عبد الرحمن ٢٠٠٤). وفوق ذلك فقد بقيت الدولة حكمًا مركزيًا فى توزيع الموارد (ميتشيل ٢٠٠٢)، كما بقيت صاحب العمل الرئيسى فى القطاع الرسمى، ومورد المنافع العامة المهمة، حتى إن كانت من نوعية متدنية. فما زال العقد الاجتماعى من الحقبة الناصرية بين الدولة والسكان مصدراً مهماً لإطار التوقعات والمطالب الشعبية فى مواجهة الدولة، حتى إن لم ترق الدولة إلى مستوى هذه التوقعات. وتلاحظ ليلى أبو لغد، بحق، أن الدولة الوطنية ما زالت تمثل الإطار الأساسى للحيوات اليومية وللتخيلات الاجتماعية لمعظم المصريين (٢٠٠٥: ٢٦).

وقد شهدت تسعينيات القرن الفائت إعادة تنظيم وإعادة انتشار للدولة، أكثر مما شهدت أفولها. وتبرز دايان سنغرمان وبول عمار الطبيعة العنيفة والقمعية " للبرلة " فى مصر. وهما يشخصان الدولة " الليبرالية " باعتبارها "دولة تدار لمصلحة نخبة، رأسماليين مدعومين من الدولة مقرهم القاهرة يدعون أنفسهم ليبراليين أو معولمين أو دعاة ديمقراطية لأنهم يسهلون الاستثمار الأجنبى فى المجال الاقتصادى، حتى وهم يصرون على القمع، وعلى تمديد قانون الطوارئ، وعلى ممارسات الدولة البوليسية فى المجال السياسى " (٢٠٠٦: ٩). وقد لعبت الدولة المصرية دوراً حاسماً فى خلق وتأمين

" شروط السوق " وتنفيذ سياسات نيوليبرالية (ميتشيل ٢٠٠٢، ساسن١٩٩٨، الفصل العاشر) وكما أدفع فى القسم التالى فإن الدولة نهضت بمهمة تسهيل وترويج بل خلق مواقع اقتصاد حضرى جديدة، وقامت باستثمارات رئيسية فى البنية التحتية بقصد خلق بيئة من مستوى عالمى فى عاصمة البلاد.

لوازم المدينة العولمية

مصر منذ عهد بعيد بلد شديد المركزية. وفى ١٩٩٦ كانت القاهرة الكبرى تؤوى ما يقدر بـ ١٥ مليونا، قرابة ١٧ فى المائة من سكان البلاد (فينيال ودينيس ٢٠٠٦: ١٢١-١٢٣) لكن الأهمية المركزية للقاهرة تفوق بكثير ما يشير إليه نصيبها من أهل البلاد. فالأهمية المركزية للدولة الوطنية المصرية تجد أفضل تعبير عنها فى أن اسم العاصمة واسم البلد واحد، فى العامية: مصر(*) وكل المؤسسات الحكومية الرئيسية والأنشطة الاقتصادية الرئيسية، تقريباً، متمركزة فى العاصمة (انظر فينيال ودينيس ٢٠٠٦). وهذا أمر تتزايد صدقيته بسبب الأنشطة الاقتصادية ذات التوجه الدولى، التى تتموقع حصرياً فى منطقة القاهرة الكبرى.

وقد أنجزت التحولات التى أسفرت عنها إصلاحات النيوليبرالية فى مصر والسعى إلى الاندماج فى السوق العولى، فى المقام الأول، فى المشهد الحضارى القاهرى، وكانت محسوسة فيه. ويحمل المشهد الحضرى للعاصمة علامة مشروع مصر القومى الجديد. فقد تم توجيه القطاع الخاص ومبادرات الدولة لخلق مدينة ملائمة عولمياً قادرة

(*) لا تقتصر هذه الظاهرة على مصر فالعاصمة السورية يشار إليها باسم الشام وهى المنطقة التى تقوم عليها الآن عدة دول وطنية وربما كان سبب هذا التماهى يعود إلى ظاهرة الدولة – المدينة التى انتشرت فى العالم اليونانى ثم فى العالم الرومانى وكانت مصر وسوريا من أهم أعضاء العالمين، حتى القرن السابع الميلادى – المترجم

على تلبية احتياجات المشروع التجارى عبر القومى وأساليب حياة القاهريين الأثرياء (انظر، مثلا، فينيال ودينيس ٢٠٠٦، وغنام ٢٠٠٢، وميتشيل ١٩٩٩، ويسرى وآخرين ١٩٩٨). وقد تجسدت هذه الجهود فى استثمارات فى البيئة التحتية وفى بناء مواقع إنتاج الاقتصاد الجديد مثل مدينة الإعلام والمجمع للاتصالات وكذلك المنشآت السكنية والترفيهية للموظفين فى هذه القطاعات (انظر دينيس ٢٠٠٦، الششتاوى ٢٠٠٦). وفى باكورة القرن الحادى والعشرين استكمل الطريق الدائرى حول القاهرة، ونبتت المجتمعات المغلقة على امتداد الطرق السريعة التى أصبحت تمثل محاور جديدة للمركزية فى المنطقة التى تتسع حول العاصمة. وبدا أن جامعة خاصة جديدة تفتح أبوابها كل عام. وصارت الساحة القاهرية تلبى، على نحو متزايد، احتياجات الجماعات التى تتناسب مع المشروع النيوليبرالى والذين يسمح لهم ثراؤهم بأن يتركوا علامتهم على المشهد فى شكل ممارسات واستخدامات للفضاء الحضرى هى استهلاكية على نحو كوزموبوليتانى صارخ. وساكنو القاهرة الراقية هذه ليسوا النخب الثرية وحدها، بل أيضًا المهنيون من الطبقة المتوسطة العليا الذين يشغلون الوظائف فى فضاءات الشغل الراقية ذات التوجه الدولى.

ويلاحظ آيزى أونكو وبيترا ويلاند أن " الأبراج الإدارية التى تؤوى الشركات متعددة الجنسيات والبنوك عبر الوطنية ومراكز التجارة العالمية وفنادق الخمسة نجوم، والتى كانت فيما مضى علامة حصرية لعدد صغير من " المدن العالمية " تعنى الآن اندماج كل عاصمة رئيسية، تقريبًا، فى الرأسمالية العالمية (١٩٩٧: ١) وعلامات التحول إلى النيوليبرالية وإلى السوق الكونية منقوشة، على نحو متماثل، فى المشهد القاهرى، وأبراج نايل سيتى المنتصبة على كورنيش النيل شمالى وسط البلد هى علامة صارخة على القاهرة النيوليبرالية. وتمثل مكاتب أوراسكوم هذه بطوابقها الثلاثة والثلاثين لافتة على مدخل القاهرة إلى حقبة عولمية.

هذه التماثلات فى المشاهد الحضرية حول العالم تفصح عن نشوء دائرة من الفضاءات العولمية المترابطة والموجودة داخل محيط غالبًا ما يكون مدقعًا ويتزايد تهميشه. وتدفع ساسكيا ساسن (٢٠٠٠ - ٢٠٠١) بأن المدن اكتسبت أهميتها باعتبارها مفاصل التنسيق والسيطرة للإنتاج العولمى المنتشر. فهى تؤوى تجسدات العولمة التى يتزايد انفصالها عن بقية المشهد الحضرى. وهذه المركزية (المتصورة) للمدن خلقت ديناميتها الخاصة. ويدفع روبنسون بأن " المدينة العولمية " قد ترجمت إلى " خرافة تنظيمية " تعد بثورة حضرية جديدة، وتهدد بانفصال شامل (٢٠٠٢، م ب سميث ٢٠٠١) ويدفع نيل سميث بأن تركيز الإنتاج على الصعيد المتروبولى (Metropolitan) المتصل بالعاصمة أو الخاص بها) نشأت عنه حضرية جديدة (٢٠٠٢: ٤٣٤).

أبراج نايل سيتى

وتستتبع هذه الحضرية الجديدة تنافسًا بين حكومات المدن للفوز بحصة من التجارة العولمية وتحسين مرتبة مدينتهم فى المؤشرات الشاملة للتراتبية الكونية للمدن. ووفقًا لسميث فهذا " السعى إلى العولى " يتضمن، بشكل عام، تحولاً رئيسيًا فى تخصيص الموارد باتجاه البنية التحتية والمشروعات اللافتة وأيضًا دعم الشركات العولمية لإغرائها للتموقع أو لتبقى متموقعة فى مدينة معينة، وهى أشكال من الدعم يدعوها " رشاوى جغرافية " (٢٠٠٢: ٤٢٧- ٤٢٨).

لكن هذه الاستثمارات اللافتة لا تتصل بالتنافس على المشروعات التجارية العولمية فحسب - فداوسون وإدواردز يحذران، وهما محقان فى ذلك، من تجاهل العلاقة الدياليكيتكية بين الوظائف الاقتصادية العولمية للمدينة " و " الوظائف السياسية العولمية للمدينة " فى " ثقافات العولمة " (داوسون وإدواردز ٢٠٠٤: ٢) وكما يقول عابدين كوزنو (٢٠٠٤) فالحياة فى العواصم غالبًا ما تحول إلى رمز لحياة الأمة. وتترتب على " الحضرية الوطنية " استثمارات ضخمة فى المشهد الحضرى لهذه العواصم حتى تمثل الطموحات الوطنية. وهذه هى حالة مصر، منذ عهد بعيد، وعلى سبيل المثال فإن وسط البلد الذى ينتمى إلى الزمن الجميل لا يزال قائمًا ليذكر بطموحات الخديو إسماعيل أواخر القرن التاسع عشر. مثل هذه المشروعات اللافتة يمكن أن ينظر إليها كمحاولات للتعبير عن انتقال البلاد من وضعية عالم ثالثية، كما قال أنطونى د.كينغ بخصوص الاستخدام المتكرر فى الصين للبرج العالى (٢٠٠٤، الفصل الأول).

صورة ميدان طلعت حرب بوسط القاهرة.

ويعد مقال كتبه مخطط المدن المصرى خالد الخشن مثالاً على منطق "المدينة العولمية". فالخشن يدفع بأن القاهرة يجدر بها الإسراع فى مسعاها لبلوغ مركز المدينة العولمية حتى تؤمن الموارد الضرورية للمنعة المالية. وهو يلخص ملامح البنية التحتية للقاهرة التى يعتبرها مناسبة لمثل هذا التطلع إلى وضع عولمى: "متحف قومى بعدة ملايين من الدولارات، مجمع البورصات، جامعة فرنسية جديدة، رحبة بحثية ذكية / هاى تيك.. افتتاح الخطين الثانى والثالث لقطار الأنفاق، وطريق دائرى" ثم هو، فوق ذلك، يشير إلى ما يعده ضمن الأصول مثل " المجمعات السكنية المغلقة (التى) انبثقت حول المدينة " وكذلك حقيقة أن " المنوعات الفنية والترفيه والاحتفالات الدولية يخدمها

تشييد دار للأوبرا ومدينة إعلامية تقدر بمبلغ ٢٠٠ مليون دولار والمول التجارى "سيتى ستارز" ومجمعه السكنى وحديقة الثيمة (دريم بارك) وأربعة ملاعب غولف بمستوى عالمى (و) أربعة فنادق خمسة نجوم جديدة.." (الخشن ٢٠٠٣: ١٢٩-١٣٠). وتبدو هذه القائمة وكأنها جدول تنقلات للطبقة العليا أو المتوسطة العليا. ويتضح من الاحتفاء بهذه التسهيلات بعينها وجود صلة حميمة بين السعى إلى العولمى وبين الطبقات العليا والمتوسطة العليا فى القاهرة. وهذا يلقى الضوء أيضًا على عدم أهمية غالبية فضاءات المدينة وساكنيها لقاهرة تناسب العولمة ويكشف عن غياب مثير للقلق للاهتمام بمسائل المساواة الاجتماعية، بل حتى البقاء.

وتدفع فرحة غنام بأن المشهد الحضرى القاهرى أصبح موضوعًا للبحث عن العولمى فى أواخر سبعينيات القرن الفائت (٢٠٠٢، انظر أيضًا إبراهيم ١٩٨٧) وهى تقول " يولى التخطيط لبناء قاهرة حديثة اهتمامًا كبيرًا للصورة البصرية للفضاء الحضرى " وتشير إلى أن " سياسات السادات، وهى تسعى إلى تقليد الحداثة الغربية أعطت الأولوية لنظرة السياح وللمصريين من الطبقة المتوسطة العليا " (غنام ٢٠٠٢: ٣١). وقد كتب الرئيس أنور السادات فى "ورقة أكتوبر" فى ١٩٧٤ أنه ينوى خلق "مدينة تليق بمركزها الدولى عبر تزويدها بالبنية التحتية اللازمة وبشبكات الاتصال الحديثة وبالمرافق اللازمة للعمل وكذلك بالنشاطات السياحية والاقتصادية" (أشارت غنام إلى ذلك ٢٠٠٢: ٢٩). وكما يلاحظ سعد الدين إبراهيم فالنماذج المفضلة لدى السادات كانت لوس أنجيليس وهيوستون أكثر من باريس (١٩٨٧: ٢١٤) ولم يترتب على إنشاء عاصمة حديثة تناسب التوجه إلى الخارج، بدرجة أكبر، فى مرحلة الانفتاح بناء وتحديث جديدان للبنية التحتية للمدينة، فحسب، ولكن أيضًا إزالة المناطق "الشعبية" فى المواقع المركزية باسم المصلحة الوطنية والتنمية والحداثة (غنام ٢٠٠٢: ٣٢-٣٨).

وصادفت التدخلات التالية الهادفة إلى خلق قاهرة مناسبة عولميًا فى الثمانينيات والتسعينيات إعادة الهيكلة الاقتصادية النيوليبرالية ومحاولات الاندماج فى السوق العولمية. ولعبت الحكومة دورًا نشيطًا فى إعادة هيكلة المشهد الحضرى. وكما ذكر محمود يسرى وآخرون فإنه من أجل تكييف البيئة الاستثمارية مع اتجاهات العولمة وتأمين فضاء اقتصادى للمستثمرين فى السوق العولمية الجديدة، حصلت الحكومة المصرية... على مساعدات أجنبية فنية وتمويلية هائلة... لتحديث البنية التحتية وشبكات المواصلات والاتصالات فى القاهرة لتعزيز دورها المستهدف كمدينة عالمية (١٩٩٨: ٢٧٧-٢٧٨).

وفى ١٩٧٥ تولت هيئة مركزية مهمة تحديث البنية التحتية فى القاهرة بمساعدة بالخبرة والتمويل من البنك الدولى. ووجهت استثمارات هائلة للطرق والكبارى العلوية والطريق الدائرى. وبنهاية الثمانينيات تم الانتهاء من الخط الأول من خطوط المترو الثلاثة، واستكمل الثانى بنهاية التسعينيات. وعملت الهيئة أيضًا على تحديث المرافق العامة وشبكات الاتصال (يسرى وآخرون ١٩٩٨). ومن الأمور ذات المغزى أنه فى حين بلغت الاستثمارات فى مشروعات النقل فى ١٩٩٢/١٩٩٣ ما يربو على ١٥٠ مليون جنيه مصرى فإن ١٠ ملايين فقط هى التى خصصت لتحديث المناطق " المتداعية " التى كان يسكنها نصف إجمالى القاهريين. (يسرى وآخرون ١٩٩٨: ٢٨٢٨-٣٠٠).

وقد كان للاستثمار الهائل فى البنية التحتية للقاهرة تأثير كبير لجهة تحسين شروط المعيشة فى القاهرة. فقد أصبحت إمدادات الكهرباء والماء يعتمد عليها، بدرجة أكبر كثيرًا. وفى حين كانت فترة الانتظار والبقشيش اللازمان للحصول على خط تليفون أمرًا أسطوريًا (١٩٩٩: ٢٣٠-٢٣١) فيمكن الآن تركيب التوصيلات التليفونية خلال أسابيع. ويؤمن خطا المترو وسيلة نقل عامة حيوية لكثير من القاهريين.

كوبرى (جسر) شارع رمسيس العلوى

وقد استكملت الخطة الرئيسية للبنية التحتية لتحسين المرور داخل القاهرة. ويوصل طريق دائرى وطرق سريعة داخل المدينة مدينة السادس من أكتوبر، الموقع الرئيسى للمشروعات الاقتصادية اللافتة الجديدة مثل مدينة الإنتاج الإعلامى ومجمع الاتصالات الدولية، بمختلف أجزاء القاهرة، على تباعدها. هذه البنية التحتية تصادف أنها تصل مناطق تجارية قاهرية راقية مختلفة، وهو ما أدى إلى زيادة سرعة الحركة بين هذه المناطق المتباعدة، وبينها المدن والمجمعات السكنية الجديدة فى الصحراء (انظر خريطة القاهرة). ورغم أن هذه الكبارى العلوية والطرق السريعة فعلت الكثير لتحسين حالة المرور التى كانت سيئة السمعة، فيما مضى، فإنها خلقت أيضًا شروطًا

لمزيد من الانفصال بين فضاءات القاهرة الراقية والأجزاء الأقل ثراء فى المدينة، وتسمح شبكة معقدة من الطرق الداخلية والطريق الدائرى لأصحاب السيارات الميسورين بالتحرك من أحد الأحياء القاهرية الراقية إلى الآخر، دون النزول إلى الارتباك والازدحام والإملاق فى الفضاءات القاهرية الأشد فقراً. ويتزايد تموضع حيوات الميسورين من أهل القاهرة على امتداد محاور النقل الرئيسية الثلاثة المتصلة بالطريق الدائرى المهندسين/ مدينة السادس من أكتوبر، مصر الجديدة ومدينة نصر/ القاهرة الجديدة والمعادى/ المقطم/ المعادى الجديدة. أما وسط البلد الذى بنى فى القرن التاسع عشر والذى كان فى الماضى نخبويًا فلا يكاد يظهر فى مساراتهم الحضرية (باتيستى ٢٠٠٦).

وقد استتبع هذا الاندفاع نحو خلق قاهرة جاذبة وملائمة عولميًا تماثلاً واضحًا وباهرًا مع المدن الرئيسية الأخرى من حيث التنظيم الفضائى والبيئات المعمارية وأساليب الحياة الكوزموبوليتانية ونماذج الاستهلاك ذات الأساس الطبقى. ونتيجة لذلك فقد نشأت قاهرة حصرية راقية تلبى احتياجات سكانها الأثرياء بمنتجات وفضاءات كوزموبوليتانية صارخة. كما أدى إلى أشكال جديدة من القطيعة وضاعف الفصل الاجتماعى فى المشهد الحضرى. وكما يقول آلان وجوزيفين سمارت فى مقالتهما عن الحضرنة والعولمة فإن كثيراً من التدخلات فى المدن ينظر إليها على أنها جهود تسعى لجعلها مضيافة بدرجة أكبر للطبقة المتوسطة المهنية وكذلك للمستثمرين والسياح الأجانب، وعادة ما يكون ذلك على حساب الفقراء والأقليات" (٢٠٠٣: ٢٧٣). ويمضى يسرى وآخرون فى الاتجاه ذاته: " معظم الاستثمارات العامة والخاصة تستخدم لترقية البنية التحتية فى القاهرة ولتحسين البيئة المحيطة بالمنخرطين فى تيارات العولمة. وقد جاء الاتجاه إلى العولمة على حساب المجموعات ذات الدخل المتوسط والمنخفض التى تعيش على مصادر ثابتة ". (١٩٩٨: ٣٠٥).

تصور لقاهرة أخرى

وتستدعى الأجندة النيوليبرالية فى مصر إعادة تخيل جديدة إلى حد كبير للأمة وتنميتها ومستقبلها. فمن ذا الذى سيصبح الوريث الشرعى لهذه الرؤى الجديدة للأمة ومن ذا الذى يملك، بالتالى، الحق فى قدراتها ومواردها؟ أنتقل، أولاً، إلى الإعلان لأستكشف بعض الصور النيوليبرالية عن الأمة الجديدة المنافسة للعولمة وعن اللاعبين الشباب المهنيين الحضريين فيها. وبعد ذلك أعود إلى المشهد الحضرى للقاهرة حيث يمكن أن نجد العلامة التى تركتها هذه السرديات الجديدة فى شكل سلسلة من المشروعات الحضرية الحصرية.

فبينما كنت أشاهد التليفزيون فى ربيع ٢٠٠٢ أدهشنى إعلان غير اعتيادى. كانت الصور جميلة وجذابة وتمثل نقيضًا صارخًا لمعظم ما كان يعرضه التليفزيون الحكومى وبمستوى أدنى من الجودة. ورغم أنى لم أعد أذكر نص الإعلان، فلا تزال الصور باقية كمثال واضح على مزيج من الحلم والإنكار هو علامة الحنين إلى قاهرة عولمية. تقترب الكاميرا من شباب وشابات أصحاء ذوى بشرة فاتحة وشعر غير مجعد يرتدون ملابس رسمية. يحملق هؤلاء، فى ثقة، فى الكاميرا باتجاه المستقبل من وراء شاشات مسطحة فى مكتبة الإسكندرية الجديدة، وهى مشروع محترم رئيسى للحكومة المصرية بتمويل ضخم من المانحين الأجانب. هذا الإعلان الجائح كان يروج لمؤسسة جيل المستقبل التى أنشأها جمال مبارك نجل الرئيس حسنى مبارك بهدف مقرر هو تطوير الموارد البشرية فى مصر فى ضوء المنافسة فى السوق العالمية[١١].

وكان الموقع الجاد، وإن كان فخمًا ومتقدمًا من الناحية التقنية، يمثل خلفية لمهنيين شباب حسنى المنظر هم جيل المستقبل فى مصر. كانت صور الإعلان مغرية لكن ما شد انتباهى كان الإقصاءات العديدة التى فصلها. فهذا التصوير لجيل المستقبل فى مصر أعاد إنتاج خطوط التمايز داخل المجتمع. فملابسهم الرسمية كانت تشى بمهنية غربية، فى حين أشارت بشرتهم الفاتحة إلى خلفيات نخبوية محلية. ولم يظهر ضمن

جيل المستقبل هذا محجبات. ولم يكن غريباً أن الحجاب عد غير مناسب لحاضر مصر الماثل ومستقبلها المتخيل. وعكس هذا الإقصاء سياسة إعلامية رسمية. تصر على تصوير مصر باعتبارها علمانية(١٢). وقد يقابل المرء فتاة بدوية محجبة بشكل مغر فى فيديو موسيقى أو فى إعلان سياحى، وغالبًا ما تظهر فى المسلسلات التليفزيونية أما تفيض حنانًا ورقة تلبس غطاء رأس محتشم. وليس هذا كله إلا تذكرة ضرورية وإن كانت هامشية، بغرائبية مصر وبالراحة والأمان فى الحياة الخاصة. أما حاضر مصر ومستقبلها فيتموضعان، كما هو واضح، فى مكان آخر ويجسدهما لاعبون مختلفون.

وبصياغة رسالة حول مصر التى تمضى نحو مستقبل مشرق وسليم عولميًا كان النص الفرعى للإعلان أوضح مما يمكن تجاهله:

فأناس معينون هم وحدهم الذين سيصبحون جزءًا من جيل المستقبل الذى سيمضى بمصر إلى المستقبل. وأثناء مقابلة مع " شلة " أحمد، وهم مجموعة من الرجال من الطبقة المتوسطة الدنيا الذين تخرجوا حديثًا فى الجامعة، سألتهم عمن يحصلون على كل الوظائف الجيدة. وكانت إجاباتهم الموجزة والحاسمة "شباب المستقبل" (١٣) ولم يكن يكاد يوجد لدى هؤلاء الشباب شك بخصوص ظروفهم وفرصهم فى الحياة وقد أطنبوا فى الحديث عن التوزيع العام للثروات فى المجتمع المصرى المعاصر. ففى حين تتشكل مصر جديدة أمام أنظارهم كانوا يدركون وهم ممرورون أن خطتها لا تشملهم. وقد عكس الإعلان خبراتهم وملاحظاتهم اليومية: السيارة الجديدة البراقة التى يقودها أناس فى مثل أعمارهم، الإعلانات حول وظائف لا يمكن أن يفكروا بالتقدم إليها، والسلع الفاخرة فى المولات المبهرجة الجديدة التى قد تمثل وعدًا مغريًا وإن كان من الواضح أنها ليست فى متناولهم. وكل هذا فى سياق لا يمكن لأحدهم فيه، كما ظل أحد الشباب يردد، أن يشترى لنفسه سويتر جديداً. وفيما كان من الواضح أن هذا الإعلان يقدم صورة مستقبل مصر المأمول، فقد كان يشهد أيضًا على ما يصحب تخليقه من رفض وتشتيت وإسكات.

وفى ذات الوقت، تقريباً، تحدث إعلان آخر عن شركة الاتصالات الوطنية "المصرية للاتصالات" ببلاغة عن المشروع الوطنى الجديد الذى يتضمن الصعود بالمحلى إلى مستوى مواكبة العولمى (انظر الشكل). وبعد نظرة عين الطائر على القاهرة ولقطة للفلوكات على النيل(١) يمضى بنا الإعلان إلى قلب القاهرة. وعلى إيقاع موسيقى صاخبة تقلع مع رحلة جوية مبهجة بصرياً بين تذكارات المجد السالف لوسط البلد القاهرى. وتتحدث شابة تلبس على الموضة عبر الهاتف فى شقتها بوسط البلد (٣،٢) ويتحدث رجل لا يقل وسامة، يفترض أنه زوجها، على هاتفه المحمول فى محل كوفى شوب راق(٤). هذا التكوين للخط السردى الرئيسى فى الإعلان يتبعه التوالى السريع لصور تظهر مختلف الاستخدامات والمستخدمين للاتصالات، من مؤتمرات الفيديو بين مكاتب رئيسية عصرية وفخمة، وموقع بناء (٦) إلى بائع فواكه شعبى يظهر وهو يستخدم عدة تليفون قديمة(٨).

وقد جاءت هذه المتتالية المصورة ضمن إطار وطنى. فهى تحتوى على صور ليست مرتبة بالاتصالات على نحو واضح، لكن القصد منها إثارة مشاعر وطنية: مشجعو الفريق القومى لكرة القدم (٥)، شابة فى موقع ريفى أخضر، وأداء نوبى راقص (٧). وطوال الإعلان تظهر جمل قصيرة تذكر المشاهدين بالوحدة الوطنية: " بلد واحد "، "صوت واحد"، " تربة واحدة "، " أسرة واحدة". ثم نعود للشابة فى شقتها وهى تتلقى اتصالاً هاتفياً من الرجل الذى فى الكوفى شوب. وفى اللقطة التالية نراهما يركضان. كل منهما فى اتجاه الآخر على كوبرى المشاة فى إمبابة وفضاء النيل الواسع المفتوح وراءهما. يتقابلان ويمسك كل منهما بيد الآخر(٩). وتظهر كلمة " عالم واحد " وتبتعد الكاميرا حتى نرى الكرة الأرضية (١٠) التى تتحول بدورها إلى نقطة فى لوغو المصرية للاتصالات. وينتهى الإعلان بصوت نسائى يقول " شبكة واحدة تقربنا جميعا: المصرية للاتصالات ".

وقد تم بث إعلان المصرية للاتصالات على موقع شركة الإعلان المصرية التى أنتجته وهى بيتس إكويتى .(www.batesequity.com) ويحمل الموقع وصف حالة جاء فيه أن المشكلة الرئيسية التى واجهت الشركة كانت صورتها لدى الجمهور. ووفقًا لوصف الحالة كان التصور السائد عن الشركة هو أنها " قديمة وغير ودودة ومتدنية الجودة. الشركة تجسد كل كليشيه عن القطاع العام " وكان هدف الإعلان تحسين مركز الشركة فى السوق واجتذاب المستهلكين وترقية الصورة الخاصة بها وإنشاء علاقات قوية بين الشركة وعملائها باعتبارها الوحيدة التى " تجمع بين كل المصريين ".

وزعم الموقع أن الحملة حققت نجاحًا فائقًا. واختيرت لتكون أفضل حملة فى رمضان ٢٠٠٢ من قبل "بيزنيس منثلى" وأظهرت دراسات المتابعة أنها نجحت فى نشر الصورة الجديدة لشركة مصر للاتصالات باعتبارها " عصرية، تزهو بها مصر، ورائدة فى مجال الاتصالات ".

وقد استعان الإعلان بصور لأمة عصرية وموحدة ومتوافقة مع المعايير القياسية للعولمة وعلى اتصال بالعالم.

وهكذا أكد الإعلان على العولمى وعلى الوطنى معًا. وفى مناقشته للإعلانات الهندية يدفع ماتزاريللا بأن " الوعد بعضوية الهنود فى " مسكونية " عولمية للاستهلاك على المستوى الدولى كان يأتى ذكرها مرادفًا للإدعاء بأن جوهر العولمة، فى الحقيقة، هو إدراك الخصوصية الثقافية للرغبات الهندية والاعتراف بها " (٢٠٠٣: ٣٤-٣٥، فيرنانديز٢٠٠٠) وفى الحالتين معًا فإن دخول " المسكونية" العولمية كان يطرح عبر الأمة، على نحو ذى مغزى. وقد عبر عن هذه الحداثة الوطنية الهندية، التى هى أيضًا عولمية، المشهد المدينى لبومباى، الذى صور باعتباره " فضاءً جمعيًا للتطلع والتحول " (ماتزاريللا ٢٠٠٣:٥٠).

وبالمثل فقد استخدم إعلان المصرية للاتصالات الفضاءات الحضرية فى القاهرة لتصوير حداثة مصر الراهنة. وفى حين ترمز اللقطات الموحية بالحنين وبالغرائبية عن الريف وعن رقصة فولكورية إلى فضاءات خارج القاهرة فإن حداثة مصر تموضعت فى الفضاءات الحضرية فى القاهرة. ورسم صورة لمصر من خلال الفضاءات الحضرية فى القاهرة وسكانها الأكثر ثراء هو ملمح معيارى فى الإنتاجات الإعلامية المصرية (انظر أبو لغد ٢٠٠٥). لكن الطرق المحددة التى صورت بها هذه الفضاءات الحضرية واختيار شخوصها يشى بعمليات الإدراج والإقصاء فى خيالات القاهرة/ مصر المناسبة عولمياً. ورغم ظهور كثير من المتصلين هاتفياً من الحضريين للإيحاء بالوحدة الوطنية، فإن الإعلان ركز على رجل وامرأة شابين وعصريين وميسورين، ويمكن أن يتموضع هذا الثنائى، بسهولة، فى الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة، الطبقة التى تشغل فضاءات الشغل فى ذات التوجه الدولى فى مصر.

وبدا أن اختيار وسط البلد القاهرى ينطوى على تناقض حيث إنه أصبح مركزاً للطبقة المتوسطة الدنيا، وتكاد الطبقة التى صورها الإعلان أن تكون هجرته (باتيستى٢٠٠٦) فكل علامات الطبقات الميسورة الجديدة متموضعة فى أماكن أخرى، فى مناطق الطبقة المتوسطة العليا مثل المهندسين ومصر الجديدة والمعادى والزمالك. لكن من الواضح أن هذه المناطق لم تكن مثيرة للخيال بدرجة كافية ولم يكن ممكناً أن تمثل مكانة القاهرة وأناقتها المرجوة. وبالمقابل فإن منطقة وسط البلد بعمارتها الفرنسية زمن انقلاب القرن بدت مسرحاً مثالياً لقاهرة أعيد تلميعها، أى جرى تخليصها من عكارات الحياة اليومية. فاللقطات التى تجنبت المحال الأقل ملاءمة والمرور والسكان والواجهات البيضاء المغبرة قدمت وسط البلد القاهرى كمدينة داخلية استعادت شبابها وارتقت لتوحى بتموضع كوزموبوليتانى أوربى أكثر منه أمريكى.

إعلان المصرية للاتصالات

من اليسار إلى اليمين:

١ - الفلوكات فى النيل وكوبرى إمبابة فى الخلفية.

٢ - امرأة فى بلكونة شقة فى وسط البلد تجرى اتصالاً هاتفيًا.

٣ - داخل الشقة.

٤ - رجل على الهاتف فى كوفى شوب.

٥ - مشجعو الفريق القومى لكرة القدم (" صوت واحد ").

٦-مؤتمر بالفيديو بين المكاتب الرئيسية وموقع البناء ("عيلة واحدة ")

٧ - لمسات غرائبية لأداء نوبى (" روح واحدة ").

٨ - لقطات لأشخاص على الهاتف، فى هذه الحالة بائع فاكهة شعبى.

٩ - بعد مكالمة هاتفية، الرجل والمرأة اللذان سبق ظهورهما وهما يركضان يلتقيان على كوبرى إمبابة (" عالم واحد ").

١٠ - الكاميرا تبتعد عن الكوبرى إلى شاطىء النيل ثم إلى الكرة الأرضية.

صور ثابتة من إعلان المصرية للاتصالات، إنتاج بيتسى إكويتى
http://www.batesequity.com/web/index.html
(أخذت فى ١٩ فبراير ٢٠٠٥)

وقد كان اختيار كوبرى إمبابة أكثر إقصاء للحقائق الواقعية اليومية. فالجسر المخصص للمشاة الذى يلتقى فيه الرجل والمرأة يصل، فى الحقيقة، بين منطقتين من مناطق الطبقات الدنيا على جانبى النيل: إمبابة وروض الفرج. ولا يمكن لاثنين من الميسورين مثل الشخصين اللذين صورهما الإعلان أن يجتازا هذا الجسر المغروس بين منطقتين اشتهرتا بانتمائهما لطبقات دنيا. وقد كان واضحًا أن صورة الجسر تخاطب مشاعر أوربية أكثر مما تخاطب مشاعر مصرية. فقد استدعت الصورة تداعيات ترتبط بمشروعات الترقية(*) الشائعة فى الغرب وهو ما يتصل بالحنين إلى مرحلة صناعية تم تجاوزها من أجل مستقبل بعد فوردى(**).

لكن مصر يصعب أن تتباهى بماض صناعى عند انقلاب القرن على هذا النحو. فإعلان المصرية للاتصالات لم يقدم حاضرًا ومستقبلاً مرغوبين، فقط، للقاهرة/ مصر، بل قدم أيضًا ماضيًا صناعيًا راقيًا ومنتقى[١٤].

ورغم أن الواقع الحضرى لعاصمة تضم قرابة خمسة عشر مليونًا أثبت أنه عصى على الترويض، فقد تيسر خلق قاهرة مثالية وملائمة عوليًا، فى عالم الخيال. فلا يوجد هنا أى تلوث أو أى شقوق يمكن أن تكشف عما يوجد بأسفل. وهذه القاهرة الجديدة يمكن أن ترقى إلى التعقيد والأناقة المميزين لأوربا القديمة والمتجددة، فى حين أن مصر التى تجددت جسدت المعايير القياسية العولمية للمهنية والبأس التكنولوجى. فإعلانا المصرية للاتصالات ومؤسسة جيل المستقبل لم يكتفيا ببيع صورة شركة/ مشروع بل أوحيا برؤية لحاضر مصر ومستقبلها. فشركة القطاع العام التى تتخصخص والتى أجبرت على المنافسة فى السوق العالمية، والجمعية الأهلية المرتبطة

(*) gentrification إحلال الميسورين محل الفقراء ببناء مساكن غالية فى مناطق الفقراء وهو ما يرفع مستوى الإيجارات فيضطر الفقراء للرحيل- المترجم)

(**) Post-Fordist نمط الإنتاج والاستهلاك وعلاقات العمل المتصلة بالمشروع الصناعى منذ نهاية القرن العشرين. (المترجم)

بالدولة التى كانت تهدف إلى تسهيل اندماج مصر فى السوق العالمية ذاتها هما علامتان على المرحلة الليبرالية الجديدة فى مصر، شأنهما شأن مصر المتخيلة التى صورها.

وإعادة صياغة مصر تتوازى مع اتجاهات فى بلدان بعد كولونيالية أخرى كانت متحالفة، يومًا ما، فى حركة عدم الانحياز. وكما يقول فرنانديز عن الهند " إذا كانت مبادئ نهرو التنموية يمكن أن نجدها فى رموز مثل السدود والمصانع الضخمة، فإن العلامات المميزة لهند راجيف غاندى انتقلت إلى توفير السلع التى تتماشى مع أذواق الطبقات الوسطى الحضرية ومع ممارساتها الاستهلاكية " (٢٠٠٠: ٦١٤) وفى مصر، فالصور البطولية عن قناة السويس المستعادة والسد العالى الذى تم تشييده كانت ترمز إلى البلد الذى استعاد استقلاله وإلى دولة التنمية. وبعد انهيار الناصرية تحولت هذه التصاوير. وبالمقابل، فقد تصور السادات مستقبل مصر على أساس الاستهلاك والرخاء وقد عبر عنهما بقوله "هدف كل مصرى لا بد أن يكون امتلاك السيارة والفيلا" (إبراهيم ١٩٨٢: ٤٩، غنام ٢٠٠٢: ٢٨). وقد ارتبط الانفتاح، وهو أيقونة رئاسة السادات، بالتدفق غير المسبوق للسلع الاستهلاكية الأجنبية الضخمة (انظر، مثلاً، إبراهيم ١٩٨٢، أيوبى ١٩٨٢).

لقد أخلى الاحتفاء الناصرى بالطبقة المتوسطة المهنية فى الحضر، الممثلة فى المهندس والطبيب، مكانة للصور الأيقونية لمهنيين من الطبقة المتوسطة العليا فى المكاتب البالغة الحداثة للشركات ذات التوجه الدولى. وباعتبارهم القادرين على مجاراة المعايير القياسية الدولية وشغل فضاءات الشغل المتجاوزة للقومية فهم الذين ينظر إليهم باعتبارهم الممثلين المثاليين للطموحات العولمية للبلاد. وهم يؤدون وظيفة رمزية مماثلة لوظيفة " الطبقة المتوسطة الجديدة " الهندية التى نشأت، كما يقول فرنانديز " باعتبارها الجماعة القادرة على صياغة علاقات الهند الجديدة بالاقتصاد العولمى على أسس ثقافية واقتصادية، معًا، من الناحية الثقافية بتحديد معيار قياسى ثقافى جديد يستند إلى الممارسات الاجتماعية الرمزية للاستهلاك السلعى ومن الناحية الاقتصادية باعتبار

أن هذه الجماعة هى المستفيدة من المنافع المادية لـ " الاقتصاد الجديد" فى الهند " (٢٠٠٠: ٩١).

وطوال رمضان ٢٠٠٢ قدمت قنوات التليفزيون المصرى عديداً من الإعلانات بلقطاتها الجميلة التى صورت أحلاماً مماثلة بمصر النظيفة الميسورة والملائمة عولميًا. وتحدثت إعلانات كثيرة عن الحياة الأسرية المتوافقة والميسورة، التى يمكن أن تتحقق لو أن الإنسان استخدم نوعًا بعينه من الزيت أو الشحم الصناعى لإعداد الطعام[١٥]. وأوحت هذه الإعلانات بإمكانية الانضمام لصفوف الميسورين بمجرد شراء منتجات تبدأ بما هو متاح لتصل إلى كثير من مشروبات الزبادى الأجنبية وتنتهى عند الشقق والفيلات ذات الأسعار المستحيلة فى المجتمعات المغلقة المحيطة بالقاهرة. فلم تكن الإعلانات تخاطب المستهلكين من الطبقة المتوسطة العليا بما لديهم من موارد مالية تساعدهم على الانخراط فى استهلاك زاعق، فحسب، بل خاطبت أيضًا الطبقات الأقل ثراء التى قد يغريها التطلع إلى أساليب حياة كهذه. وقد أوحت هذه الإعلانات بأن أسلوب حياة الطبقة المتوسطة العليا قد يصبح متاحًا بشراء سلع استهلاكية موسومة بطابع الطبقة المتوسطة العليا. وبدت الأناقة والثروة فى القاهرة الراقية قريبتى المنال، تقريبًا.

هذه الإعلانات قامت بدور الدعوات الملتبسة إلى أساليب حياة حصرية ومتميزة لم تكن متاحة إلا لشريحة صغيرة من السكان، وكما سأحاول أن أوضح فى الفصول التالية، فقد كانت مرتبطة بالتميز المتجسد. كانت الدعوة تقول: حاول أن تكون هكذا، وحتى إن لم تنجح مطلقًا؛ لأن هذا هو مستقبل مصر. وترى إيما نويلا غوانو (٢٠٠٢) أن مثل هذا المزيج بين الإدراج والإقصاء مميز للواقع النيوليبرالى. فالقاهرة المتخيلة ومصر المستقبل محفزتان ومغريتان. فهما تطرحان انفتاحًا وإدراجًا ظاهرين فى وعد إقصائى أنيق وإن كان محملاً بنص فرعى عن المناقلة والإنكار. فعندما يؤديان محواً افتراضيًا للمطالب الشعبية بخصوص المدينة فإنهما يرجعان صدى المناقلات الثقافية والاجتماعية والمادية الفعلية ويبشران بها. ويسمح لنا المشهد الحضرى بلمحات من

بعض الاحتكاكات التى صحبت تخليق هذه القاهرة الميسورة الكوزموبوليتانية على نحو صارخ.

خلق فضاءات الإقصاء

وتروى مناقشة إيموانيلا غوانو (٢٠٠٢) لمظاهر السيطرة التى نشأت عن مشروعات التنمية الحضرية القريبة العهد فى بوينس آيريس قصة يمكن أن يكون لها مغزى قريب بالنسبة للقاهرة. فمع أزمة اقتصادية متصاعدة نزل كثيرون ممن كانوا، فيما مضى، من أعضاء الطبقة المتوسطة الراسخين إلى وهدة الفقر. وقد انقسمت الطبقة المتوسطة فى بوينس آيريس، انقساماً حاداً، إلى أقلية من المهنيين فى الطبقة المتوسطة العليا الذين كانوا قادرين على التكسب من مهن فى الاقتصاد الخدمى الجديد، وأغلبية يتزايد فقرها تعانى من تراجع الوظائف الحكومية والخدمات العامة. ونتيجة لذلك " تجسدت بوينس آيريس جديدة لتلبى احتياجات الطبقة المتوسطة العليا الصغيرة الحجم، وأهم من ذلك الطبقة العليا التى كانت تحصد ثمرات النيوليبرالية " (غوانو ٢٠٠٢: ١٨٤). ومن ملامح هذا المشهد النيوليبرالى الفصل المتزايد بين الفضاءات لخلق " مسافة آمنة " من الأعداد المتزايدة لساكنى الأحياء الفقيرة. وتدفع غوانو بأن هذا الفصل بين الفضاءات يصحبه إبهار عابر للقومية يتمثل فى مولات التسوق البراقة والتنمية العمرانية للشواطئ. ووفقاً لما تقوله غوانو فمشاهد الاستهلاك العابر للقومية هذه هى جزء من سعى للهيمنة النيوليبرالية. ففى حين تسعى هذه المشاهد لتلبية احتياجات الطبقات المتوسطة العليا والعليا فهى تخاطب، أيضاً، جمهوراً أقل ثراء ينتمى إلى الطبقة المتوسطة عبر " وهم الإدراج " (غوانو ٢٠٠٢: ١٨٥).

وتزعم غوانو أن الإصلاحات النيوليبرالية فى الأرجنتين تصب فى سرديات قديمة العهد حول الإقصاء عن العالم الأول والرغبة فيه على اعتبار أن كثيرين من أهل الطبقة المتوسطة يشعرون بأن الانتماء إليه هو حقهم المشروع. وقد اشتعل حماس أهل الطبقة المتوسطة فى الأرجنتين بالوعد النيوليبرالى بإعادة بلادهم إلى العالم الأول. ورغم أن الكثيرين انتقدوا البرنامج النيوليبرالى للحكومة فقد سعدوا، أيضًا، بالمواقع الحضرية الجديدة التى نظروا إليها باعتبارها علامات على إدراج جديد فى العالم الأول. وقد سمحت هذه التجسيدات العميقة لحداثة عابرة للقومية بأفعال الاستهلاك التخيلى، وبالنسبة للبعض اقتصرت عليها (غوانو ٢٠٠٢: ٢٠٢-٢٠٣).

وشأن الإعلانات المصرية التى نوقشت بأعلاه، فقد كمنت قوة المولات ومشروعات الترقية العمرانية(*) فى الإيحاء بالإدراج فى واقع استبعادى: أنيق وعصرى وعالم أولى، بقدر ما هو نخبوى ومحدود.

ويمكننا أن نقرأ المشهد القاهرى المتحول، على نحو مماثل، كما تم تصويره فى أشكال الحنين إلى إعادة أقلمة العالم الأول والرغبة فيه. وقد صيغت التراتبيات الاجتماعية، منذ عهد بعيد، عبر درجات من التآلف مع الخارج (بره)، مع فرنسا، أولاً، والآن مع الولايات المتحدة، قبل غيرها. لقد عادت الكوزموبوليتانية والتمتع بصلات "خارجية" تكتسبان مغزى واضحا، ليس فقط فى سوق العمل حيث رأس المال الكوزموبوليتانى يؤمن الوصول إلى وظائف برواتب جيدة نسبيا، ولكن أيضا فى الحياة الاجتماعية حيث أصبح رأس المال الكوزموبوليتانى علامة انتماء للطبقة المتوسطة العليا. فدوائر القاهرة الراقية تعطى شعورا بالانتماء العابر للقومية وتوحى بانقطاع وذاتية ينكران وجود الآخر المرتبط بحقائق واقعية أقل أناقة وأقل يسرا. وكما فى

(*) gentrified real estate أوضح أمثلتها أبراج نايل سيتى فى روض الفرج فى القاهرة. (المترجم)

بوينس آيريس فيبدو أن هذه الدوائر " تجسد قصة عن الحداثة العابرة للقومية حيث تصبح امتيازات الأقلية مبعث فخر الجميع " (غوانو ٢٠٠٢: ٢٠٣) لكن هذه الفضاءات الكوزموبوليتانية، وعلى خلاف ما دفعت به غوانو فيما يخص بوينس آيريس فهذه الفضاءات الكوزموبوليتانية تكاد لا تلتفت إلى المحرومين من أعضاء الطبقة المتوسطة القاهرية.

فالمحاولات التى تستهدف إغراء أقسام أكبر من الطبقة المتوسطة القاهرية باعتناق البرنامج النيوليبرالى تسير ببطء. وتعد الإعلانات التى سبقت مناقشتها من أوضح الأمثلة على ذلك، وكذلك حث الحكومة المواطنين على تعلم " الإنكليزية " و"الكمبيوتر" كما توضح المناقشة فى الفصل الثالث. وفى حين أن مطاعم الوجبات السريعة والمولات الأقل حصرية (أباظة ٢٠٠١) تؤمن خبرات استهلاك كوزموبوليتانى متاحة لجمهور أقل ثراء، فمعظم هذه الفضاءات الكوزموبوليتانية الصارخة مغلقة على ذاتها، ومتموضعة فى مناطق راقية وتستهدف، حصريًا، أولئك الذين بوسعهم أن يكونوا جزءا من الجمهور الكوزموبوليتانى الراقى. وبالتالى فإن قطبية توزيع الدخول فى القاهرة تنتج أساليب للحياة وفضاءات تتزايد تمايزًا، "داخل فضاء مدينى" تتزايد الفوارق الطبقية فيه على نحو مطرد. فالمدينة العولمية الباهرة والحصرية تتجسد، فى المقام الأول، من خلال أشكال جديدة من الفصل الاجتماعى والمكانى.

والقاهرة، منذ عهد بعيد، تضم تشكيلة واسعة من المناطق المتمايزة اقتصاديا واجتماعيا. من الطبقة المتوسطة العليا القديمة فى المعادى ومصر الجديدة والزمالك إلى مناطق الطبقة المتوسطة فى شبرا والمنيرة وهما المنطقتان اللتان أصبحتا أكثر ارتباطا بالطبقة المتوسطة الدنيا. أما المناطق الأحدث مثل المهندسين ومدينة نصر فتضم طبقة وسطى صاعدة، فى حين أصبحت المجتمعات المغلقة حول القاهرة المقصد المفضل للقاهريين من الطبقة المتوسطة العليا[١٦]. وفى أواخر التسعينيات من القرن الماضى

أشارت التقديرات إلى أن نصف سكان القاهرة يعيش فى " عشوائيات " وهى مناطق الطبقة المتوسطة الدنيا غير المخططة أو غير المرخصة والتى تتميز بدرجة عالية من الإسكان غير المرخص والمهن غير الرسمية لسكانها (بيات ودينيس ٢٠٠٠: ١٩٧). ورغم هذه الفروق المهمة بين مناطق حضرية كهذه من حيث الشروط الاجتماعية - الاقتصادية، وكذلك الثقافية، من وجهة نظر يصر عليها كثير من القاهريين، فإن كل منطقة تضم سكانا متنوعين. فحتى فى منطقة الطبقة المتوسطة العليا مثل الزمالك يوجد سكان من الطبقات الدنيا ومحال ومقاه شعبية، فى حين أن منطقة شعبية مثل الحسين تؤوى بعض رجال الأعمال الموسرين (سينغرمان ١٩٩٧: ٢) وتشبه القاهرة، من هذه الناحية، مدنًا مثل بومباى ودلهى حيث " اعترض وجود مغتصبى المنازل المهجورة وصغار أصحاب الأعمال مثل الخياطين والإسكافيين والباعة الذين تعاظم انتشارهم فى الأحياء الغنية لتأمين الخدمات لساكنيها من الطبقات الوسطى والعليا، تاريخيا، عمليات التمييز (التى قسمت المدن إلى أحياء أغنى وأخرى أفقر) " وفقا لفيرنانديز " (٢٠٠٤: ٢٠-٢٤). ويدفع فيرنانديز بأن هذه النماذج المكانية يتم تجاوزها، على نحو متزايد، لصالح " جماليات حضرية تقوم على رغبة الطبقة المتوسطة فى إدارة الفضاء الحضرى على أساس أشكال الفصل الصارم بين الطبقات" (المرجع السابق) ويجد بيات ودينيس اتجاها مماثلا إلى الفصل المكانى فى النمو الموازى للمجتمعات الحصرية المغلقة والعشوائيات على هوامش القاهرة (١٩٩:٢٠٠٠) وكما قال دينيس قبل فترة قصيرة فإن " هدف السياسات الحضرية الجديدة هو مكافحة المزج بين العناصر المتنافرة ومحو التنوع وتجريم الكثافة والمزج والتقارب " (٢٠٠٦: ٦٧).

صورة: شارع الغورية بالقاهرة الفاطمية

والأحياء الحصرية المغلقة فى الصحراء المحيطة بالقاهرة[١٧] هى التعبيرات الأكثر وضوحا عن الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر. فهذه المجتمعات المغلقة - الكومباوندات بالتعبير المحلى - هى وعد بحدائق خضراء مورقة ومساكن مضيئة

ومريحة وأنيقة، تتنوع بين شقق وفيلات، وسط هدوء الصحراء. وهى تمثل مهربا من ازدحام العاصمة وتلوثها وندرة البيوت الملائمة ذات الثمن المعقول فى المناطق "المحترمة" والأهم هو الهرب من غزو الفئات المنتمية إلى "مستويات اجتماعية" أدنى (كوبنجر ٢٠٠٤). وهذه المجتمعات المحصورة والمحصنة التى ظهرت، لأول مرة، فى الولايات المتحدة تزايد ظهورها باعتبارها ملمحًا مشتركًا للتنمية الحضرية فى مختلف المدن حول العالم. ويشير الحجم الكبير من الأدبيات المتعلقة بالموضوع إلى اتجاه نحو "الفصل الكلى بين الفضاءات وتحصين الطبقات المتوسطة والعليا والإهمال المتزايد للفضاءات المشتركة القديمة ومعها السكان من الطبقات الأدنى المقيمة فيها (كوبنجر ٢٠٠٤: ٤٠، لو ٢٠٠١).

وقد أعلن عن الكومباوندات القاهرية باعتبارها أرض الأحلام(*) المتجانسة اجتماعيا والنظيفة والرحبة والخضراء (كوبنجر٢٠٠٤) ويمكن النظر إلى منتجعات العطلات على الساحل الشمالى والبحر الأحمر باعتبارها السلف الذى يسبق كومباوندات القاهرة، بشكل مباشر (انظر كول والتركى ١٩٩٨). فهذه المنتجعات التى شيدت فى الصحراء تمثل بيئات رحبة ومسيطر عليها تماما. وفى حين أن ملاكها غائبون معظم العام فإن فيلاتهم وشققهم يخدمها عاملون متنوعون أهمهم الجناينى (البستانى) المسئول عن الحدائق الدائمة الخضرة والمليئة بالزهور، فى قلب الصحراء. ولا يسمح بالدخول إلا لحملة الكارنيهات. ويمكن للمرأة، إذا شاءت، أن تستمتع بنزول البحر فى البيكينى حيث إن أولئك الذين لا يعلمون كيفية التعامل مع التعرى المحترم يجدون أنفسهم فى موقع المدافع عن نفسه. فى هذه الجزر الصحراوية يمكن للمتيسرين من أهل الحضر تحقيق أحلامهم المستحيلة: فبوسعهم الاحتماء من الغبار والضوضاء والكتل البشرية المرتبطة بهذه الأوضاع غير المريحة فى واقع الحياة

(*) dream land ربما لا تعلم المؤلفة أن هذه الصفة هى اسم واحد من أشهر هذه الكومباوندات. (المترجم)

الحضرية (oncu 1997 عن أسطنبول). فهذه تجسيدات لأحلام محكوم عليها بأن لا تتحقق، أبدًا، فى العاصمة الكبيرة.

وتزعم حكايا الحنين إلى الماضى أن هذه كانت طبيعة الأمور فى أحياء النخبة مثل الزمالك ومصر الجديدة، أى قبل أن تغزوها الحشود وقبل إسقاط الامتيازات فى عصر عبد الناصر (دينيس ١٩٩٧). ورغم أن هذه الأحياء ما زالت موسومة بالنخبوية فقد أصبحت مزدحمة، على نحو متزايد، مع هدم الفيلات، واحدة إثر الأخرى، لتفسح المجال للعمارات السكنية المرتفعة. وقد أصابها، إلى حد ما، ما أصاب حى وسط البلد النخبوى العتيق. وكما يقول باتيستى: منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف العشرين فإن وسط البلد ظل مقصد النخبة البورجوازية التى كانت تذهب للفرجة على مجمعات التسوق والحدائق والمتنزهات، فى ملابس أنيقة وفى حماية المظلات الصغيرة المحمولة. لكن وسط البلد تغير عما كان آنذاك ليصبح مكانا شعبيا مزدحما يقصده نوع مختلف من الناس للتمشية والفرجة على الواجهات الزجاجية للمحال التجارية وعلى الناس " (٢٠٠٦: ٥٠٢). فمنتجعات العطلات والكومباوندات تؤمن مهربا للنخبة مما آلت إليه القاهرة: كمكان لا يمكنهم السيطرة عليه وتشكيله وفقا لأفكارهم عن الذوق والنضج والحياة الطيبة، إلا فى حدود. فهم معزولون عن محيطهم المباشر، فالسيطرة على البوابات تخلق موئلا أخضر مسالما بشكل كامل ومتجانسا من الناحية الاجتماعية وراء الأسوار. فهذه مصر النظيفة والمنظمة التى يسكنها أناس أثرياء بعيدون عن ما يلح على تذكيرهم، فى أحوال أخرى، بأحوال مصر الأخرى. هذه مصر التى لا تنتمى للعالم الثالث. ولا حاجة بنا إلى القول بأن البوابات هى شرط مسبق لهذه المحميات.

ويدفع إيريك دينيس بأن انتشار الكومباوندات يؤذن باختفاء المزيج الاجتماعى الذى كان السمة المميزة للحياة القاهرية فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. "العقبة الليبرالية الجديدة فى القاهرة فى تسعينيات القرن العشرين هى رجع الصدى لاتجاهات ما قبل ١٩٥٢ عندما نشأت ضواح أنيقة وحصرية مثل مصر الجديدة على

أرض جديدة بعيداً عن مدينة كانت عامية ويصعب إصلاحها بدرجة بالغة (دينيس ١٩٩٧: ١٠) ووفقا لما تقوله تيريزا كالديرا فهذه الفضاءات المحصنة تمثل تحولا سياسيا مهما على اعتبار أن هذه الفضاءات الجديدة تهيكل الحياة العامة على أساس تفاوتات حقيقية: فالفروق لن يتم تجاهلها، أو النظر إليها باعتبارها غير ذات أهمية، لتبقى دون أن يلتفت إليها أحد، أو لتبقى مموهة لصالح أيديولوجيات المساواة الشاملة أو خرافات التعددية الثقافية السلمية. فالبيئة الحضرية الجديدة تفرض التفاوتات والانفصالات " (٢٠٠٠: ٣٣١).

وخلال سنوات قليلة، يقال إن المساحة المبنية فى القاهرة تضاعفت وكان ذلك، إلى حد بعيد؛ نتيجة لانتشار هذا النوع من الكومباوندات وكذلك الفنادق والمستشفيات الخاصة ومناطق الترفيه المجاورة لها (ميتشيل ٢٠٠٢: ٢٧٣). وقد تكون هذه الكومباوندات أكمل أشكال التعبير عن المحاولات الواسعة الانتشار لخلق البيئة المثالية لحياة نظيفة ومنظمة وراقية وحصرية وسط الهيولى والازدحام والفقر فى العاصمة.

أحلام عولمية

والإصلاحات النيوليبرالية الجديدة فى مصر يشيع تصويرها على أنها تدخلات سلبية ": تخفيضات الموازنة، تقليص تدخل الدولة فى الاقتصاد والمجتمع، وتآكل العقد الاجتماعى الذى وضع فى عهد عبد الناصر. لكن هذه السياسات "السلبية " هى وثيقة الصلة بسرديات جديدة عن التقدم الوطنى والاستثمارات الملازمة له. وقد أصبح المهنيون من الطبقة المتوسطة العليا المتمتعين برأسمال كوزموبوليتانى أبطال هذه الخطاب الجديد من التقدم الوطنى وأصبحت القاهرة الملائمة عولميًا بيته الطبيعى. والإعلانات المصرية للاتصالات ومؤسسة جيل المستقبل مشبعة بهذه الخيالات الوطنية الجديدة التى ترسم صورة لقاهرة متماسكة وملائمة دوليًا. بل منتمية للعالم الأول. تخطى رسالاتها البصرية على الممارسات والحيوات الحضرية الفعلية. وهذه الإعلانات

تزود القاهرة بهالة جذابة ذات مستوى عالمي، وإن كانت تحمل نصًا فرعيًا عن الحضرية والإبعاد. وقد تجسدت أحلام ورغائب مماثلة في دوائر القاهرة الراقية. فالكومباوندات في الصحراء المحيطة بالقاهرة تمثل أكمل تجسيدات هذه الأحلام التي تخلو من كل ما يلح على الذاكرة بحقائق واقعية أخرى في مصر.

والأحلام التي تدور حول العولمي تتمص بعولمة الاقتصاد وبالإصلاحات النيوليبرالية التي تهدف إلى الاندماج في الشبكات الكونية وإلى محاولة تشكيل المدينة في صيغة عولمية. وهذا السعي إلى مركز المدينة العولمية يرجع إلى الأهمية المتزايدة للمدن في الشبكات الاقتصادية الكونية وأيضًا إلى ما يتصل بذلك من "سعي إلى العولمي" الذي تعبر عنه المشروعات الحضرية المحترمة. وفوق ذلك، وكما تقول غرانو (٢٠٠٢) فهذه المشروعات تستلهم على نحو ملموس عناصر قديمة بالاستعانة من رغد العالم الأول وتعقيده والعضوية فيه، والتلهف على كل ما هو... وتشي مواقع من قبيل الكومباوندات الحصرية أو هايبر ماركت كارفور الجديد أو محال الكوفي شوب الراقية العديدة بالدخول في ممارسات العالم الأول النخبوية وأساليب حياته.

والإغلاقات والمناقلات الافتراضية في الإعلانات لها ما يناظرها في الأشكال المادية للإغلاق والمناقلة في المشهد الحضري. وتزيح السياسات النيوليبرالية العقد الاجتماعي التنموي الناصري نحو التقادم، بشكل متزايد. وقد تم التخلي عن أحلام التنمية الوطنية التي من شأنها ضم أعداد متزايدة إلى الحركة التسارعية للأمة. ودفعت أقسامًا كبيرة من السكان إلى هوامش سرديات التقدم الوطني وتركت المناطق الحضرية التي يسكنونها ليتصرفوا فيها في حدود طاقاتهم. وفي الوقت ذاته أنشأت مشروعات الدولة والقطاع الخاص مواقع تنسب نفسها إلى المعايير القياسية الدولية ويمكن لها أن تنافس محلات في العالم الأول في الأناقة والفخامة. وهذه الأحلام بقاهرة عولمية محجوزة لقلة من سكان المدينة. وقد أسفر البحث عن العولمي عن مشهد حضري يتزايد انقساماً وعن مؤشرات للانتماء ذات طابع تفريقي.

الفصل الثانى

التربية الطبقية

المؤسسات التربوية الخاصة العديدة التى تتباهى بمستواها الغربى والتى بوسعها حتى أن تمنح طلابها درجات علمية غربية هى علامات مهمة على طريق الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر شأنها شأن الأبنية الإدارية الشامخة على امتداد النيل، أو الطريق الدائرى حول القاهرة، أو المولات الفائقة النظافة التى تعرض ملابس أنتجها مصممون غربيون بأسعار ليست فى المتناول. والغرض من المعارف والدرجات العلمية الغربية التى تمنحها هذه المعاهد الجديدة الوصول إلى الرأسمال الثقافى المطلوب كما أنها تمثل أصولا مهمة فى سوق العمل الحضرية. وفيما كانت سياسات العهد الناصرى موجهة نحو خلق طبقة متوسطة متعلمة عريضة فإن سياسات وسرديات الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر تؤكد على المعايير القياسية وعلى الامتياز بمفهوم عولمى، وهو ما يمكن أن تتطلع إليه القلة للتميز الاجتماعى ولنوع الحراك الاجتماعى الذى يمكن للمرء أن يتوقعه. والازدواجية المتزايدة فى طبيعة نظام التعليم تخلق عمليات الفصل فى الطبقة المتوسطة القاهرية وترسخها وتعززها. وأنا أفحص فى هذا الفصل العلاقات الوثيقة بين التربية والطبقة، وأستكشف كيف أسهمت التحولات فى النظام التربوى فى الانقسامات الاجتماعية - الثقافية وفى التمايزات الجديدة فى الطبقة المتوسطة المهنية فى القاهرة. وأبدأ برسم صورة تبسيطية لمعنى أن يكون المرء من الطبقة المتوسطة فى القاهرة.

أن تنتمى للطبقة المتوسطة فى مصر

وترتبط التراتبيات الاجتماعية فى مصر ارتباطًا قويًا بالمزج بين الطبقة والثقافة وبالمزج بين التميز الاقتصادى والمنزلة الاجتماعية - الثقافية. وغالبًا ما تأخذ

الصراعات على المراتب والامتيازات شكل تدافعات رمزية حول الجدارة الاجتماعية والثقافية (آرمبراست ١٩٩٩، ١٩٩٦). وتكشف المصطلحات التى يستخدمها القاهريون من الطبقة المتوسطة، عند الحديث عن الطبقة، الطرائق المعقدة التى تمتزج عبرها الطبقة بالثقافة. وكلمة " طبقة " العربية تستخدم بدرجة تزيد أو تقل من الحيادية للإشارة إلى التجمعات الاجتماعية - الاقتصادية. لكن المصطلح الأكثر شيوعًا عند الحديث عن التمايز الاجتماعى هو " مستوى" ويعنى به المستوى الاجتماعى أو الثقافى، وهى إشارة إلى شرائح التمايز الاجتماعى المحددة تحديداً غير دقيق والتى تستدعى مزيجًا من خواص اقتصادية وثقافية. وقد فسر لى أحد المهنيين المنتمين إلى الطبقة المتوسطة، وهو فى نهاية العشرينيات من عمره، على سبيل المثال، حدوث المغازلات والتحرش أو المعاكسات على أساس المستوى الاجتماعى الاقتصادى ودفع بأن المعاكسات أقل حدوثًا، بكثير، بين من يسميهم، بكثير من الاحترام، الناس من "مستوى راق". وقد ساوى بين الموقع الطبقى الراقى وبين المستوى المرتفع من التعقيد الثقافى. وكان تعليقه تكراراً لافتراضات شائعة عن الصلة المعقدة بين الامتياز الاجتماعى - الاقتصادى والتفوق الثقافى. وفى دوائر الطبقة المتوسطة العليا تستخدم الكلمة الإنكليزية "كلاس class" على نحو مشابه. فهى تستخدم لوصف الأماكن والأشخاص والأشياء كإشارة إلى الأناقة والتميز. ويؤمن التناقض بين المحلى والواضح والكوزموبوليتانى الصارخ فى الاتجاهات، وبين " التقليدى " و" الحديث " من الطبائع محاور مركزية للطريقة التى يجرى بها تأسيس التراتبيات الاجتماعية - الثقافية.

وكما بينت فى المقدمة فالادعاء بالمعرفة الكوزموبوليتانية وبالاتصال مع " الخارج " هو من العلامات الأولية للانتماء النخبوى، منذ عهد بعيد، كما أن الارتباط العميق بالبلد والطابع المحلى والأصالة هى ما يحدد ما يدعى " الطبقات الشعبية " أو الشعب. ويعكس المخزون الألسنى المستخدم للحديث عن "الشعبى" من العادات وأساليب الحياة

هذا العالم من الدلالات[١٨]. ويمكن استخدام المصطلح " بلدى " ومعناه الحرفى محلى/ قطرى لوصف كل ما هو ومن هو محلى وغالبًا من الطبقات الدنيا. ويمكن أن تكون للمصطلح أيضًا دلالات إيجابية للإشارة إلى ميزات مرتبطة بالأذواق القديمة فى المنتجات الغذائية، وعندما يتعلق الأمر بالناس فهى تعنى الأصالة والاستقامة. والمصطلح " شعبى " الذى يعنى " رائج " أو " جماهيرى " يعنى هو أيضًا الأشياء والأشخاص المرتبطين بالطبقات الدنيا - من الأحياء الشعبية إلى الناس والأذواق والأغذية. لكن " شعبى" تنطوى على قليل من الدلالات الإيجابية التى فى المصطلح "بلدى".

فمصطلحات من قبيل بلدى (محلى) أو شعبى (جماهيرى) هى مصطلحات مركزية فى تصورات الطبقة المتوسطة عن المجتمع المصرى وعن المشهد الحضرى فى القاهرة. فهذه المصطلحات تستدعى مشهداً من كتلة جماهيرية سوقية ومحلية على نحو معلن وأذواقًا أصيلة مقابل أساليب حياة معقدة وحديثة وملائمة. وغالبًا ما ينظر إلى هذه التقسيمات على أنها تفصل بين الطبقة المتوسطة المهنية والآخرين من الطبقات الدنيا. وفى دراسة له عن الحداثة والثقافة الجماهيرية فى مصر يدفع والتر آرمبراست بأن التربية والتثقيف هما جزء من " حداثة محافظة " مسيطرة، حيث تلعب الطبقة المتوسطة التى هى مستنيرة وحديثة وإن كانت باقية على أصالتها الدور الرئيسى. فمن المفترض أن تتجنب الطبقة الوسطى الثقافتين الطبقيتين المنقوصتين لكل من الأغنياء والفقراء. ويرأى آرمبراست (١٩٩٩: ١١٢) فإن " الفقراء موضع ريبة بسبب " عجزهم " عن تكييف حياتهم مع المؤسسات الحديثة، فى حين أن الأثرياء موضع ريبة بسبب كوزموبوليتانيتهم المنبتّة عن الطرف الآخر للطيف الاجتماعى - الاقتصادى. وفى هذا الخطاب الحداثى فإن اللاعب الرئيسى المنتمى للطبقة المتوسطة الخبير بالتراث وبالحداثة معا، ينخرط على نحو مميز فى تحالف مع المصريين المستمسكين بمصريتهم وإن كانوا أقل تطوراً، وفى هذا السياق يرتفع بهم من حالتهم التى هى أصلية وإن

كانت فى جوهرها متخلفة (آرمبراست ١٩٩٦: ١٠٠، أبو لغد ٢٠٠٥: ٦٠). ويرسم آرمبراست صورة تبسيطية كاشفة لمعنى أن يكون المرء منتميا للطبقة المتوسطة فى القاهرة.

(الطبقة المتوسطة) ليست المعادل لمستوى مادى من العيش. لكن هناك مواقف وتوقعات معينة يشيع ربطها بمثل الطبقة المتوسطة. فالمصريون الذين يملكون على الأقل تعليماً ثانوياً، وبالتالى معرفة أولية بالقراءة والكتابة وخبرة بكيفية عمل المؤسسات الحديثة يعتبرون أنفسهم عموماً من الطبقة المتوسطة. والمصريون الذين يعتبرون أنفسهم طبقة متوسطة يتوقعون أسلوب حياة متحرراً من العمل اليدوى. ويرتبط مثال الطبقة المتوسطة فى الميديا، غالباً، بالحداثة والبيروقراطية والعمل المكتبى ويصور على أنه يمتلك درجة من التآلف مع أيديولوجية تتصل بالهوية الوطنية التى تسعى للموازنة بين المرجعيات الثقافية المحلية المصرية وتلك الكلاسيكية الإسلامية (١٩٩٩: ١١١)

وكما يبين آرمبراست فتحديد هوية الطبقة المتوسطة يعتمد على التعليم. وهو وثيق الاتصال بالعهد الناصرى الذى شهد مقرطة التعليم والنمو الهائل لبيروقراطية الدولة التى أمدت الخريجين بالوظائف المكتبية. وفى عهد عبد الناصر كانت السياسات التعليمية الجديدة تعد الوصول إلى التعليم حتى المستوى الجامعى مجاناً، مع مركز حكومى مضمون بعد التخرج فى معهد عال[١٩]. كان التعليم والوظيفة المكتبية يبدوان فى متناول كل الأسر القادرة على تحمل تعليم أطفالهم حتى المستوى الجامعى. وأصبح التعلم حلماً مشتركاً على نطاق واسع. وتضاعف معدل الالتحاق بالتعليم، على كل المستويات، ثلاثة أضعاف بين ١٩٥٢ و ١٩٧٠ (مينا ٢٠٠١: ٣٢).

وأصبح المهندس بطل المشروع التنموى الناصرى. ويدفع مور بأنه فى الخمسينيات تزايد اعتماد النظام الناصرى على المهندسين لإدارة جهاز الدولة والقطاع العام المتناميين، ورافق ذلك تنامى احترام المهن الهندسية. وحتى بعد أن ركد التصنيع وهزت الزيادة فى أعداد المهندسين المركز الراسخ لهذه المهنة فقد بقى احترامها (مور

١٩٩٤: ٤٣-٤٤). وتستعيد سيدة فى منتصف العمر من أسرة ميسورة من الطبقة المتوسطة بإعزاز الوعد الناصرى بالحق فى التعليم وبالحراك الاجتماعى. وكررت الصورة التى شاعت الإشارة إليها حتى ابن البواب كان بوسعه أن يصبح مهندسًا. وغالبًا ما يستخدم شخص البواب الذى يعيش مع أسرته (أو مع أسرتها) فى غرفة مظلمة عفنة أسفل بناية سكنية للطبقة المتوسطة أو المتوسطة العليا كرمز لأشد الناس ضعة. وبالتالى فإن صورة ابن البواب الذى يصبح مهندسًا تمثل نشوء مسالك جديدة للحراك الاجتماعى ووجود شعور بالعدالة الاجتماعية فى الحقبة الناصرية. وبإحساس حاد بالمفارقة أضافت " قد يصبح مهندسًا لامعًا، لكن هذا لا يعنى أنى أقبل أن أزوجه ابنتى". ويشير تعليقها إلى بعض التوترات بين وجود مسالك جديدة للحراك الاجتماعى ومواصلة الاهتمام بالوسط العائلى وبالتراتبيات الاجتماعية الأقدم. وقالت " تخيل أنه سيتعين على أن أجالس أباه البواب وزوجته".

ومن الواضح أنه فى الستينيات كان بوسع كل أحد أن يحلم بحياة الطبقة المتوسطة التى كانت تعد الحياة العصرية، وفوق كل شىء آخر، النظيفة. والنظافة مصطلح متعدد الدلالات يمكن أن يحتوى كل شىء من الصحة العامة والنظام إلى غير اليدوى و " المستوى الاجتماعى " للشخص. وترتبط النظافة / بهذا المعنى، ارتباطًا وثيقًا بالانتماء إلى الطبقة المتوسطة أو بالتطلع إليها.

والانتماء للطبقة المتوسطة يعنى مسافة آمنة من الوظائف الحقيرة والمتردية اجتماعيًا وتوقع مستوى معيشى مستقر وإن كان متواضعًا. ويرمز هذا الانتماء، أولاً وقبل كل شىء، إلى التحرر من السخام والغبار المرتبطين بمعيشة الطبقات الأدنى.

وعندما سمع عدد لا بأس به من أصدقائى من مثقفى الطبقة المتوسطة باهتمامى بالطبقة المتوسطة القاهرية نعوا إلى موتها فى مصر. وقالوا بأنه لم يعد للوسط وجود فى المجتمع وأنه لم يبق إلا الفقراء والأغنياء. وهذه الملاحظات لفتت الانتباه إلى التدهور الحاد فى المستوى المعيشى الذى يعانيه معظم القاهريين من الطبقة

المتوسطة. وبرغم هذه الملاحظات تبقى فئة " الطبقة المتوسطة" بارزة، من الناحية الإثنوغرافية، فى مصر. وإذا حسبنا الموضوع بالتصنيفات المقبولة محليًا التى تربط الانتماء للطبقة المتوسطة بالإنجاز التعليمى، فإن الطبقة المتوسطة قد واصلت نموها، بالفعل. فمستويات الانخراط فى التعليم العالى مستمرة فى الارتفاع، حتى بعد أن جرى تقليص أو إلغاء كثير من برامج تعزيز إنشاء طبقة متوسطة متعلمة، بعد التحول إلى الليبرالية الاقتصادية فى منتصف سبعينيات القرن العشرين. ورغم أن البلاد لا تزال موسومة بمعدل أمية عال وأن أعدادًا كبيرة تتسرب من التعليم الأساسى، فلمصر حصة كبيرة من طلاب التعليم العالى، تمثل قرابة عشرين فى المائة من السكان فى سن التعليم الجامعى[٢٠]. لكن هذه الأعداد المتزايدة فى المهنيين المتعلمين واجهوا تراجعًا فى فرص تحقيق توقعاتهم المرتبطة بالطبقة المتوسطة والتى تتمثل فى وظيفة نظيفة وأسلوب حياة مريح وإن كان متواضعًا (أمين ٢٠٠٠: ٣٦ – ٣٧). ورغم أن الطبقة المتوسطة كفئة اقتصادية واجتماعية – ثقافية ما زال لها مغزاها فى القاهرة، فإن أعدادًا كبيرة من السكان المتعلمين يعيشون تدهورًا فى مستوى معيشتهم. فحديثو التخرج فى الجامعات يجدون صعوبة فى العثور على وظيفة، بله وظيفة مجزية تتناسب وإنجازاتهم التعليمية. وقد تشظت الطبقة المتوسطة المهنية، على نحو متزايد، من حيث القدرة الفردية على الحصول على أجر وكذلك من حيث رأس المال الثقافى وأسلوب الحياة؛ إذ يرتبط الأخير، غالبًا، بالأول على نحو معقد. وقد لعب التعليم دورًا فى تمفصل هذا التشظى.

تعليم أمة

التعليم فى القاهرة هو مستودع مركزى للاستثمارات العاطفية والمالية فهو ينطوى على وعد بالحراك الاجتماعى، ليس فقط من حيث المسيرة المهنية ومستوى المعيشة، ولكن أيضا من حيث المركز الاجتماعى. والنظام التعليمى هو أيضًا رمز لدولة معينة

ولمجتمع ولأمة، على الأقل فى مصر التى لا تزال تتذكر أحد أرفع رموز وإنجازات ثورة ١٩٥٢: التعليم المجانى للجميع حتى المستوى الجامعى. ويؤمن النظام المصرى ست سنوات من التعليم الأساسى (الابتدائى) تتبعها ثلاث سنوات من التعليم التحضيرى (الإعدادى). وتنتهى كل مرحلة تعليمية بامتحان عام تتقرر فيه إمكانية الالتحاق بالمرحلة التالية. ويجرى توجيه أصحاب الدرجات الأدنى فى امتحانات الإعدادى إلى التعليم الثانوى الفنى، ويمكن للحاصلين على درجات مرتفعة مواصلة تعليمهم الثانوى العام الذى يتيح لهم، فى ضوء الدرجات التى يحصلون عليها فى الامتحان العام النهائى، الوصول إلى الجامعة (برنامج الأمم المتحدة الإنمائى ١٩٩٩)

وقد كان التعليم العام محدوداً فى بدايات القرن العشرين، خاصة على المستوى الثانوى، وكانت مصروفات التعليم تقصر فرص الدخول على الأسر الأكثر ثراء. ورغم الإعلان عن أن التعليم الأولى إجبارى ومجانى فى ١٩٢٣ ورغم أن التعليم الثانوى مجانى منذ ١٩٥٠ فإن مقرطة التعليم لم تنطلق إلا فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين (كوتشران ١٩٨٦). وإضافة إلى التعليم الثانوى العام كانت هناك مدارس أجنبية خاصة تدرس غالبية المنهج بلغة أجنبية، خاصة الفرنسية أو الإنكليزية. ومنذ سنة ١٩٣٤ وما بعدها أخضعت مدارس اللغات الأجنبية هذه للإشراف الذى كانت تتزايد شموليته لوزارة التربية وتعين عليها أن تتبنى مناهج دراسية حكومية. لكن هذه المدارس واصلت، رغم ذلك، تدريس جانب رئيسى من المنهج باللغات الأجنبية (المرجع السابق).

وبعد ثورة ١٩٥٢ اتسع التعليم العام على نحو دراماتيكى. ورغم أن جودة التعليم تغيرت على نحو محسوس، فقد بقى عدد من المدارس الحكومية ذات السمعة فى القاهرة والإسكندرية يمثل ذروة التعليم فى البلاد. وفى إطار اشتراكية عبد الناصر العربية اهتم النظام التعليمى بالعربية. وأصبح وجود اللغات والمناهج الأوربية هامشياً فى نظام تعليمى هيمنت عليه المدارس العامة (الحكومية). ورغم ذلك فقد بقيت المدارس

الخاصة بجمهورها الأكثر تميزًا ومناهجها التى تدرس باللغات الأوربية طريقًا للتميز بالنسبة للبعض. وفى ظروف تدهور اقتصادى فى نهاية السبعينيات بدأت الحكومة تحفز الاستثمارات الخاصة فى التعليم. وفى الوقت ذاته، ومع تراجع جودة التعليم الحكومى بدأت هيمنة المدارس الحكومية تتراجع. وفى حين بدأ الإنفاق على المدارس الحكومية يتراجع انتعشت مشروعات التعليم الخاص (نوير ٢٠٠٠) وبفضل وجود آلاف العاملين المصريين المهاجرين فى الخليج كان هناك تدفق كبير للتحويلات وهو ما أعطى قوة مالية محسوسة لأقسام من السكان. وعلى الصعيد المحلى جاء الانفتاح بالثراء إلى الذين تمكنوا من التكسب من النفوذ المتزايد للقطاع الخاص ومن انفتاح البلاد أمام الواردات. وهكذا أصبح بوسع عدد متزايد من الأسر القاهرية دفع مصروفات التعليم الخاص.

ورغم أن تفضيل التعليم الخاص على العام شاع فى الأوساط الغنية أولاً، فسرعان ما بدأ يصبح تطلعًا شائعًا فى دوائر الطبقة المتوسطة خاصة فى القاهرة. وفى ١٩٩٩/٢٠٠٠ كان عشرون فى المائة من طلاب الثانوية العامة القاهريين فى مدارس خاصة، مقابل ٨٫٥ فى المائة على المستوى القطرى [٢١].

وتوضح قصة مروة هذا التحول. كانت مروة فى منتصف العشرينيات من عمرها وتعمل صحفية براتب جيد فى صحيفة أسبوعية ناطقة بالفرنسية. هى نفسها تنتمى لأسرة متواضعة اقتصاديا، لكنها تعلمت فى مدرسة فرنسية. وفى مطالع السبعينيات اتهم والداها، اللذان كانا مدرسين ودخلهما متواضع، بأنهما استعراضيان عندما قررا إدخال أختها الكبرى إلى مدرسة راهبات فرنسية كاثوليكية. وعندما دخلت مروة المدرسة ذاتها فى مطالع الثمانينيات كان التعليم فى مدارس اللغات الخاصة قد أصبح ممارسة شائعة بين أسر الطبقة المتوسطة.

ولم يكن دخول مدرسة كاثوليكية فرنسية أمرًا غير معتاد بين الأسر ذات المؤهلات العالية والدخول المتواضعة. وبالنظر إلى ضيق ذات اليد استقر والدا مروة على خيار ذكى. وكانت هذه المدارس ولا تزال بين أرخص مدارس اللغات وتتمتع، عمومًا، بسمعة

طيبة. وقد انتهى مسار مروة التعليمى إلى مركز قوى فى سوق العمل فى تسعينيات القرن الماضى عندما دخلت الشركات الأجنبية السوق المصرية وطلبت الشركات المصرية الخاصة هى أيضًا خريجى مؤسسات التعليم الخاصة ممن يجيدون اللغات الأجنبية. وقد ارتفع الطلب على الإجادة التى اقتربت من مستوى الإجادة المميز لمن كانت لغتهم الأم هى الفرنسية وعلى المهارات الإنكليزية المعقولة لهؤلاء الخريجين الشبان من أصول تنتمى إلى الأنساق المتواضعة فى الطبقة المتوسطة.

وقد كان التعليم الحكومى فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى الطريق الرئيسى إلى الحراك الاجتماعى وإلى مسيرة مهنية مضمونة وإلى مركز فى الطبقة المتوسطة. ومنذ السبعينيات وما تلاها أدى تدهور الجودة فى نظام التعليم الحكومى والاتجاه إلى الليبرالية الاقتصادية إلى نمو متسارع للتعليم الخاص من الحضانة إلى الجامعة وما بعدها. وسرعان ما تطور نظام التعليم إلى نظام ثنائى تتولى فيه المدارس الحكومية المكدسة بالتلاميذ تأمين التعليم للغالبية العظمى، فى حين تتجه الأقلية إلى دفع نفقات تعليمها فى مدارس خاصة، يفضل أن تكون أوربية اللغة (مينا ٢٠٠١: ٣٦-٣٧). وقد تسارع نمو هذا الاتجاه فى تسعينيات القرن الماضى مع إنشاء أربع جامعات خاصة وكثير من المعاهد العليا الخاصة، وعدد متنام من المدارس الثانوية التى تمنح الدبلومات البريطانية والأمريكية. وأصبح الالتحاق بمدارس لغات فى المرحلة قبل الجامعية عاملاً حاسمًا فى تقرير الفرص فى سوق العمل القاهرى المتشظى، كما أصبح علامة مهمة على التميز الاجتماعى. وهكذا فإن النظام التعليمى الذى كان يحقق الحراك الاجتماعى وضمانة المستقبل وكان بطاقة الخروج من محدودية الفرص المرتبطة بمكانة الأسرة وبمسارات الحياة المحددة سلفًا، أصبح الآن يعمل على تعزيز هذه المصائر الأسرية. ورغم أن التعليم يبقى مسارًا رئيسيًا للحراك الاجتماعى فقد فَقَدَ هذا الحراك الاجتماعى جانبًا كبيرًا من طابعه الجمعى التجميعى. فقد أسبغ الطابع الفردى على طريق التقدم الاجتماعى هذا وصار يعتمد بقوة على الخلفية العائلية للفرد (عبد المعطى ٢٠٠٢: ٣٣٤-٣٣٦).

الخصخصة

وقد أثار المصير الذى آل إليه نظام التعليم العام وتعزيز نظام التعليم الموازى نقاشات ساخنة متكررة داخل الميديا وخارجه. وركزت هذه النقاشات على الحق فى التعليم المجانى، والنوعية السيئة للتعليم العام، والثروات التى يجبر الآباء على إنفاقها على الدروس الخاصة، والنمو الذى يتوقف للتعليم الخاص، وهى نقاشات تعكس الثنائية الحالّة فى طبيعة النظام التعليمى.

والشعور بوقوع التعليم فى سياق انحطاط لا سبيل لوقفه هو شعور واسع الانتشار. وهو يتصل، أولاً وقبل كل شىء، بالمدارس الحكومية بالأحجام الهائلة للصفوف فيها، وبالدورتين الصباحية والمسائية وبحقيقة أن المدرسين، فى بعض الأحيان، غير مؤهلين. وكثيراً ما سمعت حكايا عن الاحترام السابق والمرافق الممتازة التى كانت فيما مضى موجودة فى قلة مختارة من المدارس الحكومية التى لم تكن تقبل إلا الحاصلين على درجات عالية فى الامتحانات العامة نهاية المرحلتين الابتدائية والإعدادية. وفى السنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين أخلت حكايا التميز المجال لشعور عام بأن كل التعليم الحكومى أصبح عصيًا على الإصلاح. وفى نهاية السبعينيات كان بوسع مصطفى، الذى جاء من أسرة من الطبقة المتوسطة الدنيا، أن يجد بين زملاء الصف فى مدرسة حكومية ابنا لوزير.

لكن هذا الاختلاط الطبقى فى المدارس الحكومية أصبح أمرًا لا يمكن تصوره فى القاهرة المعاصرة. فقد أصبح الالتحاق بالمدارس الحكومية مكروهًا فى دوائر الطبقة المتوسطة. وقد أصبحت المدارس الحكومية مستودعات متخيلة لانعدام الكفاءة والمعاناة بل الخطيئة بالنسبة للقادرين على تجنبها.

لكن الشعور بالتدهور كان يلون الحوارات الدائرة حول المدارس الخاصة أيضًا. ورغم أن نوعية التعليم فى المدارس الخاصة العتيقة ربما كانت قد تراجعت هى أيضًا، فالشعور بالتدهور كان يبدو أنه مرتبط بالمنافسة الشرسة فى سوق العمل وبفعالية

التعليم كآلية للتميز الاجتماعى. وأصبحت المدارس الخاصة الأحدث، المشيدة على امتداد الطرق الصحراوية الخارجة من القاهرة، والتى تحمل اسمًا له مغزاه " مدارس استثمارية " لتأكيد طابعها " الربحى"، أحدث السبل إلى التميز. فهذه المدارس تقدم مناهج ومعايير قياسية تربوية أمريكية أو بريطانية وكذلك فهى تمنح دبلومات غربية أو دولية، ناهيك عن أنشطة اجتماعية ورياضية لا تحصى. وبعد أن وصلت المصروفات التعليمية فى هذه المدارس عشرات الألوف من الجنيهات المصرية فإنها أصبحت تجعل حتى أسر الطبقة المتوسطة تشعر بأنها محدودة التميز وغير قادرة على الاستمرار. وقد ذكرت مهنية فى الثامنة والثلاثين من أسرة ميسورة من الطبقة المتوسطة العليا أن الالتحاق بمدرسة لغات محترمة كان فى زمنها أمرًا ضروريًا، أما الآن فالمدارس التى تعمل بالنظام البريطانى أو الأمريكى ضرورة قاهرة. وفيما كانت المدارس السابقة تعمل وفق المنهج الحكومى وتنتهى إلى امتحان عام، فإن هذه الأخيرة تمنح " دبلومات " دولية مثل الشهادة الدولية العامة للتعليم الثانوى IGCSE التى تعد صلاحيتها محدودة فى النظام القطرى.

وعلى النقيض من التعليم العام قبل الجامعى، فإن أكبر جامعتين حكوميتين وهما جامعة القاهرة وجامعة عين شمس ظلتا مطلوبتين فى دوائر الطبقة المتوسطة[٢٢]. ويحتل خريجو الجامعة الأمريكية فى القاهرة. وهى جامعة خاصة، مركز أقوى، عادة، فى سوق العمل مقارنة بمن تخرجوا فى جامعات حكومية، فخريجو الجامعات الذين يحملون شهادات أجنبية مطلوبون بدرجة أشد. لكن ارتفاع مصروفات التعليم فى الجامعات الخاصة إلى ما يتجاوز قدرات العائلات القادرة على دفع مصروفات مدارس اللغات، فمعظم تلاميذ مدارس اللغات الخاصة، وبينهم معظم مصادرى من الطبقة المتوسطة العليا، واصلوا تعليمهم فى جامعات حكومية.

وبقى التعليم فى الجامعات الحكومية تحكمه فروق صارخة. فكليات الهندسة، والطب، والصيدلة، والاقتصاد والعلوم السياسة، وكذلك أقسام بعينها من أقسام اللغات، بقيت معدودة ضمن المعاهد التى تقدم تعليمًا عالى الجودة ومحترمًا. وظل

مجموع الدرجات المطلوب بعد اجتياز الامتحانات العامة لدخول الجامعات الحكومية يرتفع عاماً بعد عام للحد من عدد الملتحقين بالجامعات التى تكدست بالطلاب. ووصل الأمر بكليات القمة مثل الطب والهندسة أنها أصبحت تطلب الحصول على ما يقارب مائة بالمائة، وأصبحت درجات الطلاب فى الامتحانات المركزية تعتمد بشكل جزئى، على جودة التعليم الذى يتم الحصول عليه وعلى الإنفاق على الدروس الخاصة. وهكذا فقد أصبح القبول فى هذه الكليات المحترمة، وبقوة، معادلاً لمستوى دخل الأسرة.

رسم الكاريكاتير عمرو عكاشة، الوفد، ٢١ يوليو ٢٠٠٤

وخلال تسعينيات القرن الماضى وصل هذا التباين الداخلى إلى مستوى غير مسبوق بعد أن فتحت جامعات القمة الحكومية " أقسام اللغات " فى كليات الحقوق والتجارة، والاقتصاد والعلوم السياسية، حيث تدرس المناهج ذاتها بالإنكليزية أو بالفرنسية. ولأن هذه الأقسام تتطلب " دراسة اللغات " قبل الالتحاق بالجامعة ودفع مصروفات مرتفعة، عموماً، فإن أقسام اللغات هذه انتقائية للغاية. وتمثل هذه الأقسام المقابل الحكومى المتيسر نسبياً للجامعات الخاصة، مع مرافق تعليمية أفضل، وجمهور مختار بدرجة أكبر، ومركز اجتماعى أعلى من نظيرتها " العربيات " المزدحمات. وكما يقول جلال أمين " وهكذا تخلق خط فاصل جديد فى كل كلية بين أولئك الذين بوسعهم الاندماج فى النظام العولى الجديد وأولئك الذين لا يستطيعون ذلك" (١٩٩٩: ١٧-١٨).

خطوط النبالة النسبية

كثيراً ما كان ينظر إلى المدارس الخاصة للغات على اعتبار أنها تنتج نوعًا معينًا من الشخصية. وبالتالى فقد كان اختيار مدرسة معينة اختياراً لعقلية معينة، ومن شأنه أن يعكس التأكيد على قيم بذاتها داخل الأسرة. وقالت لى أم شابة إنه حتى مدرس العربية فى مدرسة اللغات الخاصة التى التحق بها أبناؤها كان خريج مدرسة لغات خاصة. ورغم أن خريجى مدارس الحكومة قد يكونون أنسب للوظيفة لما عرف عن هذه المدارس من معرفة أرقى باللغة العربية، فقد أصرت المدرسة على تعيين خريج مدرسة لغات بسبب " المستوى الاجتماعى " لهذه الأخيرة. ووفقًا لما قالته هذه المرأة فإن "المدرسة كانت تخشى من أن يعلم خريج مدرسة حكومية ألفاظًا وسلوكيات سيئة". وترجع هذه الكلمات صدى ملاحظة بورديو حول أن الدبلومات ليست مجرد شهادات تتعلق بنطاق خبرة لكنها أيضًا " شهادات بالنبالة " (بورديو ١٩٨٤: ١٤٢). وفى القاهرة فإن أسماء المدارس الابتدائية والثانوية هى علامات الانتماء والتميز المتعارف

عليها، على نطاق واسع. وتقوم هذه الأسماء بوظيفة المؤشرات ليس فقط إلى الإنجازات التعليمية للشخص، بل أيضًا إلى "المستوى الاجتماعى" وما يلازمه من "مستوى ثقافى". وفى السنوات الأخيرة فقد غطت المدارس التى تمنح دبلومات بريطانية أو شمالية أمريكية على المكانة التى كانت تتمتع بها المدارس القديمة الخاصة للغات. ووجود مؤسسات ودرجات علمية أكثر حصرية وكلفة خلق خطوطًا جديدة من "التميز الحقيقى".

ويسهم التميز الاقتصادى والمعرفة الثقافية والمحيط الأسرى والعلاقات الاجتماعية فى خلق الفروق فى الطبقة المتوسطة المهنية فى القاهرة. وتساعد فكرة بورديو عن وجود أشكال مختلفة من رأس المال على تفكيك هذه التراتبيات الاجتماعية ومصادر التميز والسلطة. ويميز بورديو بين ثلاثة " وجوه " لرأس المال: " رأس المال الاقتصادى وهو القابل إلى التحويل الفورى والمباشر إلى نقود وقابل للمأسسة فى شكل حقوق ملكية،... رأس المال الثقافى الذى يمكن تحويله، وفق شروط معينة، إلى رأس مال اقتصادى ويمكن مأسسته فى شكل مؤهلات تعليمية، و... رأس المال الاجتماعى الذى يتألف من التزامات اجتماعية (" علاقات ") قابلة للتحويل، وفق شروط معينة، إلى رأس مال اقتصادى ويمكن مأسستها فى شكل لقب نبيل" (١٩٨٦ - ٢٤٣).

وتعتمد الخطوط القطاعية التى تباعد بين شباب الطبقة المتوسطة من القاهريين على خليط من هذه الأشكال من رأس المال. وكما بينت فى المقدمة، فإن الاتجاهات الكوزموبوليتانية قد أصبحت، مجدداً، علامات بالغة الدلالة على المراكز الطبقية المتميزة فى القاهرة. وفى تسعينيات القرن العشرين أصبح رأس المال الكوزموبوليتانى الشكل الرئيسى لرأس المال الثقافى. ويستتبع هذا الرأسمال الكوزموبوليتانى، كما قلنا، خبرة بالروامز السائدة عالميًا وتمكنا منها. ومن الواضح أن رأس المال الكوزموبوليتانى على هذا النحو يعنى إتقان الإنكليزية وحيازة دبلومات أو درجات علمية غربية من مؤسسات

تربوية مرتبطة بالمعرفة الغربية، مثل مدارس اللغات الخاصة أو الجامعة الأمريكية فى القاهرة. ويستتبع هذا أيضًا معرفة رسمية، بدرجة أكبر، بالثقافة الاستهلاكية الغربية / العالمية. ويتداخل رأس المال الكوزموبوليتانى مع رأس المال الثقافى المتميز محليًا، وهو ذلك النوع من أساليب الحياة والمعارف الثقافية والعادات بل المظهر ولغة الجسد، مما يميز المرء باعتباره جزءًا من نخبة القاهرة أو طبقتها المتوسطة العليا.

وقد ساهمت مدارس اللغات الخاصة فى تنمية رأس المال الكوزموبوليتانى فتمكن المرء من اللغة الإنجليزية وكأنه من أهلها يتحقق، أساسًا، بالانتساب إلى مدرسة لغات محترمة، وهذه الإجادة ضرورية للالتحاق بالشركات ذات المكانة العالية. وفى مدارس مثل هذه يكتسب الطلاب، فوق ذلك، رأس مال ثقافيا غير رسمى مثل الخبرة برطانة الطبقة المتوسطة العليا والأساليب المتميزة فى الملبس والأذواق، وكذلك الصحبة الملائمة واختيار الألفاظ والثقة بالنفس. وتتطلب مدارس اللغة الخاصة، عمومًا، استثمارات مالية معتبرة. وغالبًا ما ترتبط هذه القدرة المالية إما بفترات مطولة من الهجرة للعمل فى الخليج، أو مسيرة مهنية ناجحة فى الأنساق العليا فى جهاز الدولة، أو مشروعات تجارية ناجحة ضمن القطاع الخاص فى مصر. وتؤمن العائلات الميسورة للمهنيين أنواعًا مختلفة من رأس المال تتآمر فيما بينها لضمان مسيرة مهنية فى الشرائح العليا ذات التوجه الدولى من الاقتصاد الحضرى (مينا ٢٠٠١: ٨٩، هامش ***). ويمكن للأشخاص المنتمين إلى عائلات ميسورة أن يواصلوا التقدم حتى يصبحوا مهندسين أو اختصاصيين فى التسويق أو فى تنمية المشروعات التجارية أو مديرى مشروعات فى المنظمات التنموية، أو يعملوا فى وظائف ذات رواتب جيدة نسبيا فى السكرتارية أو فى الإدارة بالشركات الراقية. إنهم "أولاد الناس" أبناء الأسر الكريمة النموذجيون، الذين تنطق ألسنتهم وأجسادهم بالاستثمارات الرأسمالية العالية التى سخرت لمستقبلهم.

ويشهد على فاعلية المدارس الخاصة نجاح الأصدقاء والمعارف من العائلات المنتمية للطبقة المتوسطة المهنية ذات الدخل المتواضع ممن تعلموا فى المدارس الفرنسية الكاثوليكية المنخفضة الكلفة نسبيا. ورغم أنهم لا يملكون كل ما يشع من أبناء الأسر الثرية من رأسمال ثقافى واجتماعى واقتصادى متميز فهم، رغم ذلك، ينجحون فى الوصول إلى مراكز مناسبة فى سوق العمل بفضل طلاقتهم فى الفرنسية أو الإنكليزية وخبرتهم بالرواميز الثقافية للنخبة وبأساليب حياتها. وفى تسعينيات القرن الماضى كانت هذه الإجادة للغات لا تزال نادرة، فى حين كان كثير من الوظائف الجديدة يتطلب مهارات من هذا النوع.

وقد أصبحت المدارس الخاصة موقعًا مهمًا لما يسميه بورديو " إستراتيجيات إعادة التحويل " وهى الاستثمارات الرأسمالية الإستراتيجية التى تقوم بها الأسر للمحافظة على موقعها الرأسمالى أو لتحسينه (بورديو ١٩٨٤: ١٢٥). ويرى بورديو أن إعادة تحويل رأس المال الاقتصادى إلى رأس مال تعليمى هى من الإستراتيجيات التى تمكن بورجوازية الأعمال من الاحتفاظ بمراكز بعض ورثتها أو بمراكزهم جميعا، بتمكينهم من استخلاص بعض مكاسب المؤسسات الصناعية والتجارية فى شكل رواتب وهى طريقة أكثر تعقلاً – وبالقطع أكثر موثوقية – لتوزيع الأنصبة من عوائد الاستثمار " غير المكتسبة ". (١٩٨٤: ١٢٧).

وملاحظاته بالنسبة لفرنسا فى سبعينيات القرن العشرين لها مغزاها بالنسبة للقاهرة المعاصرة. فالعائلات التى حققت مقادير كبيرة من رأس المال الاقتصادى عبر مشروعات الأعمال الخاصة لجأت كلها لإستراتيجيات كهذه لإعادة التحويل. وتمثل هذه العائلات جزءًا من عملاء المدارس المكلفة الجديدة التى تمنح دبلومات أجنبية بمصروفات دراسية مقدمة بالدولار. وتمثل إستراتيجيات إعادة التحويل لدى هذه الأسر ديناميات مركزية وراء السوق الواسعة لمؤسسات التعليم الخاصة.

هذه الإستراتيجيات التى يتبعها " محدثو النعمة " لإعادة التحويل كانت مصدراً رئيسيًا للنزاعات الرمزية لأسر الطبقة المتوسطة المهنية التى حازت من رأس المال الاقتصادى أقل مما حازته من رأس المال الثقافى. فقد كان الثراء الذى جد على هذه الأسر التى سبق لها الانتماء إلى الطبقة العاملة محوراً مركزيًا لقلق العائلات الأعرق التى واجهت تراجعًا فى دخولها وارتفاعًا فى كلفة مستويات العيش الخاصة بالطبقة المتوسطة. فالجامعات والمدارس التى تقدم أحدث الدرجات العلمية وأكثرها حصرية وكلفة كانت موضع كثير من التعليقات الساخرة. وفى مناسبات عديدة كان الأباء والأمهات من الطبقة المتوسطة يزعمون أن هذه الدرجات العلمية لا قيمة لها؛ لأنها تشترى بقوة العضلات المالية لمحدثى النعمة. وكانوا يقابلون بين هذه الشهادات العديمة القيمة والشهادات "الحقيقية " التى حصل عليها أطفالهم هم بالتفانى والموهبة والعمل الشاق. وعبر البعض، أيضًا، عن غضبهم إزاء تدنى المستوى الاجتماعى الذى ينتمى إليه الأباء محدثو النعمة أو إزاء افتقارهم إلى التعليم.

ويمكن النظر إلى الانتقاص من قيمة الشهادات والخريجين من الجامعات الجديدة المنتمين إلى عائلات من غير المهنيين باعتباره دفاعًا عن الأسس التى قام عليها المركز الاجتماعى لهذه الأسر من المهنيين. لكن هذا الصراع الرمزى ينبع أيضًا من المثل الخاصة بالتعليم والثقافة لدى الطبقة المتوسطة، وهى مثل تحتل موقعًا مركزيًا فى الخطاب التحديثى القومى العتيد الذى سبقت مناقشته. ومن يريدون أن يدركوا هذا النوع من المثل ومن أساليب الحياة بدفع الثمن بالمال وليس بالعمل الشاق والانضباط والانتماء العائلى المناسب هم موضع سخرية. فالثروات والامتيازات " غير المبررة " التى حصل عليها محدثو النعمة تهدد بقلب الأيديولوجية الواسعة الانتشار عن التقدم الوطنى وعن الترقى من خلال المزج بين التعلم والتركيب.

إستراتيجيات

ويكاد يكون غير متاح لمعظم الأسر من الطبقة المتوسطة خوض هذا السباق على نيل المؤهلات التربوية الأفضل، لكن هذه الأسر ليست مستعدة، فى الوقت ذاته، للتخلى عن مستقبل أطفالها. وتعد قصة منى أوضح مثال على الجهود الهائلة التى تبذلها الأسر التى تعانى من هذه المعضلة وعلى ما ترسمه من إستراتيجيات. ومنى أم وزوجة متفرغة لأسرتها، فى أوائل الأربعينيات من عمرها. وقد كان أبوها موظفاً حكوميًا كبيرًا، وكان جدها تاجرًا ثريًا. والتحقت منى فى طفولتها بمدرسة خاصة عريقة وذات مكانة وتخرجت فى إحدى الكليات المحترمة من جامعة حكومية. وبعد العمل لعدة سنوات بالتدريس قررت أن تبقى بالبيت وتكرس نفسها لتربية أطفالها الثلاثة. وأسرة منى هى واحدة من أقدم الأسر التى سكنت حيًا من أحياء الطبقة المتوسطة القديمة. لكن منى نفسها تعيش فى منطقة أحدث وأكثر تنوعًا، من حيث السكان. وغالبًا ما كنا نلتقى فى منزل والدتها الأكبر سنًا الذى كان يحفل بعلامات على حياة تتداعى منذ وفاة والد منى. روت لى أمها حكايات عن شبابها حيث ربيت فى بيت كان من أحد البيوت وسط نجوم المجتمع المصرى بمختلف مستوياتهم، وعن والد منى ذلك الموظف النزيه المثابر الذى كان تجسيدًا للدماثة. لكن ظروف العائلة تغيرت إلى حد ما. ورغم أن منى، فيما يبدو، كانت تعيش حياة مريحة فلم يكن بوسعها أن تبلغ المكانة الاجتماعية أو مستوى المعيشة الذى تمتع به أبواها وجداها.

وقد تكررت مناقشتنا لتفاصيل النظام التربوى فى مصر، وهو موضوع أصبحت منى خبيرة فيه. وأكدت منى على الجهود التى تبذلها لتشجيع أطفالها ولمساعدتهم على الأداء الجيد فى المدرسة. وقد اختارت " مدرسة عربية خاصة " هى وزوجها لتعليم أطفالهما، مفضلين ذلك على أى من " مدارس اللغات " المحترمة. ورغم أن معظم المواد تدرس بالعربية فهناك اهتمام خاص بالإنكليزية. وشرحت ذلك بأنهما لم

يكونا ليتمكنا من دفع مصروفات الدروس الخاصة إذا التحق أطفالهما بمدرسة لغات. وإرسال الأطفال إلى مدرسة حكومية لم يكن خيارًا مقبولاً. وذكرت، بقدر من السخرية، أن وزير التربية تحدث عن رفع مستوى التعليم ليصل إلى مستويات التعليم فى الخارج (بره، تعنى فى الغرب) ورغم ذلك فإن حجرات الصف فى المدرسة الحكومية تتسع لثمانين تلميذًا. وحسب ما ذكرت منى فإن المدارس التى يرقى مستواها إلى مستوى التعليم " بالخارج " هى " مدارس اللغات اللى بالدولار (التى تحصل مصروفات التعليم بالدولار) ومن ذا الذى لديه أموال كهذه؟ ". وهكذا التحق أطفالها بـ "مدرسة عربية خاصة" حتى نهاية المرحلة الإعدادية. ثم واصلوا الدراسة فى مدرسة ثانوية حكومية.

وكثير من الآباء الذين لا يملكون القدرة المالية اللازمة لتعليم أطفالهم فى مدارس لغات اتبعوا المسار الذى اختارته منى. فقد كانوا يدفعون المبالغ الأقرب للتواضع التى تطلبها المدارس العربية الخاصة حتى نهاية المرحلة الإعدادية، وبعدها يلتحق أطفالهم بمدرسة ثانوية حكومية[٢٣].

وكان على هذه الأسرة، بمواردها المالية المحدودة، أن تعتمد على المثابرة وعلى الخلفية المهنية وعلى التزامها بالتعليم واحترامها له كسبيل للتقدم فى الحياة. ولا ينتمى أطفال منى للطبقة ذات المستقبل المضمون، ليس فقط بأفضل تعليم، ولكن أيضًا بشبكة السلامة المهمة المتمثلة فى رأس المال الاقتصادى الذى بوسعه أن يشترى مكانًا فى جامعة خاصة بغض النظر عن الامتحانات العامة. وفى أسرة منى، كانت العيون تتطلع إلى أحمد، الابن الأكبر، الذى كان يستعد لامتحان الثانوية العامة. وإن لم ينجح فى الحصول على مجموع قريب من مائة بالمائة كان سيتعين عليه أن يختار واحدة من الكليات الأدنى مرتبة وبذلك يكون له مستقبل غير واعد. كانت التكهنات حول مستقبل أحمد لا تتوقف. كانت أسرته قد قررت أنه يتعين أن يصبح طبيبًا، لكنهم بدأوا يفكرون بالصيدلة، وهى من مجالات القمة أيضًا، نزولاً عند توجهات العصر الذى تحكمه

اعتبارات السوق. وبما أن معظم الصيادلة يبدأون مشروعهم التجارى الخاص، فى مرحلة ما، فالصيدلة تجمع إلى امتيازات مسار دراسى طويل وحصرى وعود السوق الحرة بالثروة التى تصنعها التجارة.

وكثير من الآباء الشبان الذين خبروا مصاعب سوق العمل كانوا قلقين على فرص أطفالهم فى المستقبل. ويقدم سوق التعليم الواسع عديداً من الخيارات للآباء الذين يعتقدون بضرورة التبكير بالعمل على تمهيد المسيرة التعليمية لأطفالهم. فرياض الأطفال المكلفة (كى جى) تستخدم هيئة من الناطقين بالإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية بحيث يحفز الرضع على نحو ملائم ويصبحون متآلفين مع " اللغات " فى أبكر لحظة ممكنة.

وقد دربت إحدى الصديقات ابنتها ذات العام الواحد على الفرنسية. وقد كانت تدفع الأجر الذى يكاد يكون شائعًا وهو ٥٠٠ جنيه مصرى شهريًا لحضانة اللغة الفرنسية التى من شأنها أن تضمن قبول ابنتها فى مدرسة لغات فرنسية محترمة. وأرادت صديقة أخرى أن تؤمن لابنها ذى الست سنوات مدرسًا خاصًا ليعده لمعرفة اللغة الإنكليزية عن طريق اللعب، لغته الثالثة بجانب الفرنسية والعربية. وفى حضانة ألمانية كانت ابنة شقيقة صديقة أخرى يجرى تحضيرها، فى عامها الخامس من العمر، لاختبار الذكاء اللازم لقبولها فى المدرسة الألمانية. وقد اكتسبت المدرسة الألمانية سمعة إعداد المنضبطين والمثابرين، وإن كانت عائلات كثيرة، كما أبلغنى كثير من الأشخاص، اعتبرت المدارس الفرنسية أنسب للفتيات على اعتبار أن المفترض أن هذه المدارس تطور شخصية أكثر أنوثة ورقة. وقد بلغت الضغوط على الراغبين فى الالتحاق بالمدرسة الألمانية حدا جعل حتى أولئك الذين لديهم ارتباطات واضحة بألمانيا غير واثقين من قبول أطفالهم. وهذه القصص أبعد من أن تمثل حالة استثنائية. فهى تعبير صادق عن اتجاه أوسع يصبح فيه التعليم الأفضل وحده هو المقبول فى ضوء المنافسة المتوقعة والمخيفة والعنيفة على القدر الشحيح المتاح من الوظائف المناسبة. وكما سوف

نبين فى الفصل التالى فإن أعداداً متزايدة من الخريجين المؤهلين " الملمين باللغات " يدخلون سوق عمل ضيق وغير مستقر.

وبرغم الفروق المهمة فى المسارات التاريخية وفى مستويات الحياة الحالية فالعائلات الثلاث التى سبق لنا مناقشة أوضاعها كانت جزءاً من الشرائح العليا للطبقة المتوسطة القاهرية. ولكن من يدرى إذا كانوا سيضمنون لأطفالهم مركزاً مماثلا؟ لقد اعتمدت هذه الأسر فى معيشتها على مؤهلاتها المهنية ولم يكن لديهم مشروعات تجارية يمكنهم أن يوظفوا فيها أطفالهم، بغض النظر عن إنجازاتهم الأكاديمية أو ظروف سوق العمل. وبالتالى فقد خصصوا استثمارات كبيرة لتعليم أطفالهم؛ حتى يؤمن لهم ذلك قدراً من التفوق فى سوق العمل ذى الطبيعة التنافسية المتصاعدة.

ويبدو أن هذا القلق المتصل بضمان مستوى معيشة لائق لأطفال الأسرة منبت الصلة بالمخاوف التى يواجهها حسام موظف الحكومة الجامعى الأربعينى. فعندما تزوج كان لا يزال يعمل فى السياحة وكان يتمتع بدخل جيد، ولكن بعد هجمات الأقصر تراجع إقبال السياح ودخل قطاع السياحة مرحلة الركود. ومنح وظيفة حكومية كأحد الآخرين المستفيدين من المشروع الحكومى الذى جرى تقليصه والذى كان يضمن الوظائف للجميع[٢٤]. وقد رحب بأمان الوظيفة الحكومية رغم انخفاض عائداتها (فمع الحوافز العديدة كان راتبه يصل إلى ٤٠٠ جنيه شهرياً) وعندما تحدثت إلى حسام كان يتذكر، بمرارة، أنه هو وزوجته جاء عليهما وقت فكرا فيه فى إدخال ابنهما المدرسة الأمريكية. وقد أجبره العبء المالى الذى ترتب على طلاقه، قبل فترة قصيرة، على إخراج ابنه من المدرسة التجريبية التى بدت له فيما مضى الحل الوسط المؤقت. قال إنه لم يعد بوسعه الوفاء بمصروفات الدروس الخصوصية لابنه والهدايا التى تقدم للمدرسين فى المناسبات، " طوعيا ". وبرغم ما يتلقاه من أبيه من مساعدات شهرية فإن دخل حسام لم يكن يسمح بأكثر من الضرورات. وقد كانت تحيره التساؤلات المتصلة

بمستقبل الجيل الذى ينتمى إليه ابنه. فإذا كان هو يجد صعوبة فى العيش الآن، فماذا عنهم هم؟ وفيما كنا نناقش أهمية المدارس فى تقرير مستقبل الطفل أعاد شطحاتى التحليلية، بحدة، إلى دراما الحياة الحقيقية. " ولكن ماذا لو أننى أعرف ما يتعين على عمله من أجل مستقبل ابنى و لا أملك الوسيلة لذلك؟ ".

عن امتلاك لغة

تمثل اللغة أبلغ توضيح لتحولات رأس المال الثقافى المائز فى القرن العشرين. وفى بداية القرن الحادى والعشرين كانت العضوية والانتماء الطبقيان التفاضليان يتم التعبير عنهما بأقصى وضوح عبر اللغة. وقد أصبح تعبير " ماعندوش لغة " شائعًا فى القاهرة المعاصرة. والمعنى الحرفى " لا يملك لغة " ينطوى على إيحاءات الخرس والعجز عن التواصل. وهذا يعنى أن الشخص المشار إليه لا يتحدث بأية لغة سوى العربية. أو بتحديد أكثر لا يتحدث الإنكليزية. لكن غالبًا ما يعنى ذلك شيئًا أكثر: أنه لن يتمكن من التكيف مع القاهرة المعاصرة، أو أنه يتعين عليه أن لا يتوقع فرصة للحصول على وظيفة مناسبة. وفى دراستها عن الجامعيين من الطبقة المتوسطة الدنيا فى سوق العمل القاهرى تنقل غادة فخرى برسوم عن شابة جامعية قولها " إذا كنت لا تعرف الإنكليزية فكأنك لا تعرف القراءة والكتابة " (١٩٩٩: ٦٢). وتوضح هذه التداعيات كيف يقوم الأشخاص فى الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر. لأن " امتلاك " لغات أجنبية، خاصة الإنكليزية، أصبح إشارة إلى انقسام رئيسى فى المجتمع. فهو يقسم الطبقة المتوسطة المتعلمة بين أولئك الذين " يملكون " والذين " لا يملكون " لغة، بين من درسوا فى مدارس لغات القادرين على التطلع إلى العمل فى الشرائح العليا من سوق العمل، والذين ولدوا فى عائلات " أفضل " وتربوا فيها، وأولئك الذين لا علاقة لهم بهذا الأمور اللى ما عندهمش لغة (الذين لا يملكون لغة).

وتقوم الإنكليزية بدور علامة للتمييز، ليس فقط، بين من " يملكون " ومن " لا يملكون " لغة، ولكن أيضًا بين درجات التمكن التفاضلى من الإنكليزية. والمشهد التالى يوضح قوة المهارات اللغوية فى الإشارة إلى الانتماء الطبقى. دعتنى صديقتى مها ذات مساء إلى الخروج معها. ذهبنا إلى بار خافت الإضاءة فى المهندسين، كان قد امتلأ بالفعل بأناس بقوا بجوار البار ومجموعات من الأصدقاء التأمت حول الطاولات فى مناطق الجلوس. مثل هذه الزيارات إلى البارات كانت استثنائية إلى حد بعيد. ففى معظم الأحوال كانت مها تتردد على الراقى من محال الكوفى شوب والمطاعم وتتجنب الأماكن التى تقدم الكحول، لكنها استثنت هذا المكان بالذات لأنها كانت تحب ليالى الكاراوكى(*) فى ذلك المكان. وقد كانت تعرف عددًا ممن يترددون على المكان وكانت مثلهم تفضل بعض الأغنيات التى تجيد أداءها. ونجحنا فى الحصول على طاولة وطلبنا كوكتيل غير كحولى. وسرعان ما انضم إلينا اثنان من أصدقاء مها، لكننا كنا لا نزال ننتظر هشام. وقد دخل هشام علينا بشكل اقتحامى بأداء سردى ساحر بالإنكليزية تمحور حول الأسباب التى جعلته يتأخر. وبمجرد أن حيانا هشام وجلس أمطره أحد الرجلين الآخرين بأسئلة تتميز بعدوانية غير معتادة. استجوب حسن هشامًا حول قصة حياته وأصول مهاراته اللغوية. كان هشام فى الحقيقة يتحدث الإنكليزية بطلاقة مدهشة، حتى فى هذا الوسط المتعدد اللغات. لم يكن يتحدث الإنكليزية المحلية الرائجة باللكنة المصرية المعتادة لكنه تحدث بلسان أبناء الإنكليزية. وكان اختياره للحديث بالإنكليزية استثنائيًا بدرجة أكبر فى وسط يجرى الحديث فيه بخليط من الإنكليزية والعربية، كأمر معتاد. وكان من السهل النظر إلى ذلك الأمر باعتباره مباهاة.

(*) karaoke الغناء على موسيقى مسجلة سلفا وهو شائع فى مستوى معين من المحال الراقية المصرية المعاصرة . (المترجم)

وقد أدهشنى المسلك العدوانى من حسن. فقد تجاوز هجومه على هشام قواعد الأدب والمحادثة اللطيفة الشائعة فى مثل هذه الدوائر من الطبقة المتوسطة العليا. وأخبرتنى مها، فيما بعد، إلى أى حد كانت منزعجة. قالت إنها كانت تعلم أن بعض الناس يعتبرون أن هشامًا استعراضى نوعًا ما، لكنها قالت إنه كان فى الحقيقة بالغ الرقة وودودًا وشخصًا مخلصًا. وهى لم تفهم لماذا جاء رد فعل حسن على هذا النحو من القسوة تجاهه ولماذا كسر، على هذا النحو من القسوة، قواعد التفاعل الاجتماعى الودى الشائعة. وأيا كانت دوافعه الفعلية للاستجواب فقد تركز هذا الاستجواب على أصول إنكليزية هشام. فهذا النوع من المهارات والاستخدامات اللغوية يمثل معيارًا مهمًا للتميز الاجتماعى. فذلك النوع من الطلاقة فى التحدث بالإنكليزية التى أظهرها هشام ينظر إليه عادة باعتباره مؤشرًا أكيدًا على رفعة المستوى الاجتماعى والثقافى والانتماء إلى أصول نخبوية. وسرعان ما اكتشف حسن أن هشامًا اكتسب قدراته اللغوية الراقية بمجرد الالتحاق بمدرسة بريطانية فى إحدى دول الخليج وليس بالنشأة فى أوربا أو بالانتماء إلى أسرة دخل الدم الأوربى فى أصولها، مثلاً. وعاد حسن إلى طبيعته الودودة واستمرت الأمسية على نهجها المعتاد.

وقد كانت المعرفة باللغات الأجنبية علامة تميز، طوال القرن العشرين، تشير إلى علو المكانة والأصل الاجتماعيين. وهذه هى أوضح مكونات رأس المال الكوزموبوليتانى الذى يفعل فعله فى تقسيمات الطبقة المتوسطة فى القاهرة. وقد كانت مخزونات النخبة تركز، فيما مضى، على فرنسا وعلى كل ما هو فرنسى. وفى النصف الأول من القرن العشرين كانت بعض عائلات النخبة تتحدث الفرنسية باعتبارها لغتها الأم. وغالبًا ما كانت سيدات الطبقة المتوسطة العليا يتلقين تعليمهن فى مدارس فرنسية كاثوليكية، فيما كان الرجال ينخرطون فى التعليم الإنكليزى أو الفرنسى (بركة ١٩٩٨) وقد فصمت المرحلة الناصرية بسياسات التعريب التى تبنتها هذه الصلة القوية باللغات الأوربية كعلامة على التعليم الراقى والانتماء للنخبة. ومن ثمانينيات القرن العشرين وما

تلاها عاد رأس المال الكوزموبوليتانى هذا، مرة أخرى، ليصبح علامة على الانتماء للنخبة.

ويظهر اختيار اللغات الأجنبية فى عائلات الطبقة المتوسطة والمتوسطة العليا تقسيماً للعمل على أساس الجندر فيما يخص رأس المال اللغوى (آبيكاسيس وآخرون ١٩٩٧). فالفرنسية ينظر إليها منذ عهد بعيد باعتبارها لغة الثقافة والفهم المركب وهو ما يناسب تعليم زوجات وأمهات ناضجات. ورغم أن الإنكليزية، خلال التسعينيات أصبحت، بلا منازع، لغة العمل والتفاعل الاجتماعى فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا فلا يزال الكثيرون يعتبرون التعليم الفرنسى هو الأنسب للفتيات.

وقد كانت المحادثات اليومية فى النطاق الأوسع للطبقة المتوسطة لا تزال مطعمة بكلمات فرنسية - بنطق وتصريف مصريين - تشير إلى الثقافة والطبقة. فكلمة بلاج (plage) تستخدم للإشارة إلى المنطقة الممهدة أمام البحر بدلاً من كلمة شط العربية وميرسى (merci) وكوافير (coiffeur) أصبحتا جزءاً من العامية المصرية. وفيما انتشرت بعض الألفاظ المستعارة من الفرنسية فى أقسام واسعة من المجتمع، فإن ألفاظاً أخرى صارت تختص بها دوائر الطبقة المتوسطة والمتوسطة العليا وأصبحت علامة على الانتماء الطبقى. ففى دوائر الطبقة المتوسطة الدنيا كانت الكلمتان العربيتان أمى وأبويا (والدتى ووالدى) يشار بهما عموماً إلى الوالدين. أما فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا فقد اعتبرتا علامة فجة ولا يمكن التسامح معها على الانتماء لطبقة أدنى، ففى هذه الدوائر يتعين على المرء أن يستخدم المقابل العربى لكلمتى papa، maman: مامتى وبابايا.

وقد أصبح للإنكليزية حضور كاسح فى القاهرة. ففى حين يشير تداول الألفاظ المستعارة من الفرنسية إلى توجهات نخبوية قديمة فقد أصبحت الإنكليزية، وعلى نحو مطرد، لغة التميز السائدة فى الحياة اليومية (أمين ١٩٩٩: ٢١-٢٢) وفى مطلع القرن الحادى والعشرين أصبح لتليفزيون الدولة قناة ناطقة بالإنكليزية، تبث بالفرنسية فى

أوقات النهار حيث تضعف المشاهدة. وتولت محطات الراديو والمجلات الناطقة بالإنكليزية تلبية احتياجات من يملكون حدا أدنى من المعرفة باللغة. وأصبحت الإنكليزية تعنى أيضا الحداثة والثقافة بالنسبة لكثيرين من القاهريين الذين " لا يملكون لغة " كما يفهم من حضورها الأيقونى المرئى فى المشهد الحضرى القاهرى. فالأسماء الإنكليزية للمحلات منتشرة فى كل مكان واللافتات تستعرض الأسماء المدونة بحروف لاتينية. ولم يقلل وقوع الأخطاء الإملائية من فاعلية هذا كله كمؤشرات على الثقافة والرقى.

وقد كشفت مناقشة دارت حول قائمة الخدمات الخاصة بصحارى سفارى والمدونة بالإنكليزية عن أهمية اللغة فى الأفكار الرائجة المعاصرة عن الطبقة والثقافة. عكست هذه الأهمية أيديولوجيات وطنية سابقة ركزت على الطبقة المتوسطة المتعلمة، لكنها أضافت لمسة تنتمى بوضوح إلى القرن الحادى والعشرين. ففى ٢٠٠٢ بدأ أحد المنتمين للطبقة المتوسطة العليا مناقشة حول هيمنة اللغة الإنكليزية خلال الخروجات الجماعية. كتب يقول: لاحظت أن معظم الناس فى هذه الرحلة تكلموا بالإنكليزية أكثر مما تكلموا بالعربية. وللحقيقة فأنا أجد ذلك أمراً مخجلاً. لا يعنى ذلك أنى لا أنطق بكلمة إنكليزية واحدة فى محادثاتى، لكنى أشعر بخجل حقيقى وأنا أفعل ذلك. أقصد أننا - بالنهاية - مصريون ويجب أن نكون فخورين بلغتنا الأم. ويبدو أننا نشعر بالفخر حين نعلن أننا لا نقرأ كتباً عربية. يبدو وكأننا نعنى بذلك أن ننزل كثيراً إلى ما دون مستوانا الاجتماعى حين نقرأ بلغة منتشرة لهذه الدرجة وأنه يتعين علينا أن نميز أنفسنا عن بقية المجتمع المصرى.

المساهمون الآخرون فى هذه المناقشة التى دارت على الإنترنت حثوا أقرانهم على عدم تجنب العربية وعلى مقاومة تغول الإنكليزية. ولاحظ أحد المهنيين أن استخدام الإنكليزية فى المحادثات اليومية أصبح، ببساطة، من حقائق الحياة. وقد تميزت إحدى

المساهمات بمناقشتها المستفيضة للعلاقة بين اللغة ورأس المال الثقافى والطبقة، وأوضحت هذه المساهمة أن المعرفة باللغة العربية وبإحدى اللغات الأوربية تساعد الناس على شاكلة أعضاء صحارى سفارى على أن يلعبوا دورًا محوريا. فلأنهم مصريون ويتكلمون العربية فلديهم ميزة المعرفة بالموروث المصرى: " الإحسان، الاحترام، الشرف، الكرم ". لكنهم يعرفون أيضًا اللغات والثقافات الأوربية وبالتالى فهم على دراية بما هو إيجابى فى هذه " الثقافات الأخرى " - " المهنية، العمل الدؤوب، الالتزام بالمواعيد " وقادرون على المزج بين " البركات الثقافية " لكل منهما. وقد موضعت كاتبة هذه المساهمة نفسها وقراءها من الطبقة المتوسطة العليا باعتبارهم طليعة محتملة تقدر موروثها الثقافى لكنها منفتحة على إنجازات الغرب وفضائله. وتتناغم هذه التعليقات مع السرديات الحداثية حول الطبقة المتوسطة المتعلمة باعتبارها طليعة اجتماعية، وإن كانت هذه النسخة من السردية ترى فى موقع الوساطة بين الأمة والغرب، بين المحلى والكونى، ما يميز هؤلاء المهنيين كقادة فى المستقبل. وهذا يتناغم مع الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر التى ترسم هى الأخرى صورة للمهنيين من الطبقة المتوسطة العليا وما يملكون من رأسمال كوزموبوليتانى كتجسيدات لأحلام مصر بالمعايير القياسية العولمية وبالخبرة الكوزموبوليتانية.

وبرغم المناقشة التى دارت حول صحارى سفارى وركزت على أهمية اللغة من حيث العلاقة مع الهوية الوطنية، فإن المعرفة المحدودة باللغة العربية ينظر إليها، عامة، كإحدى حقائق الحياة داخل دوائر الطبقة المتوسطة العليا. وبالمثل فإن حائرى يلاحظ أنه فى الطبقة المتوسطة العليا " غالبًا ما يعلق المتحدثون على ' قلة معرفتهم باللغة العربية ' وأن هذه المحدودية ترجع إلى نوع التعليم الذى حصلوا عليه " (١٩٩٧: ١٩٩٩) ويجب أن يفهم كلام هذا فى إطار النطق بالعربية باعتباره إشارة إلى صعوبة نسبية، لا مطلقة، فى النطق بالفصحى. فالإشارة إلى الجهل بالعربية تعنى الجهل

بالفصحى، العربية الكلاسيكية المكتوبة، أكثر مما يعنى الجهل بالعامية، لغة الحديث الشائعة فى مصر. ويبدو أن مدى الجهل الحقيقى بالفصحى يتباين من مهنى إلى آخر، على نحو واضح. فالبعض يجد صعوبة فى القراءة أو الكتابة بالعربية، فيما يجد آخرون سهولة واضحة فى التعامل مع النصوص العربية. ويدفع رينيه هاميل، بحق، بأن هذا الابتعاد عن العربية يتعين النظر إليه كإستراتيجية طبقية. فالحرص على إعلان الجهل بالعربية الفصحى يمكن النظر إليه كإجراء " لإعادة إنتاج رأس المال الرمزى الخاص وتعزيز أيديولوجية لغوية سائدة تنتج نوعًا من ' العزل الطبقى ' للغة الرسمية " (هاميل ١٩٩٨: ٢٥٤).

وكما يلاحظ نيلوفار حائرى فإن مهن الطبقة العليا والمتوسطة العليا فى سوق العمل القاهرى المقسم تتطلب، عادة، ثنائية لغوية أو معرفة بعدة لغات أكثر مما تتطلب معرفة ممتازة بالفصحى (١٩٩٧: ٨٠٠).

ويتفق أمين مع هذا الرأى: " المؤسسات متعددة الجنسية تظهر، كأمر طبيعى، تفضيلاً لتوظيف القادرين على التعبير عن أنفسهم بلغة أوربية، على نحو جيد، وهذا يعطى هذه اللغات أفضلية على العربية... فهناك ميل يتنامى تدريجيًا إلى التعالى على اللغة الوطنية، وعلى المرتبطين بها، سواء كانوا مدرسين أو مدارس أو سلعًا استهلاكية" (١٩٩١: ٢١). وقد أصبحت إجادة الإنكليزية العلامة المميزة لنوع بعينه من المهنيين: المهنى الذى تربى فى مدارس لغات الذى يعمل ويعيش حياته الاجتماعية فى بيئة الطبقة المتوسطة العليا حيث يشيع خلطة العربية بالإنكليزية. وقد أصبح " امتلاك لغة " علامة الدخول فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا وعلامة البعد عن حقائق الواقع القاهرى الأقل تميزاً.

فالحديث بلغة هى خليط من الإنكليزية والعامية العربية أصبح جزءًا من الممارسات المميزة للطبقة المتوسطة العليا(٢٥). وهكذا شاع تطعيم العامية بالإنكليزية فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا ليصبح من الممكن أن يقارن بـ " الهنكليزية **Hinglish** التى

يتحدثها نظراؤهم الهنود (فرنانديز ٢٠٠٠) فعلى غرار هذا الخلط بين العامية والإنكليزية تحتوى "الهنكليزية" على ألفاظ وأشباه جمل إنكليزية تستخدم داخل جمل ومحادثات بالهندية. ووجود هذه التماثلات يعد أمرًا مدهشًا بالنظر إلى تباين التاريخين المحليين للإنكليزية. ففيما تم إدخال الإنكليزية إبان فترة الاحتلال القصيرة نسبيًا، فإنها لم تكتسب السيادة ولم تتكرس كلغة قومية كما جرى لها فى الهند. ورغم أن الإنكليزية تدرس فى كل المدارس فإن التمكن من اللغة بدرجة معقولة هو أمر مقصور على أولئك الذين التحقوا بمدارس خاصة. وهذا التمكن، إلى حد كبير، حصرى بين الشبان القاهريين من العائلات الثرية الذين اتخذوا المسارات التربوية والمهنية للطبقة المتوسطة العليا. فقد أصبحت الإنكليزية مصدر جدارة لقطاع متميز نسبيًا من المجتمع الحضرى والمعرفة بها علامة شديدة الفعالية على خطوط جديدة للتقسيم والتمايز.

ويقول فرنانديز إن " نطاق هذا النوع الخاص من التهجين الذى تكونت منه "الهنكليزية" يحولها من ظاهرة عابرة للطبقات إلى ظاهرة خاصة بالطبقة المتوسطة (٢٠٠٠: ٦٢١) وفى القاهرة لم تكن الإنكليزية قط ظاهرة عابرة للطبقات. وبالتالى فالعامية الإنكليزية - العربية المعاصرة هى أكثر ارتباطًا بالطبقة المتوسطة من الهنكليزية التى يتحدث عنها فرنانديز، وتعمل كحارس بوابة وكعلامة على الانتماء الطبقى المتميز بقدر أكبر وبفعالية أشد. والإنكليزية - العربية هى عامية الأجيال الشابة بالتحديد. فقد تعلم فى مدارس اللغات الخاصة جيل جاء من أصول متباينة تعود إلى الطبقة المتوسطة وإلى النخبة، ونشأت عن ذلك شريحة عريضة نسبيًا تجيد الإنكليزية وتستخدم الخليط الإنكليزية - العربية المميز طبقيًا فى العمل وفى اللهو. وتميل هذه التقسيمات الاجتماعية التى تقوم على المهارات اللغوية إلى أن تعكس عددًا من التقسيمات الأخرى: ما إذا كان لدى المرء أشكال أخرى من رأس المال الكوزموبوليتانى، يملك خبرة " بالخارج " وعلى اتصال معه، مؤهلاً للوظيفة الراقية، يمكنه الاستهلاك فى المحال الراقية.

وفى ضوء التعددية اللغوية التى تتأسس طبيعتها على الطبقة يبدو فرنانديز محقًا فى نقد القراءات التى لا تخفى حماسها للإمكانات التخريبية للتهجين... فالتهجين فى الهند الحضرية المعاصرة يرتبط بشكل لا فكاك منه بالكوزموبوليتانية ذات الأساس الطبقى للطبقات المتوسطة الحضرية. (فرنانديز ٢٠٠٠: ٦٢٢، انظر فرنانديز ٢٠٠٣ لتجد نقدًا مماثلاً) ولا أريد أن أنتقص من قيمة الإمكانات الإبداعية والتخيلية التى يساهم فى تكوينها البروز المطرد للتدفقات الثقافية العولمية المختلفة (آبادوراى ١٩٩٠). وكما يقول سنغرمان وعمار (٢٠٠٦) وغنام (٢٠٠٢) فإن القاهرة فيها أيضًا أشكال أقل تميزًا من الكوزموبوليتانية ومن صيغ العيش.

ورغم ذلك فإن " كل شكل من أشكال " المزج الثقافى" أو التهجين... سوف ينقش فى الجغرافية السلطوية الخاصة به " (مورلى ٢٠٠١: ٤٤٢) وفى القاهرة فإن القدرة على الخلط والمزج تتوقف على الخبرة بالخارج (بره) والتوافق مع عالم أول متخيل هناك.

وفى السنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين شهدت القاهرة طفرة فى المجلات الناطقة بالإنكليزية الموجهة إلى جمهور مصرى. ويثبت ظهور هذه المجلات الناطقة بالإنكليزية وجود شريحة من السكان تتماهى مع الإنكليزية وتحدد هويتها من خلالها. وقد تأسست مجلة كامبوس: صوت جيلنا فى ٢٠٠١ على يد شاب مصرى أراد إنشاء مجلة للشباب تنطق " بلغة جريئة ". وتستهدف مجلة كامبوس **CAMPUS** القاهريين الشبان من الطبقة المتوسطة العليا أو الطبقة العليا الذين تطلق عليهم "الجيل الجديد". وكما أوضحت لى كبيرة محررى كامبوس فى حوار معها فإن مجلتها تستهدف جمهورًا يتألف من المهنيين المصريين الشبان بين الثامنة عشرة والخامسة والثلاثين ممن يجيدون الإنكليزية ولديهم تعليم جيد ويسافرون " خاصة من خريجى الجامعة الأمريكية بالقاهرة (أو من الدارسين فيها) ومن الناس الذين عاشوا فى الخارج. وتستهدف الجمهور ذاته مطبوعة تسمى ذا بيبر **The Paper** وهى أصغر

وأحدث من كامبوس. وأوضحت لى رئيسة تحرير المطبوعتين أنه يتعين استخدام اللغة الإنكليزية لاجتذاب جمهور كهذا " لن يقرأ شيئا بالعربية، أبداً ". وكما أوضح محررو ذا بيبر " إذا كان عليك أن تختار بين كليو (Cleo مجلة إنكليزية اجتماعية) وكلام الناس (نظيرتها العربية) فسوف تقرأ كليو أولاً. إنها أسهل كما أنها أرقى من حيث المكانة والموقع الطبقى" (وجهة نظر لن يشاركهم فيها كثيرون فى مصر، حيث لا يأخذ أحد الغالبية العظمى من المجلات الإنكليزية المحلية مأخذ الجد - المترجم) ورغم أن مجلة كامبوس تصدر بالإنكليزية فإن استخدامها المتكرر للعامية المصرية يشير إلى انتمائها القوى إلى قاهرة الطبقة المتوسطة والمتوسطة العليا. فكل من كامبوس وذا بيبر يستخدم إنكليزية مصرية أصبحت لغة محلية مميزة لشباب الطبقة المتوسطة والنخبة فى القاهرة، بشكل كامل.

وتصور هذه المجلات جمهورها - الذى يحدد أحياناً باعتباره من الفئتين " ألف" و"باء" ممن تعلموا فى مؤسسات نخبوية أو بالخارج، الناس الذين سافروا، جمهور الكوفى شوب - باعتبارهم قادة المستقبل فى البلاد[٢٦]. وهذه التصورات تتناغم مع سرديات القاهرة الليبرالية الجديدة كما نوقشت فى الفصل الأول. لكن محررى المطبوعتين لم يعتبروا " هذا الجيل الجديد " جاهزاً لاستلام السلطة. فقد استنكروا جهل قرائهما وسلبيتهم إزاء ما تلاقيه البلاد من متاعب. وقالوا إنهم يريدون أن ينبهوا هذا الجيل الجديد ليخرج من غفلته ويتشجع على التفكير بدوره الاجتماعى. وعلى سبيل المثال فقد ذكر محررو ذا بيبر أنهم " يحاولون جعل قرائهم يفكرون ويكتسبون معارف عامة. والمشكلة هى أن المصريين لا يقرأون". وفى وقت لاحق " سوف يؤول كل شىء إلى جيلنا، وأمامنا كل هذه الأشياء الجديدة فى البلاد. ولا بد أن تواكب هذه التحولات عقليات جديدة ". وبالمثل فقد عبرت كبيرة محررى مجلة كامبوس عن رغبة فى نشر الوعى بين قادة المستقبل فى البلاد. وتعابث المجلة قراءها وتعايرهم بجهلهم المفترض. ففى باب بعنوان " جاسوس كامبوس" فإن المجلة "تبادر إلى اختبار المعارف العامة لدى

الشباب المصرى الموسر، ومستقبل البلاد، بأسئلة عن الجغرافيا وعن شخصيات التاريخ المصرى القريب " مع ما يسفر عنه ذلك من نتائج مضحكة.

وكانت مجلة كامبوس توزع مجاناً فى عدد كبير من الأماكن الراقية فى أحياء الطبقة المتوسطة العليا: فى محال الكوفى شوب الراقية، محال الملابس، محال بيع الكتب والهدايا، والصالات الرياضية[٢٧]. لكن ذا بيبر كان توزيعها أقل وإن كانت توزع، على نحو مماثل، فى بعض محال الكوفى شوب الراقية مجاناً. وتشير شبكات التوزيع هذه إلى الصلة الحميمة بين " الجيل الجديد " الذى تستهدفه مجلات كهذه وجغرافيات القاهرة الراقية. وفوق ذلك فإن عدداً كبيراً من المعلنين من أصحاب الشركات هم مصدر التمويل لمجلة كامبوس؛ لأنه من الواضح أنهم يستهدفون هذه الشريحة الغنية من السوق.

وإضافة إلى أن جمهورها المستهدف يتكون من شباب الطبقة المتوسطة العليا وصولاً إلى النخبة من أهل القاهرة فإن مجلة كامبوس ينظر إليها كأداة إعلامية جديدة يمكن أن يتعلم منها المهنيون القاهريون الشبان الأقل ثراء. وقالت رئيسة التحرير إن المجلة وصلت إلى شباب الأحياء الأقل ثراء فى شبرا، وهى منطقة قديمة يعيش فيها أهل الطبقة المتوسطة والمتوسطة الدنيا وطلاب عين شمس الذين يعتبرون، كما قالت، أن هذه مجلة " روشة ". ودفعت رئيسة التحرير بأنهم " يحاولون قراءة مجلتنا لأنهم يريدون أن يطوروا أنفسهم. والمجلة تعطيهم الفرصة للتفاعل معنا بشكل غير مباشر والتعلم منا ". والأمور التى تتوازى مع الإعلانات التجارية التى ناقشناها فى الفصل السابق كثيرة. والمهنيون من الطبقة المتوسطة العليا ومن النخبة يصورون باعتبارهم نموذجاً يحتذى فى الحقبة الليبرالية الجديدة فى مصر. والجامعيون الأقل ثراء مدعوون لتقليد أساليبهم، ولو من مسافة آمنة ومن غير ضمانات بإدراجهم مستقبلاً فى العوالم المائزة لهؤلاء المهنيين.

نزاعات الطبقة المتوسطة العليا

تعيد الخطوط الجديدة للتقسيم فى مجال التعليم وفى سوق العمل، كما أبين فى الفصل التالى، صياغة الأشكال الجديدة للتشرذم الاجتماعى. وفيما تخاطب مجلة كومباس وذا بيبر " جيلاً جديداً " من المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا باعتبارهم طليعة مجتمعية وفيما تؤدى عمليات التشظية إلى زيادة التأكيد على الفروق بين من يملكون رأسمال كوزموبوليتانيًا ومن لا يملكون، فإن التراتبيات والتمايزات الأقدم تواصل تغذية المنازعات حول الانتماءات الطبقية. وأنا أنهى هذا الفصل بتحليل الانتماء الطبقى والتراتبية الاجتماعية بين المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة. إلى أى مدى أثرت التحولات الحادة فى الاقتصاد السياسى القاهرى وما صاحبها من تحولات فى رأس المال الثقافى المعتبر على الطرائق التى يقوم بها الموقع والانتماء الطبقيان؟

لطالما لعبت الانتماءات العائلية دور المؤشر إلى الموقع والانتماء الاجتماعيين الحقيقيين. وبرغم الإحساس المتصاعد بأهمية رأس المال الكوزموبوليتانى، فقد بقيت الانتماءات العائلية بالغة الأهمية بالنسبة إلى التقسيمات الاجتماعية فى القاهرة، على نحو غير مباشر، من حيث ما يتيسر للمرء من رأسمال اقتصادى وثقافى، وعلى نحو مباشر بدرجة أكبر، من حيث رأس المال الاجتماعى. وكثيراً ما يعرف الناس ويصنفون من خلال بيان أصولهم العائلية. فينظر إليهم، مثلاً، باعتبارهم متحدرين من " عائلة كبيرة " (عائلة معروفة ذات مكانة طيبة وعريقة) أو باعتبارهم أولاد ناس (أبناء عائلات طيبة وراسخة فى الطبقة المتوسطة أو المتوسطة العليا). وما زالت التراتبيات الأرستقراطية باقية فى الإشارات إلى الأسر الكبيرة وإلى ألقابها الأرستقراطية. ورغم أن الألقاب الأرستقراطية ألغيت بعد ١٩٥٢ فقد عاد الاهتمام بالقدرة على الإشارة إلى وجود " بك " أو " باشا " فى العائلة. فخلفيات عائلية من هذا النوع تؤمن قدراً مهماً من

الانتمـاء الطبقى "الحقيقى". وأولئك الذين يتطلعون إلى موقع مماثل من دون تاريخ عائلى تستند إليه دعاواهم يمكن استبعادهم باعتبار أنهم محدثو نعمة.

ولطالما دارت المجادلات حول الانتماء الطبقى الحقيقى متمركزة، بشكل رئيسى، حول شخصية محدث النعمة. وفى دوائر الطبقة المتوسطة العليا التى عرفتها كنت أسمع التعليقات المتكررة حول الزحف على مناطق معينة من قبل محدثى النعمة بما يؤدى إلى خفض مستوى هذه المناطق. ودأبت إحدى الصديقات على التأكيد على أن الأشخاص الذين لا ترتاح إليهم جاؤوا، على الأرجح، من أوساط محدثى النعمة. وكما بينت من قبل، فقد أصبحت الإستراتيجيات التعليمية للعائلات حديثة الثراء موضع سخرية من جانب عائلات أقدم فى الطبقة المتوسطة، على نحو منتظم. ومصطلح الأغنياء الجدد (الذى يقابله المصطلح الفرنسى نوفوريش الذى ما زالت تفضل استخدامه دوائر الطبقة المتوسطة العليا) أصبح شائعًا بعد سياسات الانفتاح فى منتصف سبعينيات وثمانينيات القرن الماضى. فعندما بدأت الشرائح " الأدنى " تراكم الثروات وتستغرق فى الاستهلاك الصارخ، ساد الشعور بأن القيم القديمة، المتصلة بالتحضر وبالإنجازات التعليمية، تتضاءل أمام المال. وقد شعر كثير من العائلات الراسخة فى الطبقة المتوسطة والعليا بأن هذه النخب الجديدة تتجاوزها. وقد تركز شعور الطبقة المتوسطة الراسخة بالمرارة فى التنديد بافتقارهم إلى النضج وميلهم إلى الاستعراض. وأصبح محدثو النعمة من الشخصيات الرئيسية فى الخيال السينمائى فى الثمانينيات من القرن العشرين (آرمبراست ١٩٩٩). وحتى إذا بدا للبعض أن شخصية محدث النعمة تبدو وكأنها لم تعد بارزة كما كانت فى الثمانينيات والتسعينيات فلا يزال محدثو النعمة يتكرر ظهورهم فى مسلسلات التليفزيون الشعبية (انظر أبو لغد ٢٠٠٥: ٢٠٣) ومن ذلك، على سبيل المثال، مسلسل فى رمضان فى ٢٠٠٢ بعنوان " أين قلبى؟ ".

وترى إى.آن بيل أن المنازعات حول الانتماءات الطبقية الحقيقية فى الأردن كانت تشتعل، على نحو مماثل، بما يتاح من فرص لهجرة العمالة إلى دول الخليج وبما يتوفر محليًا من فرص لإنشاء مشروعات تجارية أو صناعية. وتدفع بيل بأن هذه المنازعات قامت بالأساس على المقابلة بين أساليب الحياة "المتعقلة" لدى النخب الأقدم والاستهلاك الصارخ عند من يملكون " المال الجديد " (٢٠٠٠). وفى مصر فإن هذه المنازعات تركزت، ليس على الثراء بحد ذاته (رغم أن مصادر ثروة الأغنياء الجدد كانت غالبًا محل تشكيك) وإنما على الطريقة التى ينفق بها المرء ما هو متاح له من سيولة. وكثيراً ما تجرى المقارنة بين الإنفاق الاستعراضى الذى ينظر إليه كسمة مميزة لمحدثى النعمة بما يقابله من تحفظ ناضج عند الأسر الراسخة فى الطبقة المتوسطة أو فى أنساق النخبة. ورغم ذلك فإن التعليم والأصل الاجتماعى يبقيان على مقدار هو الأقل مساو من حيث الأهمية فيما يتصل بالانتماء الطبقى. ويعكس الحفاظ على أهمية التعليم والأصل العائلى صلابة الفكر التحديثى المصرى فيما يخص أهمية التقدم من خلال التعليم، مع رسوخ الأفكار المتصلة بمراكز العائلات وتواريخها كمؤشرات إلى الانتماء الطبقى الحقيقى.

وقد تحدرت الطبقة المتوسطة العليا من المهنيين من أصول متنوعة، من بينها عائلات يمكن اعتبارها من الأغنياء الجدد. ولكن داخل الدوائر التى عرفتها من الطبقة المتوسطة العليا، لم يكن الزعم بوجود تناقض واضح بين سوقية محدثى النعمة ورقى العائلات الكريمة أمرًا مقنعًا بدرجة كافية. فقد كان شبه مستحيل لدى أن أميز بين محدثى النعمة وأولئك المنتمين إلى عائلات " كريمة " إلا بعد أن أعرف تواريخهم العائلية بالتحديد. وقد ظلت الإشارات الاستنكارية إلى محدثى النعمة تكرر كلامًا قديمًا عن التشظى الاجتماعى وعن التمايزات وتعيد تأكيد بعض المبادئ المركزية للحداثة المصرية التى سبقت مناقشتها. لكن الجمع بين مركز عائلى ميسور والانتساب لمدرسة خاصة هو ما يسفر عن اكتساب متناغم نسبيًا لرأس المال الثقافى للطبقة المتوسطة

العليا، ولرأس المال الكوزموبوليتانى وأساليب الحياة الكوزموبوليتانية، بشكل خاص، وهذان يؤمنان الوصول إلى القاهرة الراقية. وتدفع منى أباظة بأن محدثى النعمة أصبحوا " فئة عائمة " (٢٠٠١: ١١٧). ويتكرر فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا، فى الحقيقة، الميل إلى الانتقاص من قيمة المهنيين الآخرين، من الطبقة ذاتها، على نحو اعتباطى.

وقد أصبح رأس المال الثقافى الكوزموبوليتانى، شأنه شأن إجادة اللغات الأجنبية والخبرة بالرواميز الثقافية السائدة عالميًا، علامة على الانتماء للطبقة المتوسطة العليا. وغالبًا ما يفترض أن هذا الرأسمال المتميز يدل على خلفية عائلية كريمة، وهو ما بقى شرطًا رئيسيًا، فى عيون الكثيرين، للانتماء "الحقيقى " للطبقة. وهذه التوافقات المفترضة تسمح لأولئك الذين لديهم تمكن ممتاز من رواميز الطبقة المتوسطة العليا بادعاء انتماء اجتماعى كهذا، حتى فى غياب انتماء عائلى بالمستوى ذاته. وتقدم حكاية نهال عن طارق مثالاً على بعض المجادلات المعقدة حول الانتماء الطبقى.

التقيت طارقًا فى إحدى رحلات صحارى سفاريز. كان فى أوائل الثلاثينيات من عمره، طويلاً وأبيض البشرة. ورغم أنه كان يتحدث إنكليزية بريطانية خالية، إلى حد بعيد، من اللكنة المصرية المعتادة، فقد كان فى الوقت ذاته متمكنًا من العربية المصرية خفيفة الدم. وكان يهيمن على من يحيطون به بنكات تأتى فى موضعها بتلك اللغة غير الرسمية والمهذارة. بدا أن مظهره يشع ثقة بالنفس. ومن بين أهم الخصال التى أكسبت مظهره هذه القوة، سلوكه الواثق وقدرته على الاندماج بيسر فى المخزونات الخاصة بالطبقة الراقية من المصريين وبالأجانب. وكان من الممكن اعتبار بشرته البيضاء إشارة إلى أصل تركى، وهذا دليل انتماء إلى النخبة المصرية الأرقى أو إلى أصل غربى لا يقل احترامًا.

وكانت نهال واحدة من المسحورات بالحضور الطاغى لطارق. بدأت تقابل طارقًا بشكل منتظم بعد أن عدنا إلى القاهرة، لكن علاقتهما لم تتطور على نحو جيد. قالت لى

إن كثيراً من التفاصيل عن حياة طارق لم تكن باهرة كما كانت تبدو. لم يكن ابن ناس (ابن عائلة كريمة) كما تخيلنا، وفقا لروايتها. فقد كانت أسرته تعيش فى واحد من أحياء الطبقة المتوسطة المختلطة وليس فى إحدى المناطق المحترمة حيث تعيش غالبية المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا. وقد أخبرها طارق بأنه، بعكس غالبية المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا، شق طريقه فى الحياة بنفسه. ورغم أنه كان يوشك على الانتهاء من دراساته العليا فى مؤسسة خاصة معتمدة دوليًا، فهو متخرج فى جامعة حكومية. وقالت نهال إن طارقًا يتعمد دائمًا أن يكون ملبسه متميزًا، وأن تكون له سيارة باهرة وأحدث " لاب توب " حتى إن كان تأمين رموز المكانة هذه يفوق إمكاناته. كان يقول لها إن المظهر أمر بالغ الأهمية. وقد كان تمكنه الرائع من المخزونات الراقية والمظهر والملابس والتصرفات واللغة، على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لأدائه الناجح للغاية. كان رجلاً عصاميًا لكنه بذل كل ما بوسعه ليخفى ذلك. وهناك رجال كثيرون مثله، كما تقول نهال، وهم متسلقون اجتماعيون طموحون من أوساط متواضعة من الطبقة المتوسطة ويتظاهرون بعكس ذلك.

وطوال سنة كاملة ظلت نهال توافينى بالجديد الذى يطرأ على حياة طارق. وبمرور الوقت وجدت أن شكوكها إزاءه تتحقق عندما تزوج طارق من " محجبة نمطية " بعد فترة خطوبة قصيرة. وقد كان زواجه من شابة فيها كل صفات ربة البيت المثالية من الطبقة المتوسطة الراقية يرمز إلى سطحية أدائه التقدمى وسطحية اهتمامه بامرأة مهنية مثلها. وخلصت إلى القول بأن زواجه أظهر أين هى جذوره.

ومن كل النواحى فقد كان طارق، بالفعل، يمثل النموذج الكامل للطبقة المتوسطة الراقية: فهو موظف فى شركة متعددة الجنسيات متمكن من المخزونين المحلى والعالمى، مجتهد فى عمله، يتمتع برجولة كاملة وإن كان جنتلمان حقيقيًا. وقد نجح فى الإيحاء بأنه ينتمى إلى أوساط النخبة بالطريقة الواثقة التى كان يتصرف بها. لكن نهال اتهمته بأنه كان مختالا عندما أخفى انتماءه لوسط متواضع فى الطبقة المتوسطة. وفى النهاية

فقد أظهر انتماءه "الحقيقى" باختياره لشريكة حياته. لم يكن ذلك الشخص النخبوى المستنير الذى صور نفسه بصورته، بل كان واحداً من كثيرين هم تقدميون فى مظهرهم لكنهم فى الحقيقة ذكور مهنيون محافظون يرون أنه من الملائم أن يخرجوا مع زميلاتهم وصديقاتهم وأن يرتبطوا معهم بعلاقات حميمة ثم يختارون الزواج من ربة بيت تقليدية. وقد كانت تصرفات طارق توحى بطابع طبقى ينطوى على البساطة والتجاوب فى الأجواء الاجتماعية التى تجمع بين الجنسين وعلى توجهات تقدمية فيما يتعلق بأدوار الجندر وبالحشمة والعفاف المطلوبين من الأنثى. لكن زواجه " التقليدى " كما رأته نهال أظهر انتماءه الطبقى المتواضع.

وتوضح حكاية نهال عن طارق السياسات المعقدة للانتماء الطبقى فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا. ويكشف تحليلها لما أقدم عليه طارق من " سلوك طبقى" بعض جوانب منطق التمييز فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا. فالمظاهر والمهارات اللغوية تؤخذ على أنها إشارات مؤكدة إلى المستوى الاجتماعى وإلى الوسط العائلى المرتبط به. وغالبًا ما ينظر إلى الانتماء العائلى المتميز على أنه يعنى رقيًا حقيقيًا وعميق الجذور والتزامًا صادقًا بالتوجهات الكوزموبوليتانية " التقدمية " بالنسبة للجندر. ويعتمد التصوير الناجح للذات على اللعب بهذه المؤشرات. وتظهر قصة نهال فعالية رأس المال الثقافى كأسلوب للتميز وعلامة على انتماء طبقى معين، لكنها تظهر أيضًا هشاشة هذه الادعاءات ما دام الوسط العائلى هو مقياس صحتها.

استثمارات

وبعد ثلاثة عقود من التحرير الاقتصادى التدريجى والقضاء المتواصل على التسهيلات والخدمات العامة، أظهر المجال التربوى انكسارات عديدة لما هو "خاص" فتجلت الخصخصة فى مدارس خاصة غير مكلفة لكنها منخفضة الجودة وتقدم بدائل

متدينة للمدارس الحكومية التى تسوء سمعتها على نحو متصاعد. وغالبًا ما تكون هذه المدارس " فرصًا استثمارية " تستهدف الطبقة المتوسطة الدنيا العريضة والمدقعة. وعلى الطرف الآخر من المشهد يظهر " الخاص" باعتباره الاستهلاك الصارخ للدبلومات الأجنبية فى مدارس جديدة جيدة التجهيز بها أحواض السباحة وقريبة من الكومباوندات الفاخرة على امتداد الطرق السريعة فى الصحراء. وفى الوقت ذاته، يواصل نظام التعليم الحكومى المجانى اسميًا، الذى يرمز للمشروع التنموى فى العهد الناصرى، تخريج أعداد كبيرة من الطلاب، وقد وجدت الأغلبية الساحقة من هؤلاء الخريجين أن الشهادات التى بحوزتهم فقدت كثيرًا من قيمتها. ورغم ذلك، وحتى فى الشرائح الاجتماعية الأكثر تميزًا فإن التنافس على الشهادات والوظائف يعطى الإحساس بسباق الفئران حيث يتدافع الجميع من أجل فرص محدودة بمستقبل مقبول. وقد أجج سباق الفئران الاندفاع المتزايد إلى الاستثمار فى المدارس الخاصة والدروس الخصوصية. وتشير هذه الاستثمارات إلى اعتراف بالعلاقة المركبة بين نظام تعليم مزدوج وسوق عمل متشظ. وتشير هذه الاستثمارات إلى خطوط النبالة النسبية التى تواصل الصعود، كما تعبر عن إصرار عنيد، أيضًا، على الانتماء إلى الطبقة المتوسطة. إنه إصرار على حياة تحررت من الغبار، على وعد قديم يندر أن تجد من يستطيع أن ينساه أو يرغب فى أن ينساه.

تفحص هذا الفصل لحظة فى سياق أطول لتراتبيات متحولة اجتماعية واقتصادية وثقافية، حيث تمتزج تقسيمات وتمايزات قديمة وجديدة، على نحو مرتبك. ورغم أن قاهريين كثيرين يشكون من أن " النقود أصبحت كل شىء هذه الأيام " فإن أشكالاً جديدة من رأس المال الثقافى قد زادت فاعليتها فى خلق الفوارق والإيحاء بها. ومدارس اللغات الخاصة هى مواقع مهمة لاكتساب هذا الرأسمال الثقافى الرسمى وغير الرسمى. ويمكن أن يوصف جانب كبير من رأس المال الثقافى هذا بأنه رأس مال كوزموبوليتانى، بما أنه يستتبع تآلفًا مع المعرفة الغربية وتمكنا منها مع خبرة بالمعايير

القياسية والموضات السائدة عالميًا. وأصبحت اللغة أقوى علامات رأس المال الكوزموبوليتانى هذا، ليس فقط فى سوق العمل، ولكن أيضًا فى أساليب الحياة المميزة والطموحات المتجاوزة للقومية التى تميز قسمًا كبيرًا من الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة. وظهور المجلات التى تخاطب جمهورها المصرى بالإنكليزية هو مثال واضح على وجود شريحة متميزة وكوزموبوليتانية على نحو صارخ فى المجتمع الحضرى. والتطابقات بين هذه المجلات وبين سرديات المرحلة الليبرالية الجديدة فى مصر هى تطابقات مذهلة. فكلاهما يصور المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا باعتبارهم الجيل الجديد، الطليعة الاجتماعية التى ستمضى بمصر إلى عهد عولمى.

الفصل الثالث

منطق الإصلاح: حكايا سوق العمل القاهرى

قابلت كثيرًا من الشبان والشابات الذين واجهوا مصاعب فى سوق العمل وسمعت حكايا عديدة عن صعوبات العثور على وظائف ولو شبه مناسبة. وجلست مع مجموعات من الشبان على مقاهى الرصيف بدا أنهم لم يكن عندهم ما يفعلونه بحياتهم غير ذلك. لكن اجتماعا دام ساعتين مع خمسة شبان فى فبراير٢٠٠٣ هو الذى ترك لدى انطباعًا لا ينمحى.

طلبت من صديق لى ينتمى إلى الطبقة المتوسطة الدنيا أن يرتب لى مقابلة مع عدة خريجين آخرين ممن يكابدون صعوبات الواقع فى سوق العمل القاهرى. واتصل الصديق بأحمد الذى كان قد أنهى دراسة الحقوق قبل سنوات. فى ذلك الوقت كان أحمد يعمل لساعات طويلة فى مكتب محاماة صغير براتب لا يتجاوز ٢٥٠ جنيها شهريًا. جاء أحمد ومعه أربعة شباب تعارفوا إبان الدراسة فى كلية التجارة بجامعة عين شمس. تمتع هؤلاء الشباب الذين كانوا فى منتصف العشرينيات بمظهر لائق للغاية، بملابس الطبقة المتوسطة الدنيا الكاجوال التى يتوقع المرء أن يراها على المحاسبين الشبان: بنطلونات قطن واسعة، وقميص، وجيرسى ملون. وقد تخرج الجميع، باستثناء أحمد المحامى، قبل ستة أشهر وكانوا قد توظفوا بالفعل. ورغم أن أحمد غالبًا ما كان يأخذ بدفة الحديث، فإن مساهمة من أحد أصدقائه بدت أنها الأكثر تعبيرًا عن أزمتهم المشتركة. فقد راح يكرر، وهو يشد بيده الجيرسى " كنت طالبًا ممتازًا ولكن انظرى إلى الآن. لا أريد أكثر من أن أشترى سويتر جديدًا ".

وقد كان الخمسة متوافقين فى القسم الأعظم من الوقت الذى استغرقته المناقشة. كان بوسع الواحد منهم أن يتحدث نيابة عن الآخرين فيما يتصل بخبرتهم بسوق العمل وبالشعور بأن خديعة ما حرمتهم من مصير موعود. وقد احتوت حكاياهم التى كثيرًا ما كانت بالغة المرح على شعور باليأس والسخرية فيما يتعلق بالحكومة والممارسات المريبة للناس الذين قابلوهم وهم يبحثون عن سبيل مناسب للعيش، من صاحب العمل فى مكتب لنسخ الأوراق إلى رجال الأعمال الذين هربوا من البلاد تاركين وراءهم ديونًا هائلة لم تسدد. وبعد أن انتهى اجتماعنا أمطرونى بالأسئلة عن إمكانات العمل فى أوربا. كلهم كانوا راغبين فى الرحيل، فقط لو أتيحت لهم الفرصة. لكن لم يبد أن لديهم أى فكرة عما يمكن أن يتوقعوه ولا كيف يمكنهم تدبير ذلك.

هؤلاء الشبان الذين أسميهم شلة أحمد هم جزء من جيش كبير من الخريجين الشبان العاطلين فقد تضخمت أعداد المتعلمين فى تسعينيات القرن العشرين فى حين تضاءلت فرصة التوظيف التى كانت بالفعل غير كافية فى العقدين السابقين، بفعل تضاءل فرص هجرة العمالة وعودة العمال المهاجرين وكذلك محدودية الوظائف المتاحة فى القطاع الخاص (تورنيه ٢٠٠٣)[٢٨]. وقد انشغلت البلاد بتضخم أعداد الخريجين العاطلين. فقد كان هؤلاء الخريجون الشباب العاطلون غير قادرين على الانتقال إلى مرحلة النضوج، وخاصة إلى مرحلة الحياة الزوجية. ولم تكن هناك مساكن كافية ولا بكلفة يقدرون عليها لحديثى الزواج ولا دخل لدفع الإيجار والإنفاق على أسرة. هؤلاء الخريجون الذين اكتسبوا صفة العزاب المرغمين على العزوبية أصبحوا يصورون بصورة "جيل ضائع" معرض للرذيلة وللتطرف (تورنيه ٢٠٠٣). وبالمقابل فقد كان متاحًا للمهنيين من الطبقة المتوسطة العليا أن يجدوا وظائف كمديرين أو مهنيين فى الشرائح العليا ذات التوجه الدولى من الاقتصاد الحضرى حيث تكون الأجور، عادة، خمسة أضعاف الأجور فى مؤسسات مناظرة خارج هذا القطاع. وقد لاحظ سعد الدين إبراهيم بدايات هذا التشظى فى مطالع الثمانينيات من القرن العشرين

(١٩٨٢: ٥٢- ٥٣، ١٩٨٧: ٢٢٥). وفى العقود التالية أصبح التشظى من ملامح تنظيم سوق العمل فى مصر. وفى مطلع القرن الحادى والعشرين كانت الحصة النسبية للطبقة المتوسطة العليا تقارب ١٥ إلى ٢٠ فى المائة من الطبقة المتوسطة المهنية فى القاهرة، و٥ إلى ٧ فى المائة من كل القاهريين[٢٩].

ولم تتألف الشريحة ذات التوجه الدولى من الطبقة الراقية من منتسبى الشركات متعددة الجنسية وحدهم ولكن أيضًا من شركات مصرية كبرى نظمت على نسق مماثل لذلك الذى يوجد فى نظيراتها من متعددات الجنسية، مثل شركات التليفون المحمول والبنوك التجارية. وضمت هذه الشريحة أيضًا وكالات تقدم خدمات إنتاج تجارية لهذه الأخيرة، ومنظمات غير حكومية ممولة من الخارج، وشركات خاصة تؤمن خدمات لعملاء أثرياء، مثل الأطباء فى العيادات الخاصة ومثل المعماريين (عبد المعطى ٢٠٠٢: ٣٢٤ - ٣٣٠ وعبد الرحمن ٢٠٠٧) ومن الصعب أن نرسم ملامح هذه الشريحة الراقية بوضوح على أساس القطاع أو حجم الشركة أو الملكية. إنها تتألف من شركات فى قطاعات مختلفة (وإن كانت عمومًا " قطاعات التنمية العولمية " فى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وفى الاستشارات وخدمات الإنتاج التجارى، والتنمية وما إلى ذلك) بملكية محلية وأجنبية. وقد امتدت خطوط التشظى أيضًا داخل الشركات والمؤسسات بعد أن استخدمت معظم الشركات الراقية أيضًا موظفين أقل تمتعًا بالامتيازات، مثل "السعاة". وقد تشابهت أجور هؤلاء الموظفين الصغار عمومًا مع الأجور خارج الجزر الراقية فى سوق العمل أو زادت عنها قليلاً، بل إن المؤسسات الحكومية بدأ يظهر عليها تشظ من هذا التنوع. وما ميز الوظائف الراقية بأكبر قدر من الوضوح كان نوع المهنى الذى كان يعرف عنهم أنهم يسعون وراءه: المهنى المتمتع برأس مال كوزموبوليتانى ومهارات مشابهة وكذلك المنتمى إلى محيط اجتماعى معين.

وموظفون بهذا التميز يكون بوسعهم الفوز بأجور مكافئة للتميز. وفيما كان العرض المتدفق للعمالة يدفع بأجور الموظفين المتعلمين إلى ما دون مستويات المعيشة،

بقى هذا القطاع يعمل وفق معايير مختلفة. فقد مالت الأجور إلى أن تكون أعلى من تلك التى تدفع فى وظائف مشابهة فى قطاعات أخرى من الاقتصاد الرسمى بثلاثة إلى خمسة أضعاف، لكنها وصلت فى بعض الحالات إلى الزيادة بعشرين ضعفًا. وفى ٢٠٠٢ كان شائعًا أن تحصل سكرتيرة فى مكتب صغير على حوالى ٢٥٠ جنيها، فى حين كانت سكرتيرة تنفيذية فى شركة كبيرة تستطيع أن تكسب بسهولة ٢٥٠٠ جنيه، تمامًا كما أن مهندسًا فى مشروع صغير قد يبلغ ٥٠٠ إلى ١٥٠٠ جنيه مصرى، وفى شركة إنشاءات متعددة الجنسية أو محلية راقية كان من الممكن أن يتوقع راتبًا قدره ٥٠٠٠ جنيه مصرى[٣٠]. وتذكر مها عبد الرحمن أن الجمعيات الأهلية (المولة دوليًا) تعد بين أكثر أصحاب الأعمال سخاء فى الرواتب. فقد كانت الرواتب فى الجمعيات الأهلية الصغيرة إلى المتوسطة تساوى راتب " الموظفين ذوى التأهيل والخبرة مرتفعى المستوى (فى القطاع الخاص) فى حين كانت الأنساق العليا من القطاع الخاص وحدها هى التى قد يتأتى لها أن تصل إلى الحد الأدنى من هذا السلم " (٢٠٠٧: ٧٩).

وأنا أرسم، فى هذا الفصل، صورة سريعة للأزمات التى يواجهها حديثو التخرج من الأوساط الاجتماعية والتربوية المتباينة فى سوق العمل. وأنا أعتمد على سرديات المهنيين الذين يحق لهم أن يتوقعوا وظيفة مستقرة فى " شركة مناسبة " والذين أصبحت الوظائف الحكومية بالنسبة لهم طيفًا بعيدًا وغير جذاب، وكذلك على حكايا أولئك المهنيين الذين كانت تبدو لهم هذه الوظائف الحكومية جذابة فى ضوء الاضطراب المربك والمحبط فى القطاع الخاص. وأنا أتفحص خبراتهم الشديدة التباين وكذلك المنطق المختلف لدى كل منهم وما تسلح به من حس سليم يستخدمه حين يواجه مسألة الوظيفة والحياة المهنية. وهؤلاء المهنيون الشباب هم بالضرورة خبراء فى تحليل السوق والتخطيط المهنى. ومع ارتفاع معدلات البطالة وتسارع وتيرة التحول فى المشهد الاقتصادى يمكن أن تؤمن المعرفة والاتصالات عنصر التفوق الحيوى. وهذه المعرفة، وإن كانت مجزوءة ونسبية، هى التى يقوم عليها هذا الفصل.

وتسمح لى حكاياهم بأن أرسم صورة سريعة عن الكيفية التى تجسدت بها التمايزات، التى عرضت لها على نحو سريع فى الفصل الماضى، فى الاقتصاد الحضرى للقاهرة. فأنا أبدأ بتفحص بعض أزمات الخريجين ذوى النصيب الأدنى من الامتيازات والذين استبعدوا، فى الغالب، من مجال الشركات الراقية وأصبحوا أهدافًا محتملة لبرامج الإصلاح. فقد أصبح اكتساب رأس المال الكوزموبوليتانى البالغ الأهمية بالنسبة للوظائف الراقية أمرًا يسعى إليه الجميع وإن كانت نتائج هذه الإجراءات الإصلاحية أبعد شىء عن الوضوح. وبعد ذلك أوجه اهتمامى إلى الشريحة الراقية التى تتوظف فيها أرستقراطية العمل الجديدة بما لديها من رأسمال كوزموبوليتانى. وأنا أدفع بأنه فى مطلع القرن الحادى والعشرين حتى هذه الشريحة الراقية من الاقتصاد الحضرى بدأت تظهر فيها الشقوق.

دورات لإعادة التأهيل

قالت فاطمة وفريدة وهما جامعيتان حديثتا التخرج وهما ترويان تجاربهما " لقد أصبحنا خبراء فى أخذ الدورات. كفى ! نريد أن نعمل ! لكن لا يوجد عمل على الإطلاق هذه الأيام ". ورغم أن الاثنتين تنتميان إلى أوساط الطبقة المتوسطة المهنية، فهما لم تدرسا فى مدارس اللغات الخاصة الضرورية لاكتساب الطلاقة فى اللغات الأجنبية كما هو مطلوب، وكذلك رأس المال الثقافى المجسد وغير الرسمى الأكثر مراوغة والذى يشير إلى الانتماء إلى الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة. وبعد أن أخذتا عدة دورات فى الإنكليزية والكمبيوتر شعرتا أنهما لم تحصلا على شىء، لا تبدو فى الأفق فرصة عمل، وجيل بأكمله يحاول، كما تحاولان، اكتساب المهارات، التى أصبحت شائعة، فى اللغة الإنكليزية والكمبيوتر. وخلصت فاطمة إلى أنه " لم يبق إلا أن نتمنى قيام ثورة " ولم تكن هذه نكتة بالمعنى الكامل. لم تكونا تريان فرصة للحصول

على وظيفة شبه مقبولة فى وقت بدأ فيه القطاع الخاص يفصل موظفيه، والشركات الصغيرة تشهر إفلاسها أو اختفت، ببساطة، بعد فترة قصيرة من تأسيسها، وحتى الحكومة لم تعد توظف الناس.

ولم يكن ممكنًا العثور على وظيفة مناسبة، كما قالتا، إلا بالواسطة (بشخص يستخدم نفوذه لصالح آخر، أى الاتصالات، والجمع وسايط) وغالبًا ما ينظر إلى أهمية الواسطة وسعة انتشارها كعلامة على انتشار الفساد فى اللحظة الراهنة. فالإنسان يحتاج الواسطة ليقبل فى المدارس المحترمة ولينهى معاملاته فى مكاتب البيروقراطية وليحصل على وظائف فى الحكومة أو القطاع الخاص. وفى مكان العمل تكون الواسطة مهمة للترقية والحوافز والصفقات الكبيرة أو حتى لمجرد الحصول على الراتب أو الاحتفاظ بالوظيفة. وعندما تعوزك الواسطة فما تحتاجه هو الصبر والتحمل، برأى فاطمة وفريدة. وتكشف حكاياهما ما يمكن أن يعنى الصبر بالنسبة لهما: صعوبة الحصول على وظيفة، وإذا تم الحصول عليها فلا بد من قوة التحمل ولا بد من التسليم فى مواجهة المعاملة السيئة وساعات العمل الطويلة والراتب المنخفض.

ولكى تتحسن الفرص المتاحة لهما فى سوق العمل ولمجرد أن تبقيا مشغولتين وليكون لديهما مبرر للخروج من المنزل، فقد بحثت فاطمة وفريدة عن دورات فى المعاهد الحكومية وشبه الحكومية، وخاصة الدورات التى تنظم تحت مظلة الصندوق الاجتماعى للتنمية، الذى أقيم ليمد أولئك الذين أضيروا بسياسيات التكيف الهيكلى فى مصر بمظلة أمان (أسعد ورشدى ١٩٩٩: ٤٥، إلياتشار ٢٠٠٢). ويقدم الصندوق الاجتماعى دورات تدريب تحويلى لخريجى الجامعات العاطلين عن العمل. وتستهدف هذه الدورات بالأساس خريجى الجامعات الذين لا تلاقى درجاتهم العلمية رواجًا فى سوق العمل، مثل الآداب والتجارة والخدمة الاجتماعية والحقوق والتى يختلف وضعها عن وضع الدرجات المطلوبة أكثر من غيرها مثل الطب والهندسة والسياسة والاقتصاد والصيدلة،

ويتلقى المتدربون مكافأة ضئيلة طوال شهور التدريب الثلاثة. وكما لاحظ أحمد، المحامى الذى قابلناه فى بداية هذا الفصل، بسخرية بالغة، فهذه الدورات يشار إليها بالفعل كفرص للتوظيف لخلق الانطباع بأن الحكومة تعالج بنجاح المعدلات المرتفعة للبطالة. وبعد إكمال الدورة يمكن للمشاركين أن يقدموا لطلب قرض لبدء مشروع صغير.

وإضافة إلى هذا العرض الحكومى فإن مؤسسة جيل المستقبل كانت تعطى ما وصف بأنه دورات عالية الجودة. ويرأس هذه المؤسسة جمال مبارك، وهو نجل الرئيس الذى يدعو بقوة إلى المزيد من لبرلة الاقتصاد ومزيد من الانخراط فى السوق العالمى. وقد أصبح " جمال " قوة سياسية لها نفوذها الخاص، وقد أحكم قبضته بشكل مؤثر على سياسات الحكومة خلال عامى ٢٠٠٣ و ٢٠٠٤ (٣١). ورغم الإنكار المتكرر من جانب الرئيس مبارك، فالقاهرة تمور بالتكهنات حول مركز جمال باعتباره مرشحًا لوراثة منصب الرئاسة. والمقصود بدورات جيل المستقبل التى تعلم الشباب حديثى التخرج اللغة الإنكليزية والكمبيوتر ومهارات العرض هو مساعدة الشباب على مواكبة الاقتصاد العالمى. وقد كانت مؤسسة جيل المستقبل، على نحو متفائل، صدى لسياسات صندوق النقد الدولى والبنك الدولى التى أوحت بأن مزيدًا من الاندماج فى السوق العالمى يمكن أن يسفر عن تحسين مستويات العيش للجميع.

وطبقًا لبيان المهام الخاص بها فإن المؤسسة سوف " تساهم فى التنمية الاقتصادية وزيادة القدرة على التنافس دوليا، فى مصر " وذلك عن طريق " المساعدة فى ترقية ثقافة الشركات المحلية. وفى اقتصاد يقوده القطاع الخاص فإن هذا سيترجم إلى مزيد من الازدهار المالى للأمة بشكل عام، وإلى دور قيادى فى الاقتصاد الإقليمى، وإلى مركز قوى فى السوق العالمى "(٣٢).

وقد تطلع كثير من الخريجين المتعطلين إلى هذه الدورات التأهيلية طلبًا للخلاص، آملين فى أن يتحولوا من أشخاص مندرجين ضمن العاطلين الذين يجلون عن الحصر

ممن يحملون شهادات تراجعت قيمتها بشدة، إلى مهنيين من أولئك الذين يتحركون بإيقاع سريع، ذوى الملابس الباهرة، الذين أعلنت عنهم مؤسسة جيل المستقبل، على نحو واسع، فى الإعلان الذى نوقش فى الفصل الأول. والسؤال هو هل هؤلاء الخريجون سيجدون، بالفعل، وظيفة تستخدم على نحو فعال مهاراتهم الجديدة، ناهيك عن وظيفة فى شركة متعددة الجنسية أو شركة محلية راقية. ولكن سوق العمل ليس مفتوحاً أو شفافاً بالدرجة التى قد يوحى بها برنامج المؤسسة. ففرص التوظيف شديدة الارتباط بالوسط العائلى والمسار الوظيفى للمرشحين للوظائف (برسوم ١٩٩٠). ولدى مها عبد الرحمن رأى مماثل " بما أن معظم وظائف الجمعيات الأهلية تتطلب معرفة مناسبة بالإنكليزية وبمهارات الكمبيوتر فإن من يمكلون أفضل تعليم من الطبقات المتوسطة والمتوسطة العليا هم وحدهم المؤهلون وليس المكافحون من أبناء الطبقات الدنيا الذين يستبعدون بسبب تعليمهم الحكومى الرديء" (٢٠٠٧: ٨٢). ورغم أن هذه الدورات العلاجية تمدهم بالنزر اليسير من المهارات الضرورية لمثل هذه الوظائف، فليس بوسعهم مضاهاة مستوى أولئك الذين تضمن تعليمهم فى البيت وفى الدروس الخصوصية هذه المهارات. وفوق ذلك، فإن الوظائف الراقية لها غير ذلك من المتطلبات الضمنية وغير الرسمية، وأهمها الوسط العائلى المتميز والمدار الاجتماعى الراقى. وقد انقسمت الطبقة المتوسطة بين " أولاد الناس "، أبناء العائلات، الذين يحتكرون الوظائف فى الشرائح العليا، وغيرهم ممن يفتقرون إلى رأس المال المناسب للتطلع إلى وظائف كهذه. لقد رسمت خطوط النبالة النسبية، بالفعل، وتواصل رفعها بفضل المنافسة المتزايدة على عدد محدود من المراكز الجيدة فى الشريحة العليا من الاقتصاد.

ولم تكن فريدة تتوقع أن تتمكن من الفوز بواحدة من هذه الوظائف المرغوبة. فالوظائف التى تيسر لها الحصول عليها كانت كلها فى شركات صغيرة شبه رسمية

وبدأت كلها برواتب تتراوح بين ١٥٠ و ٢٥٠ جنيها مصريا. وتقول برسوم إن الخريجات يواجهن إنكارا لإنجازاتهن التعليمية وما يتصل بها من مركز اجتماعى، كما يعانين الخوف من التحرش الجنسى فى المكاتب الصغيرة وشبه الرسمية، باعتبار هذه الأمور المشكلات الرئيسية فى العمل لدى القطاع الخاص (برسوم ١٩٩٩: ٨٣). وقالت فريدة إنها لم تعد تحلم بالوظائف التى كانت تتخيلها لنفسها. وإذا قبلت بأى وظيفة فسوف تفعل ذلك، كما قالت، لمجرد أن تتمكن من دفع نفقات دورة جديدة.

طاقات الإبداع التجارى

فى مطلع القرن الحادى والعشرين ظل خريجو الجامعات يشغلون الأمة، ليس بوصفهم الأبطال المثيرين للإعجاب فى أمة نامية متعلمة، بل جرى تصويرهم كمصدر للمشكلات وللإحباطات ولانحرافات محتملة (تورنيه٢٠٠٢). وهذه الجماعة الأقرب إلى تجسيد مشكلات التحول عن التنموية فى المرحلة الناصرية السابقة إلى المشروع النيوليبرالى الراهن كانت تستهدفها محاولات الإصلاح. فبدلاً من أن ينتظروا حتى تؤمن لهم الحكومة الوظيفة وفتات حياة الطبقة المتوسطة، أصبح متوقعًا من هؤلاء الشباب أن يتجهوا إلى القطاع الخاص. ووفقًا للسياسة الحكومية الرسمية فإن الدور النموذجى لهم يجب أن يكون صاحب المشروع التجارى لا الموظف الحكومى (تورنيه ٢٠٠٢: ١٩). هذا التأكيد على عناية المرء بنفسه وتحفيز الشباب باتجاه المشروع الخاص أصبحا توجهات شائعة فى البلدان التى تسعى المنظمات الدولية والحكومات إلى إعادة صياغة العقد الاجتماعى فيها.

ومع الابتعاد عن مشروع التنمية الضخمة التى كانت تعتمد على الدولة تزايد اعتماد المنظمات الدولية على المنظمات غير الحكومية باعتبارها " شركاء فى التنمية ". ويتوافق تحويل موقع التنمية ولاعبيها الرئيسيين توافقًا بالغًا مع المفهومات النيوليبرالية

التى تدعو إلى " انكماش الدولة وانسحابها من ميدان النشاط الاقتصادى " (إلى آخر ٢٠٠٢: ٤٩٦، عبد الرحمن ٢٠٠٤) وتعتبر جوليا إلى آخر هذه البرامج " مشروعات تنمية غير تنموية "؛ لأنها تقوم على رفض سياسات التنمية الأسبق؛ ولأنها مصممة باعتبارها نقيض التنمية المعتمدة على الدولة، وتسوق على هذا الأساس. وقد أصبحت المنظمات غير الحكومية الشركاء المفضلين فى التنمية. وهم يقدمون باعتبارهم ممثلى المجتمع و"المجتمع المدنى" فى حين تصور الدولة، فى المقابل، على أنها معادية للشعب (إلى آخر ٢٠٠٢: ٤٩٥).

وفى سياق هذه الفلسفات المناهضة للتنمية بدأت منظمات دولية مثل البنك الدولى تهلل للقطاع غير الرسمى - الذى كان ينظر إليه قبل ذلك، باعتباره جوهر التخلف الاقتصادى والثقافى - باعتباره " طليعة الابتكار التجارى فى العصر العولمى (إلى آخر ٢٠٠٢: ٤٩٦).

وكما تقول إلى آخر لقد تم استخلاص بعض الملامح الرئيسية للممارسات التى درجت قطاعات عريضة من فقراء الحضر على الاعتماد عليها مصدراً للعيش وطورت كنماذج للحزم التنموية المناهضة للتنمية فى البرامج الموجهة إلى الاقتصاد غير الرسمى.. فالممارسات الثقافية المتخلفة بالأمس تصبح اليوم شيئا يستحق الإعجاب بل قد يجرى تدريسها لعمال القطاع العام الميئوس منه الذى تم تحجيمه ولأولادهم (٢٠٠٢: ٥٠٠) وسارعت الحكومة المصرية بتبنى التعويذة السحرية للمشروع المتناهى الصغر. والعجيب أن " الحكومة المصرية تبنت (بذلك) أجندة بدأت كطريقة لتجاوز الجوهر الفاسد للدولة فى العالم الثالث والتغلب عليها " (إلى آخر ٢٠٠٢: ٥٠٢).

وبتوجيه من المانحين الدوليين وبمساندة مالية منهم قام عدد من المنظمات غير الحكومية والهيئات شبه الحكومية لمعالجة بعض الآثار السلبية المترتبة على التكيف

الهيكلى (أسعد ورشدى ١٩٩٩، إلى آخر ٢٠٠٣،٢٠٠٢) وأكبر هذه الهيئات وهو الصندوق الاجتماعى للتنمية أنشئ كوكالة منفصلة يمولها المانحون الأجانب، لكن الدولة كان لها دورها الفعال فى إدارته وسياساته. وقد وجه الصندوق لما سبق ذكره من برامج وتدريب ومن قروض للخريجين العاطلين الراغبين فى إقامة مشروعات (أسعد ورشدى ١٩٩٩: ٦٤-٦٦). وبرامج الائتمان متناهى الصغر هذه تصور كعلاج شامل للمشكلات الاجتماعية. وكان متوقعًا من المصريين، وخاصة جيش الخريجين العاطلين بما له من ثقل اجتماعى، أن يضعوا أرواحهم على أكفهم، ويستخدموا رأس المال الابتدائى الذى يقدمه لهم أحد الصناديق المعنية بالمشروعات الصغيرة. ولم يحدث تقويم مستقل لجدوى قروض الصندوق الاجتماعى للتنمية بالنسبة لشباب الخريجين الذين تحولوا إلى أصحاب مشروعات. ورغم ما يصدر عن الصندوق من ادعاءات بالنجاح يعرب رجوى أسعد وملك رشدى عن شكوكهما القوية فى أن تكون هذه القروض قد ساهمت مساهمة حقيقية فى النمو المستدام للوظائف. " فالخريجون المتعطلون الذين لا يملكون خبرة بسوق العمل أو بإقامة المشروعات مستبعدون من قائمة المرشحين للنجاح فى قطاع الأعمال الصغير الذى تحكمه تنافسية شديدة " حسب رأى الباحثين (١٩٩٩: ٨٦). والمعدل المرتفع للعجز عن السداد فى هذا القطاع هو علامة شؤم محقق (المرجع السابق)[٣٣].

وقد ذكر أحمد أنه فكر بالتقدم لطلب قرض بعدة ألوف من الجنيهات المصرية، لكنه وجد أنه بحاجة إلى " نصف البلد كضامنين له، فى حين أن أولئك الناس (مشيراً إلى عمالقة البيزنيس الذين عجزوا عن سداد القروض) يأخذ الواحد منهم ثلاثة ملايين ويهرب من البلاد ".

وأشار أحمد إلى فضيحة المليارت الضائعة من قروض قدمت لرجال الأعمال الكبار، وهى ظاهرة بلغت فى ذلك الوقت ذروتها، للمرة الثانية. وطوال تسعينيات القرن الماضى، تم " تنشيط القطاع الخاص بقروض هائلة لعدد محدود من رجال الأعمال

الكبار. قدمت البنوك المملوكة للدولة هذه القروض، وغالبًا من دون ضمانات مناسبة. هذان النوعان من القروض كانا جزءًا من برنامج إعادة الهيكلة. والصناديق التى أنشئت لتكون شبكة أمان بوجه هجمة اللبرلة الاقتصادية فى سوق العمل كان يفترض أن تقدم قروضًا صغيرة للآلهة الرأسمالية الأصغر حجمًا (إلى آخر ٢٠٠٢) وكان المقصود بالقروض الموازية الضخمة للرأسماليين هو تقوية القطاع الخاص. لكن هذه القروض لم تسفر إلا عن طفرة مؤقتة فى إنشاء المساكن والمنتجعات الفاخرة وكذلك أسفرت عن معدل مرتفع لحالات العجز عن السداد (ميتشيل ٢٠٠٢).

وفى مسلسل تليفزيونى شعبى فى رمضان فى ٢٠٠٢ نوقشت قضية عجز رجال الأعمال عن سداد ديونهم، ونوقشت القضية الأشمل المتعلقة بثراء النخبة وفسادها. فقد روى مسلسل أميرة فى عابدين قصة امرأة من أسرة تجارية غنية أجبرت على مغادرة فيلتها الفخمة المزودة بحوض للسباحة بعد أن فر زوجها وزوج ابنتها من البلاد بمبلغ كبير من المال اقترضاه من بنوك مملوكة للدولة. ثم تعود أميرة إلى شقتها القديمة فى عابدين الحى القاهرى الشعبى. وفيما كان بحث الشرطة عن الهاربين يمثل خلفية الأحداث فقد ركز المسلسل على أميرة وهى تعيد اكتشاف الشخصية الرصينة والروح الاجتماعية القوية فى سكان عابدين من الطبقات الشعبية والمتوسطة الدنيا. وبما يتمشى مع هذا التصوير المبالغ فيه لحقائق الواقع القاهرى يبدو حى عابدين مكانًا خاليًا من البهرج وإن كان نظيفًا ومريحًا وكل الشقق فى عمارة أميرة فسيحة وجيدة الصيانة وجذابة.

ورغم أن المسلسل ناقش مسألة ساخنة هى فساد رجال الأعمال وتلاعبهم بالأموال العامة فقد ركز على حياة أميرة بعد " عودتها " إلى عابدين.. وسرد المسلسل كيف تحقق الخلاص للشخصية المنتمية إلى الطبقة المتوسطة العليا عندما عادت للاقتراب من ملح الأرض من المصريين الأقل ثراء وإن كانوا أكثر نقاء وأصالة. ويمكن قراءة المسلسل باعتباره قصة لأمة تستعيد عافيتها، ولإعادة تأسيس التحالف الحداثى

المصرى بين الطبقات الذى ظل طويلا، كما أشرت فى الفصل الثانى، مبدأ مركزيًا فى الخطاب الحداثى المصرى. فالمسلسل يحاول إعادة إدماج النخبة التجارية الثرية التى لوثتها فضائح عديدة فى الأمة التى انقسمت طبقيًا لكنها حافظت على وحدتها. لكن اللافت للنظر أن المسلسل تجنب مناقشة القضية الرئيسية الأخطر والمتمثلة فى التفاوت الاجتماعى – الاقتصادى فى عصر الليبرالية المصرية الجديدة.

العودة للتراب

" إن فاتك الميرى إتمرغ فى ترابه " هكذا يقول المثل المصرى العتيد[٣٤]. فالوظيفة الحكومية، مهما كانت وضيعة، هى أفضل من أى وظيفة أخرى. وقد ظلت الوظائف الحكومية، لزمن طويل، وعدا بحياة آمنة ومريحة نسبيًا. ورغم أن الوظيفة الحكومية كانت حقًا من حقوق الحاصلين على تعليم عال أو متوسط فى العهد الناصرى، فإن هذا المثل يعكس قيمة زمن أقدم، عندما كانت الوظيفة الحكومية مرغوبة للغاية وإن كانت صعبة المنال (انظر، مثلا، عبد الفضيل ١٩٨٠: ٩). وكما تلاحظ فاطمة فرج فإن هذا المثل يبدو أنه فقد أهميته مع بداية سياسات الانفتاح، وتخلى الدولة عن دورها فى الرعاية فيما يتعلق بتأمين الوظائف وترتيبات الرفاه، ومع تنامى التأكيد على القطاع الخاص[٣٥].

وفى بداية الثمانينيات أعلن ووتربيرى أن الوظائف الحكومية هى " الملجأ الأخير لطالب الوظيفة " (١٩٨٣: ٢٦٢). ومع ذلك، فبعد أن انفجرت التظاهرات ضد تطبيق قواعد السن على موظفى الحكومة الجدد، علقت فاطمة فرج قائلة إن هذه الأيام تشهد "العودة للتراب". فأعداد كبيرة تعاود السباق على وظائف الحكومة[٣٦].

وقد أصبحت وظائف الحكومة، مجدداً، جذابة بالنسبة للخريجين الجدد الذين بدا أن قدرهم هو البقاء فى المستويات الدنيا من الطبقة المتوسطة (تورنيه٢٠٠٢) وقد

أخبرنى كثيرون أنه حالما تعلن الحكومة عن فرص للتوظف فهم يعرفون؛ لأن شارع القصر العينى والشوارع المتفرعة منه تقوم فيها غالبية الوزارات ولهذا فهى تزدحم بالشباب الذين يحملون ملفات بمغلفات بلاستيكية. فبالمقارنة إلى الوظائف ذات الراتب المتدنى والمفتقدة للاستقرار فى القطاع الخاص تبدو وظائف الحكومة بديلاً مقبولاً، رغم الانخفاض الشديد فى الأجور، التى تدنت إلى أن أصبحت جزءًا مما كان قيمة حقيقية متواضعة فى ١٩٨١ (أسعد١٩٩٧: ٩٢). ورغم ما تقدمه الحكومة من رواتب شحيحة، غالبًا، فإن وظائفها تعنى استقرارًا وظيفيًا حديديًا، وتأمينًا، ونظامًا للمعاش التقاعدى، وساعات عمل محدودة. وتسمح ساعات العمل المحدودة والتى تكون غالبًا مرنة للذكور بأن تكون لدى الواحد منهم وظيفة أو أكثر، بعد يوم العمل، إضافة إلى الوظيفة الحكومية. أما الموظفات فإن العمل بالحكومة لا يعطل إلا عددًا محدودًا من واجباتهن المنزلية ومسئولياتهن الأسرية التى يتوقع أن يحملنها. وفوق ذلك فقد اعتبرت مكاتب الحكومة أكثر أمانًا واحترامًا بالنسبة للنساء بعكس ظروف العمل فى القطاع الخاص الذى تحكمه الأهواء.

وقد كانت شلة أحمد تنظر بقدر مماثل من الإيجابية إلى وظائف الحكومة. ففى ضوء الاضطراب الذى خبروه مرارًا فى الوظائف الصغيرة التى شغلوها فى القطاع الخاص – مثل تأخر الراتب لعدة أشهر، أو انقطاعه تمامًا، أو الفصل المفاجئ – فإن وظائف الحكومة بدت خيارًا مناسبًا. وبعد أن سرد حكايا عديدة عن المهانات والأجور البالغة التدنى فى وظائف القطاع العام خلص أحمد إلى أنه " مع هذا النوع من الوظائف ليس بوسعك أن تفعل شيئًا ". ما دمت لا تقدر أن تدخر مليمًا من راتبك، فلن يكون بوسعك حتى أن تفكر بالزواج. لا يمكنك أن تبدأ مشروعًا تجاريًا. ومع قلة ما تكسبه والوقت الطويل الذى تنفقه فى العمل لن يكون بوسعك حتى أن تقرر نسيان المستقبل لتعيش حياتك ". وقد مر الشباب من شلة أحمد بتجارب مماثلة بعد أن قضوا

ستة أشهر يبحثون عن عمل ولم يكن البحث قد أسفر، بعد، عن نتيجة ملموسة. فالوظائف التى نجحوا فى الحصول عليها كانت فى الغالب شحيحة الراتب لدرجة أنه، بعد خصم ما ينفقونه على الانتقالات والطعام خلال يوم العمل الذى يمتد إلى اثنتى عشرة ساعة لم يكن يتبقى إلا القليل من الراتب.

وبرغم مركزهم البائس فى سوق العمل ومحدودية آفاق التغيير فقد بدا أن كثيراً من الخريجين الشبان مترددون فى قبول وظائف أدنى من مستواهم التعليمى. وقد روت لى دينا وهى خريجة معهد خاص لإدارة الأعمال قضت فيه أربع سنوات، بلهجة مفعمة بالندم - واحدة من التجارب التى مرت بها. فقد صحبت ذات مرة صديقة حاصلة على مؤهل متوسط إلى مستشفى خاص بالغ الفخامة - " خمسة نجوم ومعظم أطبائه أجانب " - وكانت الشائعات تتحدث عن بعض الوظائف الخالية فى المستشفى. وقد تبين أن المستشفى يعرض نوعين من الوظائف: تشغيل الرجال فى تلبية الطلبات أو كأفراد أمن، والنساء فى وظائف المدبرات. قالت دينا إنها لم تكن تبحث عن وظيفة لكنها ذهبت لمجرد مساندة صديقتها. لكن المدير الذى جاء لمقابلتهما تجاهل الصديقة وعرض على دينا وظيفة مدبرة. قالت له إنها تخرجت فى معهد خاص ولا يسعها قبول الوظيفة. وأكد لها أنهم يعينون جامعيات كثيرات فى وظائف مماثلة، لكن دينا أصرت. "هذا مستحيل. لو فعلت أمراً كهذا لشعرت بالخجل. ماذا لو رآنى أحد زملائى؟ ماذا لو أساؤوا معاملتى؟ " ويذكرنا رد فعلها بما قاله آرمبراست (١٩٩٩) وهو يصف معنى أن تنتمى للطبقة المتوسطة فى مصر (انظر الفصل الثانى) يدفع آرمبراست بأن جوهر الانتماء إلى الطبقة المتوسطة يكمن فى القدرة على تجنب العمل الوضيع المشين اجتماعياً حيث يجبر المرء على الرضوخ للآخرين. إضافةً إلى ذلك فإن " سمعة البيت " أو سمعة أسرتها ستكون مهددة. واستمرت دينا تحكى. ورغم أنها دفعت بأنها كانت تريد أن تعمل وأن تسهم فى الميزانية المتواضعة للأسرة فقد شعرت بأنها " ليست

محتاجة حقًا ". وأضافت قائلة إن الأمر قد يكون مختلفًا بالنسبة للرجال فى مثل سنها. وحتى مع أن كثيراً من النساء يعملن فإعالة الأسرة هى مسئولية الزوج، بالأساس، وفق الاعتقاد الشائع. وقد يكون القبول بوظيفة متدنية أمرًا مقبولاً من شاب يتطلع إلى أن " يفتح بيتًا " (يؤسس أسرة) أو فى ضوء مسئولياته إزاء الأسرة التى أنجبته. لكن هذه المبررات لا وجود لها بالنسبة للنساء. فالأسرة التى ترسل ابنتها المتعلمة للعمل فى وظيفة متدنية وتحط من مركزها الاجتماعى يمكن النظر إليها باعتبارها شديدة الفاقة أو غير مسئولة أو غير أخلاقية أو جشعة.

وبرغم أسبابها الواضحة لرفض تلك الوظيفة، فقد ظلت دينا تستعيد ذكرى ظروف العمل الممتازة والراتب السخى فى المستشفى. وقد صورت المستشفى باعتباره ذروة النظافة والشفافية والنزاهة، مع تحديد واضح لساعات العمل ودفع أجر الوقت الإضافى، مع التأمينات وبدلات الانتقال والزى الإجبارى. وقد بدا لها التزام المستشفى بعدم تعيين أقارب الموظفين الحاليين رمزًا للنزاهة والوضوح. وعندما سألتها عما تنوى فعله بدلا من ذلك، قالت دينا إنها تنتظر واسطتها لتحقق لها شيئًا ما. فأحد أعمامها موظف حكومة وقد وعد بتعيينها فى وظيفة بمكتبه، فى الوقت المناسب.

وقد ظهر موضوع الوظائف المتدنية كثيراً فى محادثاتى مع الخريجين من الطبقة المتوسطة الدنيا. وأشار محمد، وهو أحد الأعضاء الشبان فى شلة أحمد إلى أنه برغم ما لاقوه من صعوبات وهم يدرسون فى المرحلتين الثانوية والجامعية، فالسباك يكسب أكثر منهم " بدون أى شهادة من أى نوع ". وشخصية السباك هى شخصية محملة بالعديد من الإيحاءات فى الذاكرة الاجتماعية للطبقة المتوسطة. ففى نهايات السبعينيات وفى الثمانينيات من القرن الماضى وجد كثير من أصحاب الحرف وظائف برواتب مجزية فى البلدان العربية، مما أسفر عن نقص فى العمالة الماهرة وارتفاع فى أجورها. وفاقم من آثار هذا النقص الطفرة المعمارية التى نشأت عن تحويلات العمالة المهاجرة التى استثمرت فى العقارات (ريتشاردز ووتربيرى ١٩٩٦: ١٢٨). وأصبح

المهنيون من الطبقة المتوسطة يجدون صعوبة فى دفع أجور هذه الخدمات الفنية وراجت الحكايا عن الحرفيين الذين أثروا، ووجدوا لأنفسهم مكاناً فى الطبقة المتوسطة المحترمة بما اشتروه من مساكن وسيارات بل زوجات من الطبقة المتوسطة. وسرعان ما التقطت السينما هذه الحكايا فى الثمانينيات. ومن الأمثلة على ذلك قصة على وأسرته من الطبقة المتوسطة فى " الحب فوق هضبة الهرم " (١٩٨٤). فشقيقة على يسعى سباك الحى إلى كسب ودها، وهو مالك لسيارة جديدة وشقة فخمة. وتجسد المناقشة التى تدور بين أعضاء الأسرة حول الزواج المقترح التحولات الاجتماعية التى كانت تحدث فى مطالع ثمانينيات القرن الماضى. وعندما تعلق الأم قائلة إن الخطيب غير المتعلم لا يتناسب مع مركز أسرتهم يرد على ساخراً " لا، ليس من الوسط الذى ننتمى إليه، هو من وسط أرقى كثيراً ". وتجد أمه نفسها مضطرة إلى الاعتراف بأنه " بما لديك من مال تصبح أنت السلطان إزاء عروسك "(٣٧).

وعلى امتداد تسعينيات القرن الماضى بدا أن الحظ السعيد الذى ناله الحرفيون بدأ يتراجع مع الكساد الذى ضرب قطاع الإنشاءات ومع تضاؤل فرص العمل فى الخليج، لكن صورته ظلت باقية فى الخيال الجمعى كعلامة على كل ما أصاب الجامعيين الكادحين من اضطرابات. بقى السباك رمزاً لسوء حظ موظف الحكومة الذى لا يزال يعتبر التعليم ضماناً لموقع فى الطبقة المتوسطة وللحياة فى إطارها، فى مجتمع تدهورت فيه قيمة الشهادات بقوة وأصبح متاحاً للآخرين الأقل تعليماً أن ينالوا فرصاً أفضل. وقد قوبل تعليق محمد بخصوص السباك بموافقة عامة. وبدا أنه يتحدث بلسان كل أولئك الذين انخرطوا فى التعليم بآمال كبرى بالصعود، أو على الأقل بإعادة إنتاج مركزهم الرصين ومستواهم المعيشى المرتبطين بالطبقة المتوسطة، ويجدون أنفسهم الآن فى حالة أقرب إلى اليأس. وواصل أحمد حديثه: " عندما كنا فى الجامعة كان لدينا أمل. قالوا لنا إننا إذا اجتهدنا فسوف يكون لنا مكان متميز فى الحياة ". وسألتهم لماذا لم يتجهوا إلى مهنة فنية من هذا القبيل. وقوبل سؤالى برد فورى وحاد.

"لم أدرس طوال هذه السنوات لأنتهى إلى عمل كهذا. كيف يمكن للمرء أن يجد زوجة إذا كانت مهنته من هذا النوع؟" وقد ذكر أعضاء الشلتين، شلة أحمد وشلة دينا، أنه بالإضافة إلى التوقعات الشخصية والمغزى الضمنى المتعلق بالهوية الاجتماعية، فإن الزواج كان سببًا رئيسيًا فى رفض وظائف كهذه. فمعظم الناس يعتبرون أن التكافؤ فى "المستوى" الاجتماعى أو التعليمى (أو ارتفاع هذا المستوى بدرجة طفيفة عند الرجل) هو شرط جوهرى للارتباط برباط الزوجية. ويسود الاعتقاد بأن غياب هذا التكافؤ سبب مهم للمتاعب الزوجية.

وأيًا كانت درجة التدهور التى لحقت بقيمة المؤهلات العلمية للخريجين من الطبقة المتوسطة، فى سوق العمل، فقد بقى وضعهم كمتعلمين جانبا مهما فى هويتهم الاجتماعية وتطلعاتهم. فقد بدا أن وضعهم كخريجين يضمن لهم حدًا أدنى من الاحترام ومن الهيبة الخاصة بالطبقة المتوسطة، حتى إن كان ذلك كل ما يؤمنه لهم المؤهل فى اللحظة الراهنة. وفى "التميز" يناقش بيير بورديو النتائج التى ترتبت على تضخم قيم المؤهلات العليا نتيجة لمقرطة التعليم فى فرنسا. وتعكس تعليقاته التى جاءت تحت عنوان "خديعة جيل" خيبة الأمل التى عبر عنها أحمد وشلته:

خيبة الأمل الجماعية التى نشأت عن التفاوت الهيكلى بين الطموح والاحتمالات الواقعية، بين الهوية الاجتماعية التى يبدو أن نظام التعليم يعد بها، أو تلك التى يؤمنها على أساس مؤقت، وبين الهوية الاجتماعية التى يعرضها سوق العمل فى الواقع – هى مصدر العزوف عن العمل، مصدر ذلك الرفض للمحدودية الاجتماعية... فهؤلاء الشباب الذين دمر صورتهم عن أنفسهم وهويتهم الاجتماعية نظام اجتماعى ونظام تعليمى ضحك عليهم بورقة عديمة القيمة لا يجدون طريقة أخرى لاستعادة تكاملهم الشخصى والاجتماعى إلا بالرفض الكامل. (بورديو ١٩٨٤: ١٤٤).

وقد اختار بعض الخريجين بالفعل أن يبقوا عاطلين أو شبه عاطلين مفضلين ذلك على البحث عن وظيفة متدنية تتطلب من المرء أن يغادر الفضاء الآمن للمكتب، وضمانة

الاحترام المرتبط بالانتماء للطبقة المتوسطة. لكن خيار البقاء بدون وظيفة كان غير متاح إلا للقلة؛ نظراً لغياب ضمانات التأمين الاجتماعى.

وقد اعتمدت الكيفية التى يتعامل بها القاهريون مع خيبة الأمل التى تنشأ عند دخول سوق العمل على الوضع العائلى وكذلك، وكما أوضحت من قبل، على الجندر. فالانتماء إلى عائلة أكثر يسراً يسمح للخريج المتعطل بأن يعتمد على والديه، ويواصل الانتظار حتى تتاح الفرصة للحصول على وظيفة أفضل. ويرى أسعد أن العاملين المتعلمين أميل من نظرائهم غير المتعلمين، بشكل عام، إلى الانتظار حتى تتاح وظيفة مستقرة (٢٠٠٢: ٣٥). والانتماء الأكثر رسوخًا إلى الطبقة المتوسطة يدفع الثمن الاجتماعى الذى يدفعه من يقبل بوظائف متدنية اجتماعيًا، بسبب ما ينطوى عليه ذلك من حرج اجتماعى أشد. ويبدا الجيل الأول من الخريجين المنتمين إلى أسر من الطبقة العاملة أقل تحرجًا فى قبول وظائف كهذه كحلول مؤقتة، وأقل ميلاً إلى تجنبها. فمحمد خريج الحقوق اشتغل فى واحد من محال الكوفى الشوب القاهرية الراقية. وعندما تحدثت إليه قال لى إنه يعمل منذ سنوات فى هذه الوظيفة التى اعتبرها، فى البداية، حلاً مؤقتًا. ومثل أحمد فقد وجد أن خريج الحقوق يتعين عليه أن ينتظر عشر سنوات، على الأقل، ليحصل حتى على دخل متدن. ولأن أسرته لم يكن بوسعها أن تفعل من أجله أكثر مما فعلت عندما أتاحت له التعليم الجامعى، فقد قرر الإذعان وقبل بوظيفة خدمية متدنية الأجر.

ورغم أن تفحص إستراتيجيات كهذه يحتاج إلى مزيد من البحث فإن أحد الخيارات المتاحة للمتعطلين أو شبه المتعطلين من أمثال أحمد ومحمد من الخريجين الجامعيين يتمثل فى الوظائف الخدمية المتدنية المستوى التى أتاحها نمو فضاءات الاستهلاك الراقية. ولأن هذه الوظائف موسومة بالطابع الغربى أو بطابع العالم الأول ويتم تسويقها على هذا الأساس فقد ارتفع مستواها إلى ما يتجاوز نظيراتها

"المحليات" الأدنى مرتبة. فقد كان للأسماء والألقاب والارتباطات الأجنبية وللمرتبة الراقية للجمهور الذى تخدمه هذه الوظائف أثر تطهيرى على وظائف كانت، قبل ذلك، تعد منتمية إلى طبقة أدنى، وينظر إليها على أنها غير مقبولة من جانب خريجى الجامعات. وهذا الارتفاع فى مستواها جاء موازيًا للتمييز بين الوظائف الإدارية فى الشركات متعددة الجنسية، مثلاً، وبين الوظائف فى شركات أصغر فى القطاع الخاص أو فى البيروقراطية الحكومية، لكنه كان أكثر التباسًا ولم يتولد عنه دخل مماثل ماديًا ومعنويًا. ومحل الكوفى شوب الذى أعرض له فى الفصل التالى يمثل نموذجًا من الطراز الأول لفضاء العمل الذى جرى " تبييضه ". وقد أكد عديد من الغرسونات فى محال الكوفى شوب على أهمية التخاطب مع أصحاب المحال من الطبقة المتوسطة الراقية وفهمهم. ويبدو المنتمون إلى الطبقة المتوسطة الدنيا الذين لديهم تعليم عال الأنسب لهذه المهمة. وقد يكون خريج الجامعة المنتمى للطبقة المتوسطة الدنيا الذى يخدم زملاء فى التعليم الجامعى متمتعين بامتيازات أكبر هو المثال الكاشف للتشظى الذى أصبح قدر الطبقة المتوسطة المتعلمة.

لقد كان التعليم، منذ عهد بعيد، الطريق إلى الهيبة الاجتماعية فى المجتمع المصرى ذى الوعى الطبقى الراسخ. فالدرجة العلمية كانت تحرر المرء من أن يخدم غيره، وهو ما يأخذ أسوأ صوره فى خدمة المنازل. فتقديم الخدمات الشخصية أو العمل بالتنظيف يرتبط، عمومًا، بالموقع المتدنى، وهو ما يجبر المرء، فوق ذلك، على الظهور بمظهر الخاضع المستسلم. وكما قالت دينا. فإن العمل بالنظافة فى مستشفى من شأنه أن يجعلها تشعر " بالخجل ". ولو أن أحدًا من زملائها القدامى شهد سقوطها الاجتماعى لكان ذلك مصدر حرج لها. وكان يمكن للمرضى، فى هذه الحالة، أن يتحكموا بها كخادمة، كشخص أقل مكانة، غير مدركين لمركز عائلتها أو غير مبالين به أو بالتضحيات التى بذلتها عائلتها لتؤمن لها تعليمًا مناسبًا. وقد ظل التعليم ينطوى

على قيمة اجتماعية وبقى ضمانًا لحد أدنى من المكانة الاجتماعية. وبغض النظر عن الأجور، فإن العامل اليدوى ينتمى إلى طبقة غير تلك التى ينتمى إليها خريج جامعى عاطل. ففيما يظل الأخير موعودًا بحياة الطبقة المتوسطة، مستقبلاً، فإن الأول قد قبل بما هو أدنى. لكن الواقع الصعب أجبر الكثيرين على النظر فى خيارات أخرى. وقد سألت أحمد فى لقاء تال عما إذا كان صحيحًا أنه هو وأصدقاؤه لا يمكن أن يقبلوا بوظائف متدنية، فرد على بلهجة براغماتية " يتوقف الأمر على مقدار ما يمكن أن أكسبه " وقال محمد الغرسون إنه لم يكن واثقًا مما إذا كان سيرسل ابنه إلى الجامعة. وعلق أحمد على نحو مماثل " إذا ذهب أحدنا ليخطب فتاة فسوف يقول له أهلها "صحيح أنت خريج إحدى الجامعات، لكن ما مهاراتك؟" ولا يمكن أن نعرف الآن ما إذا كان أحمد ومحمد سيختاران لأبنائهما مسارًا تعليميًا مختلفًا طالما بقى التعليم الجامعى أساسًا للمكانة وحلمًا مشتركًا بين المنتمين للطبقة المتوسطة فى القاهرة.

تجسيد التميز

وتمثل الأشكال المختلفة التى يظهر بها القطاع الخاص فى حكايا وخيالات الخريجين حقائق الواقع فى سوق العمل القاهرى المتشظى. وبالنسبة للشباب فى شلة أحمد وبالنسبة لدينا وفريدة وفاطمة فإن القطاع الخاص كان يعنى الأجور المتدنية والوظائف غير المستقرة وعدم الاحترام والمهانة والخوف من المضايقات. أما الخريجون الأكثر تميزًا، خاصة أولئك الذين " يملكون لغة " أو أكثر فيتوقعون وظائف فى الشرائح العليا من القطاع الخاص. وبالنسبة لهم فإن القطاع الخاص يمثل إمكانية وظيفة بأجر مناسب يمكنهم فيها أن يستفيدوا من تعليمهم فى مكتب نظيف مع أناس " نظيفين ".

وقد صورت الهيئات الحكومية والدولية القطاع الخاص على أنه قاطرة الرخاء الوطنى والنمو الاقتصادى وخلق الوظائف. لكن التركيز انتقل، فى السنوات الأخيرة،

من القطاع الخاص الرسمى إلى غير الرسمى، وهذا يعكس إدراكًا متناميًا لعجز القطاع الخاص الرسمى عن إحداث نمو فرص التوظيف على النحو الموعود. وأصبح "رأس المال الاجتماعى" والحيوية الميزان للقطاع الخاص غير الرسمى محل حفاوة وملاطفة باعتبارهما أهم الأصول التى تملكها بلدان الجنوب _مخزونات الابتكار والاعتماد على الذات – وأعطيا دورًا محوريًا فى التنمية (إلى آخر ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، فاين ٢٠٠٠). وليس من الصعب أن ندرك أن هذا التلطف ليس إلا واجهة يختفى وراءها العجز عن تنمية فرص خلق الوظائف وإعادة التوزيع الموعود للثروة. هذا التحول صحبه تراجع عن الالتزام بمتانة ظروف العمل مع إلغاء لتشريعات العمل الحمائية فى إطار برامج اللبرلة[٣٨]. وهذا يبرر بل يمجد الاندفاع نحو أدنى مستويات الحياة الاقتصادية: أسواق عمل من غير حماية للعمالة ومن غير أن تكون الدولة مسئولة عن تأمين المستويات الدنيا.

وقد أدت ثنائية النظام التعليمى وظهور شريحة جديدة من الوظائف المهنية والإدارية فى الشركات ذات التوجه الدولى إلى انقسامات متزايدة الوضوح بين طبقة متوسطة عليا متميزة وشرائح أخرى من الطبقة المتوسطة أقل حظًا (عبد المعطى ٢٠٠٢: ٣٣٨ – ٣٣٩). وتساهم أشكال مختلفة من رأس المال فى خلق المسارات الاجتماعية والوظيفية المتميزة للمهنيين الشبان العاملين فى هذه الشريحة الراقية من الاقتصاد الحضرى. وقد بينت فى الفصل السابق أن المدارس لها دور كبير فى خلق الانقسامات والتمايزات فى الطبقة المتوسطة المهنية. وقد سمح الثراء النسبى لبعض العائلات بإرسال أبنائها وبناتها إلى مدارس خاصة وبإمدادهم بالوسائل المالية التى تمكنهم من الانخراط فى ممارسات استهلاكية وأساليب حياة راقية. وكما تقول مها عبد الرحمن فهناك انقسام واضح على أساس الجندر فيما يخص الوظائف فى القطاع الراقى. " القطاع الخاص فى مصر عرف عنه أنه متحيز للذكور وهو ما يؤدى إلى أن النساء غالبًا ما يستبعدن من المراكز المهمة " وفقا لما تقوله. ومن ناحية أخرى، فالجهات

المانحة تفضل توظيف النساء فى مشروعاتها فى مصر، فى حين أن هناك، على ما يبدو، إجماعًا على أن النساء يناسبهن العمل التنموى أكثر من غيره لأن لديهن " طبيعة متعاطفة ورقيقة " (عبد الرحمن ٢٠٠٧: ٨١). ويمكن لكثير من رجال الطبقة المتوسطة العليا أن يجدوا وظائف كمديرين فى مؤسسة متعددة الجنسية أو استشارية، فى حين تجد النساء وظائف فى واحدة من الجمعيات غير الحكومية الكثيرة التى تمول من الخارج.

ورأس المال التربوى وما يلازمه من رأسمال ثقافى، خاصة فى شكل رأسمال كوزموبوليتانى هو علامة حاسمة فى تحديد مسارات الطبقة المتوسطة العليا. ورغم أن رأس المال الكوزموبوليتانى الذى يتولد عن الدراسة فى مدارس لغات خاصة يعد من الأصول المهمة فى سوق العمل، فإن الشهادات الأجنبية أو شهادات الجامعة الأمريكية تمد حامليها بمركز أقوى فى سوق العمل. وعلى سبيل المثال فقد قال باهر إنه عندما عاد إلى مصر بعد أن حصل على درجة الماجستير فى إدارة الأعمال من الخارج عرضت عليه وظيفة فى كل شركة من الشركات الخمس التى تقدم إليها. ولم يجد أصحاب العمل الذين أجروا معه مقابلات فى الشركات الخمس أى داع للنظر فى تفاصيل مؤهلاته أو البحث فى دوافعه ومهاراته. وبعد التخرج يصبح رأس المال الاجتماعى حاسمًا. فالواسطة والمرجعيات المهمة التى تؤمنها العلاقات الأسرية والشبكات الاجتماعية المتميزة تصبح أساس رأس المال الاجتماعى. ورغم أن الوظائف الراقية يعلن عنها هى أيضًا فى الجرائد وعلى الإنترنت التى تتزايد أهمية الدور الذى تلعبه فى مجال وظائف هذه الشريحة من سوق العمل، فإن كثيرًا من الوظائف الراقية يتم الوصول إليها عبر الشبكات الاجتماعية المحددة طبقيًا (عبد الرحمن ٢٠٠٧: ٨١). فالواسطة – الاتصالات مع ذوى النفوذ الذين يؤمنون الوصول إلى الوظائف المرغوبة – والمعرفة – التى هى جزء من الشبكات التى تؤمن معلومات حيوية عن الوظائف الخالية، مثلا – لهما أهمية بالغة فى البحث عن هذه الوظائف الراقية.

وحتى إن كانت الواسطة، بالتأكيد، الطريقة الأكثر مباشرة التى تفعل بها العلاقات العائلية فعلها فى سوق العمل، فإن الخلفية الاجتماعية لطالب الوظائف لها، هى أيضًا، فعل السحر ويطرق أقل وضوحًا. وقد أخبرنى كثيرون بأن الوظائف الراقية يتوقف الحصول عليها على "المستوى الاجتماعى" المتصور بقدر ما يتوقف على المؤهلات الرسمية. فالشخصية واللغة والمظهر لها أهميتها فى البحث عن الوظائف بالنسبة للرجال والنساء. فالمظهر الراقى و" الهيئة المقبولة " من الأمور الحيوية. وقد تحدث المسئولون فى مكاتب التوظيف عن " كشف الهيئة " وهو مصطلح مستعار من الجيش، حيث يفحص الأطباء المجندين الجدد ليروا إن كانوا لائقين بدنيا (برسوم ١٩٩٩: ٦٥). وغالبًا ما اعتبر أصحاب الأعمال هذه الصفات مؤشرات يعتمد عليها لتقويم " المستوى الاجتماعى " للمرشح للوظيفة. وبناء على مقابلات مع مسئولين فى وكالات توظيف فإن برسوم تدفع بأن " المطلوب توافره فى المرشح المثالى لوظيفة ما يمثل حزمة متكاملة ". ويمكن النظر إلى الخلفية العائلية باعتبارها علامة مؤكدة على امتلاك لغة ومظهر مناسب بقدر ما أن المظهر المناسب وإجادة الإنكليزية إشارة إلى أن المرشحة لوظيفة ما هى بنت ناس (سليلة عائلة كريمة) (برسوم ١٩٩٩: ٧٧). وقد أخبرتنى سيدة تتميز بالمعرفة على نحو خاص ولها تجارب مع عدد من الشركات الخاصة بأن أصحاب العمل درجوا على جعل طالب الوظيفة يعود لمقابلتهم عدة مرات ليعرفوا إن كان يملك أطقم متعددة من الملابس الأنيقة. وأخبرتنى سيدة أخرى بأن الوصول إلى مقر العمل للمقابلة، بسيارة وبملابس غالية هما من الشروط الضرورية للوظائف الراقية، فى كثير من الحالات. ويتعين على كثير من الخريجين الشبان أن يركنوا إلى المساندة العائلية لتأمين هذه الأصول الرمزية. وتشير هذه القصص إلى أنه، بالإضافة إلى تأمين رأس المال التعليمى والثقافى والاجتماعى المناسب فإن العائلة تلعب دورًا مهمًا فى تزويد المرء بـ " رأس المال الابتدائى " المطلوب لتمكينه من تقديم نفسه كمرشح مناسب للوظائف الراقية.

وتمثل مظاهر الطبقة المتوسطة العليا والسمات " الأجنبية " رأسمال مجسداً في سوق العمل. وقد لاحظ كريم ساخراً أنه حصل على وظيفته السابقة؛ لأن رئيسه السابق كان يريد موظفين ذوى بشرة بيضاء مثله من باب ترتيب الواجهات. وبالمثل فقد أخبرتنى نهال أن عمها وهو جراح ناجح يعمل فى مستشفى خاص طلب منه الظهور فى إعلان عن المستشفى بسبب ملامحه الأوربية. وقد قيل لى إن توظيف المهنيين ذوى المظهر "الراقى" يعلن عن قدرة المستشفى على توظيف عاملين من طبقات راقية ويشى بموقع طبقى يعد ضرورياً لاجتذاب زبائن أغنياء. ويشير توظيف عاملين أغنياء إلى ديناميات مشابهة. فقد سمعت عدداً من القصص عن أجانب توظفوا فى مدارس خاصة، رغم افتقارهم إلى المؤهلات اللازمة للتدريس . فوجود الأجانب ليس مجرد إضافة إلى المكانة المحترمة للمدرسة لكنه يفهم، أيضًا، كإشارة إلى الكفاءة العالية ولما تقدمه المدرسة من تربية كوزموبوليتانية. ووفقًا لما قالته لى سيدة شابة فهذا التقدير للأجنبى يمثل خصلة مميزة للمصريين: عقدة الخواجة. وقالت لى إن المصطلح يشير إلى تفضيل غير مشروط لكل ما هو أجنبى على ما يقابله محلياً. وأضافت ساخرة (٣٩) " لدى الأجنبى الرؤية الأفضل لكل الأمور، حتى إن كان لا يفهم شيئًا على الإطلاق ". هذا الاهتمام بما أسماه كريم " ترتيب الواجهات " يحتوى على مكون جندر قوى. فوجود نساء غير محجبات فى مكتب ما كان يؤخذ، عادة، كعلامة على الحداثة وعلى المركز الطبقى المرتفع. ومن الأمور التى لها مغزى أن الإعلان عن مؤسسة جيل المستقبل الذى ناقشناه فى الفصل الأول لم تظهر فيه فتاة محجبة. لقد كان يمثل حقائق الواقع فى الشركات القاهرية الراقية. فأماكن العمل الراقية تتميز، عموماً، بسبب الحضور الطاغى للنساء غير المحجبات والغياب المحسوس للمحجبات. ويمكن أن يؤدى قرار سيدة ما بالتحجب إلى تقليص خطير للفرص المتاحة لها فى الشركات الراقية. ورغم أن الأعداد المتزايدة لنساء الطبقة الراقية اللائى قررن ارتداء الحجاب له قدر من التأثير على ما سبق من ربط وثيق بين الحجاب وبين الانتماء للطبقات الأدنى واختفاء الحداثة، فقد بقى الحجاب مشكلة فى كثير من هذه الفضاءات حيث الإيحاءات

بالانتماء إلى النخبة وإلى وسط كوزموبوليتانى لها أهمية قصوى. وعلى سبيل المثال، فقد ذكرت داليا أنه فى البنك التجارى حيث كانت تعمل تم تحويل موظفة قررت ارتداء الحجاب إلى المكتب الخلفى، إذ لم يعد مسموحًا لها بأن تمثل البنك فى مواجهة العملاء.

سوق العمل المتشظى فى القاهرة يمجد أشكالاً بعينها من رأس المال الثقافى والخلفيات الاجتماعية المائزة، وبهذا فهو يعيد إنتاج الانقسامات الطبقية القائمة ويقويها على نحو كبير. وفى السياق يتم إحلال خطوط تقسيم راسخة محل تقسيمات سابقة مائعة. وخطوط التقسيم هذه تفصل بين من يستطيعون التقدم إلى وظائف الطبقة المتوسطة الراقية والآخرين من أعضاء الطبقة المتوسطة القاهرية الذين يفتقدون رأس المال الكوزموبوليتانى ورأس المال الاجتماعى اللازمين لذلك. وكما أوضح فى الفصل التالى، فإن هذه الانقسامات تركت علامتها على المشهد الاجتماعى الحضرى، وساهمت فى تثبيت عوالم اجتماعية يتزايد التمايز والتباعد بينها فى قاهرة الطبقة المتوسطة.

وقال لى تامر وهو مهنى فى منتصف العشرينيات، عندما ناقشت معه بعض ما توصلت إليه فى أبحاثى " لكنى لم أتخرج فى مدرسة لغات. ولم أحصل على وظيفتى بالواسطة ". عاد أبواه، وهما مهنيان من الطبقة المتوسطة إلى مصر بعد سنوات من العمل فى المملكة العربية السعودية فى وقت تجاوز فيه تامر سن الالتحاق بمدرسة لغات. ومثل أطفال منى (انظر الفصل الثانى) فقد التحق بمدرسة خاصة " عربية " وبمدرسة ثانوية حكومية. وقال إنه كان دائم الحرص على تحسين مهاراته اللغوية، وهو ما ساعده فى البحث عن وظائف أفضل. وبعد أن درس فى كلية التجارة بإحدى الجامعات الحكومية بدأ العمل مع بعض أقاربه براتب يبلغ ٤٠٠ جنيه مصرى شهريًا. وعندما تمكن من أن يحل محل صديق له كمحاسب فى مؤسسة أجنبية خاصة ارتفع راتبه إلى ٧٠٠ جنيه شهريًا. وبعد عدة سنوات وجد فرصة أخرى بواسطة الإنترنت، ليعمل بوظيفة إدارية بفندق خمسة نجوم. وبعد فترة قصيرة من بداية العمل فى الوظيفة الجديدة، أوضحت له الإدارة أنه سيتم فصله ما لم يتحسن أداؤه. وفى النهاية

تمكن من الاحتفاظ بوظيفته، ولكن عندما قابلته بعد ذلك بعام كان يفكر مجدداً فى البحث عن وظيفة أخرى. كان يريد وظيفة تعطيه الفرصة لأن " يحقق ذاته ".

وتتحدى حكاية تامر التقسيمات الواضحة بين وظائف الطبقة المتوسطة العليا والوظائف المتاحة للخريجين الجدد. فهو يقف فوق الخط الفاصل بين شريحتين فى سوق العمل القاهرى واضعاً كل قدم من قدميه على أحد جانبى ذلك الخط. وقال تامر إنه فى ضوء انتمائه للطبقة المتوسطة فإنه لا يستطيع أن يقبل بوظائف متدنية أو أن يعيش فى حى شعبى وأن يتكيف مع مستويات الحياة البسيطة كواحد من أبناء الطبقة العاملة. " لا أستطيع أن أعمل سائق تاكسى أو حرفياً، أو أن أعمل براتب مقداره ٥٠٠ جنيه شهرياً لا غير. لكنى لا أستطيع أيضا أن أفعل ما أريد. أريد حياة فى مستوى أرقى وأن تكون لدى سيارة أفضل. قد لا تكون لدى فلاّح هذه الطموحات، لكن شخصاً من الطبقة المتوسطة يحتاج إلى مستوى حياة أفضل وإلى مستوى اجتماعى ". قال إنه يشعر بأنه معلق بين السماء والأرض وهو ما اعتبره أزمة تخص الطبقة المتوسطة بالتحديد.

وعندما نمد البصر إلى ما وراء مناطق الحدود المضطرمة والمرتبكة حيث الحكايا الفردية تدحض الاتجاهات العامة، تبدو خطوط التقسيم أكثر رسوخًا. فمن غير المحتمل أن يحصل الشباب من بيئات اجتماعية متواضعة مثل أحمد وأصدقائه أو من ذوى الانتماء الراسخ إلى الطبقة المتوسطة مثل تامر على الوظائف المشتهاة فى بورصة الأوراق المالية أو فى البنوك التجارية أو هيئات التنمية، أبداً. فالمهنيون العاملون فى هذه الوظائف الراقية ينتمون إلى ما يمكن أن نسميه، دون مبالغة، " أرستقراطية العمالة ". فأولئك الذين يصلحون لهذه الوظائف هم، حسب القاعدة، أولاد ناس، أو أبناء وبنات عائلات كريمة، مزودون برأس المال الرسمى وغير الرسمى المتميز نتيجة لانتمائهم العائلى وللوسط الاجتماعى وللرخاء الاقتصادى وللتعليم المناسب فى معاهد "اللغات" ولوجودهم ضمن دوائر أكثر تميزاً. فلغتهم وحركتهم ولغة الجسد لديهم

تتحدث عن عالم آخر عن النوادى الخاصة التى كانت ملاعب الطفولة بالنسبة لكثيرين منهم ولمدارس اللغات الخاصة التى التحقوا بها. إنهم يتحدثون لغة تجسد الكفاءة الثقافية والمعرفة الكوزموبوليتانية التى لا يسهل تقليدها أو إنجازها بقوة العزيمة. وكما قال استشارى فى الموارد البشرية فإن: " هؤلاء الذين تعلموا فى مدارس لغات سيكون لديهم، على الأرجح، تعليم مختلف سيكونون مستغربين بدرجة أكبر. فكل منهم يتقن لغة بعينها. وإذا ذهبت إلى شركة ووجدتهم يتحدثون العربية فإنى أشعر بأنى فى عالم آخر ".

شروخ

ومع ذلك، ففى مطلع القرن الحادى والعشرين بدأت الشروخ تظهر حتى فى النسق الأعلى من سوق العمل. ففى منتصف تسعينيات القرن الماضى تسبب تدفق الشركات الأجنبية وتنامى الشركات المحلية فى ظهور شريحة حصرية، نسبيًا، فى سوق العمل لصالح " أولاد الناس ". ومع بداية القرن أصبحت المنافسة بين طلاب الوظائف أكثر شراسة فى حين أجبرت كثير من الشركات الراقية إلى تقليص الحجم. وفى ٢٠٠٢ سمعت حكايا عديدة عن أناس يعملون فى منظمات تنمية وشركات تسويق كانت رواتبهم تتأخر أو أجبروا على القبول بتخفيضات دائمة فى الأجور. و "سرحت " شركات كثيرة الذين لم يكن فصلهم صعبًا، فى حين أبلغ أولئك الذين لديهم عقود محكمة أنه من الأفضل لهم أن يرحلوا ومعهم كتاب توصية ومبلغ من المال. وإذا رفضوا ترك العمل فهناك المزيد من الأساليب غير الرسمية التى تجعلهم يرحلون "طواعية". وقد تشكى كثير من المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا من وظائفهم لكن قليلين منهم هم الذين تجرؤوا على الاعتراض أو حتى على اتخاذ الخطوة الأكثر راديكالية بالرحيل. وبالمثل فإن مها عبد الرحمن تروى كيف أن الوظائف فى المنظمات

غير الحكومية غير مستقرة، غالبًا، وأن كثيرًا من موظفى المنظمات غير الحكومية يتشكون من الساعات الإضافية الطويلة التى لا يحصلون على أجر عنها، ولكنهم لم يجرؤوا على إبلاغ رؤسائهم بشكاواهم. (٢٠٠٧).

وتناقش ليلا فيرنانديز الحقائق الصعبة المرتبطة بإعادة الهيكلة وتقليص النفقات التى تكمن وراء الصور المثالية التى ترسم للطبقة المتوسطة الجديدة المتمتعة بالثراء فى الهند. فبعد فترة ابتدائية من الأجور المرتفعة والفرص الوفيرة التى لاحت للعاملين فى الشركات متعددة الجنسية جاءت فترة من تقليص النفقات وإعادة الهيكلة أسفرت عن خفض الأجور وانعدام الأمن الوظيفى ونزع طابع الفخامة عن كثير من الوظائف الراقية. وترجع فيرنانديز هذه التحولات، ليس فقط إلى تباطؤ النمو الاقتصادى الذى نشأ عن الأزمة الآسيوية، ولكن أيضًا إلى تراجع التوقعات الأولية المبالغ فيها لدى الشركات متعددة الجنسية والتى قامت على تقديرات مضخمة لإمكانات سوق الطبقة المتوسطة الذى لم يستغل بعد فى الهند. ويمكن أيضًا إرجاع تقليص النفقات فى القطاع الأعلى من السوق فى مصر، جزئيًا، إلى الأفكار البالغة التفاؤل حول سوق السلع والخدمات الاستهلاكية الفخمة فى مصر. وينطبق هذا، بشكل خاص، على التراجع فى قطاع الإنشاءات. فالاستثمارات الكبيرة فى مشروعات الإسكان الفاخر لم تحقق النتائج المرجوة. فقد أغرق السوق فى حين أن قلة من الناس هم الذين كانوا قادرين على دفع نفقات إسكان كهذا. وقد كان انهيار سوق الإسكان الفخم فى قلب الأزمة الاقتصادية بعد عام ٢٠٠٠ (دينيس ٢٠٠٦: ٦٨)

وكرد فعل إزاء تقليص النفقات حاول مهنيو الطبقة المتوسطة الهنود تحسين مركزهم فى سوق العمل باكتساب مهارات ومؤهلات جديدة. أما فى القاهرة، فإن احتدام المنافسة على العدد المحدود من الوظائف الراقية أسفر عن تدافع نحو تأهيل أفضل ودرجات علمية أرفع. وكثير من المهنيين الذين عرفتهم كانوا يدرسون للحصول

على درجات علمية إضافية، خاصة ماجستير إدارة أعمال أو كانوا يفكرون بذلك. وكان عدد كبير من المعاهد التى يرتبط كثير منها بجامعات أوربية أو أمريكية يقدم تشكيلة من البرامج للحصول على مؤهلات كهذه. وتتطلب هذه الدرجات العلمية الإضافية استثمارات كبيرة يتعين على المرء، غالبًا، أن يعتمد على عائلته لتأمينها، ورغم ذلك فعوائدها غير مضمونة.

وتشير قصة هبة عن سوء حظ أخيها إلى الظروف الصعبة التى حاقت ببعض المهنيين من الطبقة المتوسطة. فشقيق هبة يحمل شهادة فى الهندسة، مثل أبيه. وكان فى أواخر الثلاثينيات من عمره ولديه عائلة يعولها. وقد أكدت هبة طلاقة أخيها فى الحديث بالإنكليزية واتصالاته الكثيرة بالأجانب لتوضح موقعه فى سوق العمل. وقد كان مرشحًا واضح الأهلية لأى من الوظائف ذات الراتب الجيد فى الاقتصاد القاهرى الراقى ذى التوجه الدولى. وبعد تخرجه فى مطلع التسعينيات من القرن الماضى، عندما كانت الطفرة العقارية فى ذروتها، وجد وظيفة على الفور كمهندس مدنى فى شركة مقاولات كبيرة. وبعد أن مات والدهما حاول هو أن يحيى شركة المقاولات الصغيرة التى كانت للأسرة، لكنه أفلس بسبب تعليق المدفوعات المستحقة على أكبر عملاء الشركة: الحكومة. وبعد ذلك حصل على وظيفة فى شركة لبنانية حيث كان راتبه ٣٥٠٠ جنيه مصرى، شهريًا. وعندما رفضوا إعطاءه علاوة كبيرة فى نهاية ٢٠٠٢، ترك العمل. وتحريت فوجدت أن مهندسًا له خبرته كان يستحق، فى ذلك الوقت، راتبا مقداره ٥٠٠٠ جنيه مصرى. لكن شقيق هبة قامر وخسر. وبعد عدة أشهر من غير عمل اضطر إلى قبول وظيفة براتب أقل وساعات عمل أطول كثيرا – وظيفة لا يحصل فيها على أجر عن ساعات العمل الإضافية لكن التأخير يستقطع من راتبه.

ويبقى من غير الواضح ما إذا كان المهنيون من الطبقة المتوسطة العليا سوف يبدأون بالتطلع إلى الوظائف الحكومية فى ضوء الأزمة المتفاقمة فى سوق العمل

الخاص. لقد كانت الرواتب فى الشريحة العليا من سوق العمل فى ٢٠٠٢ تبدأ من حوالى ١٥٠٠ جنيه مصرى. وكانت أساليب الحياة لدى المؤهلين لمثل هذه الوظائف متمشية مع ذلك. وحتى الوظائف الحكومية الأكثر احترامًا كان تدفع رواتب تقل كثيراً عن نظيراتها فى القطاع الخاص. وفى حوار حول سوق العمل أعربت استشارية فى الموارد البشرية فى أوائل الثلاثينيات عن دهشتها إزاء استمرار الاهتمام بالوظائف الحكومية: " بعض الناس من الطبقات الأدنى قليلاً، لا يزالون على اهتمامهم بالوظائف الحكومية، تصور !! " وبالمثل فقد أوضحت محامية لدى شركات خاصة أنها لا يمكن أن تقبل العمل فى البيروقراطية الحكومية. فسكرتيرتها تحصل على ٢٥٠ جنيهًا شهريًا إضافةً إلى حوافز مائة بالمائة، وهو ما قالت المحامية إنه يفوق راتب موظف حكومى يحمل درجة جامعية. وعلى غرار المدارس الحكومية، فقد أصبحت وظائف الحكومة حقائق قصية وغير سارة وأصبح موظف الحكومة شخصية راح زمانها. وكثير من أهل " الطبقة " التى تنتمى إليها لا يتخيلون إمكانية أن يعملوا فى تلك الفضاءات.

وبعكس السمعة السيئة للبيروقراطية الحكومية فإن مجالات معينة فى جهاز الدولة تحتفظ بهيبتها، خاصة تلك الفروع التى تنهض بأعباء الوظائف المركزية للدولة التى لا يمكن إسنادها للقطاع الخاص، مثل الشئون الخارجية والقضاء وأقسام من الميديا وقطاع البترول. ورغم أن الأجر يقل،عادة – عن الوظائف المناظرة فى القطاع الخاص فالأجور فى هذه الجيوب النخبوية تفوق رواتب الوظائف الحكومية الأخرى، بكثير. وهذه الوظائف المحترمة تنطوى على فرص تقدم مهنى كبير. وإضافةً إلى ذلك، وكما قال موظف فى وزارة الشئون الخارجية " لا ينظر إلى هذه الوظائف باعتبارها حكومية، فمستوى الناس مختلف " ورغم ذلك، فعديد من المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا ممن اختاروا هذه الوظائف الحكومية المتميزة أخبرونى أن الأصدقاء ممن يشغلون مناصب ذات دخل أكبر فى القطاع الخاص يشفقون عليهم. وقالت خريجة مدرسة

فرنسية إن كثيرين ممن لهم خلفيتها الطبقية لا يمكن أن يفكروا فى التقدم لمثل هذه الوظائف الحكومية. هى نفسها كانت تعمل فى قسم من أقسام الأهرام يعتمد العمل فيه على اللغات الأجنبية، والأهرام أكبر مشروعات الميديا الحكومية. قالت إنها تحب عملها الذى أمن لها الكثير من الفرص الجانبية ذات الدخل الوفير لرفع مستوى دخلها المتواضع نسبيًا، والبالغ ألف جنيه مصرى، شهريًا. ورغم ذلك فقد قالت إنها تعتبر بنظر البعض غبية لأنها دفنت نفسها فى وظيفة حكومية فى حين كان بوسعها أن تكسب كثيرًا " خارج " القطاع الحكومى. إضافةً إلى هذه القطاعات النخبوية العتيدة داخل البيروقراطية الحكومية فقد ظهرت بقع متميزة يعمرها موظفون رفيعو التأهيل ومتميزون للغاية حيث يتعين على الحكومة أن تقدم خدمات ذات جودة عالية. وهذه البقع موجودة فى مجالات بينها المؤسسات الإعلامية وعدد من الوزارات والبنك المركزى. وقد كانت رندا وهى مهنية من الطبقة المتوسطة العليا فى أوائل الثلاثينيات تعمل فى وزارة الاقتصاد، بمكتب الوزير. وأخبرتنى بأن الطابق الذى يشغلونه فى الوزارة تميز عن بقية المبنى بأثاثه الذى ينتمى لأحدث طراز وبالصيانة والتسهيلات الممتازة. قالت إن هذا لا يشبه الحكومة فى شىء. " فى الوزارة قسمان: القسم القديم، حيث لا يوجد عمل ولم يحصل أناس على تعليم جيد، والقسم الآخر حيث يوظفون الشباب الممتاز لأداء الوظائف المهمة ". هذا القسم الأخير يمثل صفوة الوزارة ممن يتلقون رواتبهم من صناديق منفصلة يمولها البنك الدولى، بمعدلات يمكن مقارنتها بالرواتب فى القطاع الخاص. وعندما سألتها عن نوعية من يوظفونهم، قالت " أولئك الذين لديهم خلفية مالية أو اقتصادية، وربما من الحائزين على درجة علمية فوق جامعية. وكلهم ينتمون لعائلات كريمة ويجيدون الإنكليزية ودرسوا فى مدارس لغات. يتعين الحفاظ على مستوى معين لتجنب الروح التى تسود فى البيروقراطية الحكومية. إنهم يريدون الأشخاص المنتمين لعائلات ميسورة ليعطوا صورة مقبولة ". وهكذا فقد أعادت هذه البقع إنتاج كل التمايزات التى تميزت بها أرستقراطية العمل فى الطبقة المتوسطة العليا عن المهنيين من الأوساط والمسارات التربوية الأكثر تواضعاً.

وقد وسمت تفاوتات مماثلة بميسمها البنك المركزى المصرى. وقد أخرج علاء، وهو موظف فى البنك المركزى فى منتصف الثلاثينيات من عمره. كشف الراتب الذى يفصل ما يحصل عليه شهرياً، بالقرش الواحد، بلغ الراتب ٢٣٤ جنيهاً مصرياً، ومع الحوافز يصل عادة إلى ٨٠٠ جنيه مصرى. كان علاء موظفاً لدى البنك منذ ثمانى سنوات. وهو ينتمى إلى أوساط الطبقة المتوسطة الدنيا وتعلم فى مدارس حكومية وكان يعيش مع عائلته فى حى فقير. قال إنه من حسن الطالع أنه حصل على تلك الوظيفة. وقد تم تعيينه لأنه نجح فى الحصول على واسطة قوية وخلال السنوات الثمانى التى قضاها فى البنك تغيرت سياسات التعيين على نحو جذرى. فى سنة ٢٠٠٠ أوقف البنك المركزى التعيينات. وعندما عادوا إلى التعيين فى نهاية ٢٠٠٢ لم يكونوا يعينون إلا الناس الذين " يملكون لغات " ومهارات الكمبيوتر. وبدأ زملاء علاء الجدد، وبينهم كثرة من النساء، بمرتب أساسى حوالى ٨٠٠ جنيه مصرى. وقد خصصت لهم مكاتب مكيفة الهواء مع ما يليق من أثاث " محترم " وأجهزة كمبيوتر جديدة وكانت هناك خطط لإرسالهم إلى الولايات المتحدة لمزيد من التدريب. وبالمقابل فقد احتوى مكتب علاء على أثاث أشبه بالركام. وعندما قابلته كان تكييف الهواء قد تم تركيبه، حديثاً، فى مكتبه وقد أدركه هو وزملاؤه حسن الحظ هذا لأن عمة واحد منهم كانت تعمل فى إدارة مرافق البنك وأخذتها الشفقة على ابن أخيها.

وتعكس الاختلافات فى الراتب وفى احتمالات الترقى الوظيفى وفى ظروف العمل فى البنك المركزى ومؤسسات حكومية مشابهة التشظى فى القطاع الخاص. فالذين يختارون لمثل تلك الوظائف هم المهنيون من الطبقة المتوسطة العليا ذاتهم الذين يتوقعون الحصول على وظائف فى شركات القطاع الخاص أو المنظمات غير الحكومية فى القاهرة. ورغم ذلك، وكما قال علاء متهكما " الناس الذين يأتون إلينا هم، رغم كل شىء، فرز ثان. فالذين لديهم المؤهلات المناسبة والواسطة المناسبة يذهبون إلى البنوك التجارية الأكثر احتراماً والأفضل راتبا ".

رفض المحدودية الاجتماعية

هذه الحكايا التى تدور حول سوق العمل تضرب الأمثلة على مفاوضات الطبقة المتوسطة وصراعاتها مع التحولات الاجتماعية التى أسفر عنها ابتعاد مصر عن موروثها الناصرى باتجاه المفهومات النيوليبرالية حول دور القطاع الخاص والسوق العولمى. وقد تنوعت تأثيرات إعادة التوجه الاقتصادى والسياسى تنوعًا واضحًا، بحكم تنوع مراكز من طالتهم هذه التأثيرات.

وهذا الفصل يروى قصة من الطبقة المتوسطة، تحديدًا[٤٠]، وقد رسمت، على نحو سريع، خطوط النبالة الجديدة لتؤهل قلة من المهنيين، فى العصر الليبرالى الجديد فى مصر، لوظائف فى القطاع الخاص مجزية نسبيًا وواقعة على الطرف الأعلى من السلسلة. وهؤلاء المهنيون من الطبقة المتوسطة العليا يرمزون للعصر الليبرالى الجديد فى مصر، وهم يصورون بصورة طليعة اجتماعية قادرة على مواكبة المستويات المعيارية العالمية. ويواجه غيرهم سوقًا للعمل يعرض أجورًا أدنى من المستوى اللازم للعيش، بدرجة كبيرة؛ لأن المعروض من العمالة المتعلمة يفوق الوظائف المتاحة، عدديًا، بدرجة كبيرة؛ وقد أصبحت الطبقة المتوسطة الناصرية– وهذا تصنيف مفارق للعصر، إلى حد ما، لكنه يناسب موظفى الحكومة والجامعيين من الطبقة المتوسطة – رمزًا لتلك الشرائح من المجتمع التى هى بحاجة إلى الإصلاح.

وبرغم عمليات الحرمان والإنعام التى تعمل، بشكل متزايد، على تشظى الطبقة المتوسطة المهنية فى القاهرة، فالوعود والتوقعات القديمة لم يكن من السهل التخلى عنها أو نسيانها. وتبرز تحليلات الاقتصاد الكبير سوء توزيع الموارد التعليمية الذى يؤدى إلى تضخم فى الدرجات الجامعية وإلى تبديد " رأس المال البشرى "، لكن الحكايا الشخصية توضح الإصرار على الاستثمار فى الهوية وفى المستقبل المهنيين للطبقة المتوسطة كما تبرز رفض التخلى عن حقوق اجتماعية راسخة. وفى ضوء سياسات نيوليبرالية يروج لها عالميًا، كان يجب أن تستسلم شرائح كبيرة من الطبقة

المتوسطة القاهرية للعمل فى المجالات الحرفية، وللوظائف غير المستقرة، ولحالة عامة من التقشف المالى، بما يفترض أنه الأمر المناسب لبلد مثل مصر. لكن كثيرين قاوموا هذا الخضوع لـ " معايير العالم الثالث " هذه. وبوسع المرء أن يقول إن الرفض لم يأت من جيل بعينه، بل إن كثرة من الطبقة المتوسطة الناصرية رفض تقزيمها اجتماعياً.

وكثير من هذه الحكايا التى تدور حول التعليم وسوق العمل يتنفس حنيناً إلى ما كان. ويروى غوردون (٢٠٠٠) كيف أن الحنين إلى سنوات ناصر يتنامى بين القاهريين. ولأن معظم القاهريين لم يعيشوا سنوات الإدراك فى ذلك العهد، فهذا الحنين موجه أولا وقبل كل شىء إلى زمن ليس هو الحاضر. ويرأى جويل غوردون فإن الحنين إلى مصر الخمسينيات والستينيات من القرن الماضى يشعله " الخبث السياسى والتنمية غير المتماثلة والتفاوتات الاجتماعية الصارخة والتوقعات المادية المحبطة وكماشة العنف الصادر عن الإسلام الراديكالى وعن الدولة " (٢٠٠٠: ١٧٧). وحسب قراءة سوزان باك مورس فهذا " حنين لعالم كان يفترض أن يوجد " تفضيلا له على حقائق واقعية أكثر تعقيداً وغالباً ما تكون أقل جاذبية، وهى الحقائق التى ترفضها هذه الأحلام الحداثية (١٩٩٥: ٢٣). ويقوى من هذا الحنين العرض المتكرر لما أصبح الآن من كلاسيكيات السينما من أفلام الزمن الناصرى التى تذكر القاهريين بمصر التى تجسدت فى الآمال والتطلعات، أكثر مما تجسدت فى الحقائق اليومية. وبالمثل فإن زهانغ يدفع بأن الحنين الجارف لدى الصينيين إلى عهد ماو يمكن فهمه، على أفضل وجه، باعتباره نقداً لحاضر يدفع بالعاملين الحضريين " إلى الهوامش الاجتماعية والاقتصادية فى مجتمع يكتسب طابع السوق، على نحو متزايد " (٢٠٠٢: ٣٢٥). وكما يلاحظ زهانغ فإن " عملية التذكر الانتقائى هذه، فى نسيانها للماضى الاشتراكى وفى إعادة تفسيرها له، هى مكون مهم من مكونات النضال الاجتماعى فى آخر عهود الصين الاشتراكية " (٢٠٠٢: ٣٢٦). ويبدو أن الأمر ذاته ينطبق على القاهرة. وتدفع باك مورس بأن الرغبات الجمعية التى يعبر عنها فى مثل هذه الأحلام الحداثية يمكن

أن تؤمن حكايا بديلة قوية، ربما بمقدار مماثل من القوة للأحلام التى تستلهم الدين والتى كانت تتطلع إلى مجتمع أفضل، فى العقود الماضية.

ومن الأمور ذات الدلالة أنه فى العصر الليبرالى الجديد فى مصر ينتشر فى الدوائر الميسورة حنين من نوع آخر. ففيما يتعلق بالتنمية الحضرية، وكما يلاحظ إيريك دينيس " تسود نسخة ممصرة ومهجنة من الحلم الأمريكى، ولكن مع إحالة قوية إلى الماضى وإلى العهد الخديوى/الكولونيالى ذاته (٢٠٠٦:٥٤) وبالمثل فإن بيترا كوبنجر تتبين حنيناً إلى أزمنة الراحة والأناقة والتميز قبل الثورة فى إعلانات عن رويال هيلز وهو مجتمع ذو أسوار على مشارف القاهرة (٢٠٠٤: ٤٨). وقد تجسد هذا الحنين أيضا فى إصدار مجلة بلغتين مخصصة للأزمنة السابقة على الثورة " مصر المحروسة/انطباعات عن مصر " وتضم بالأساس مقالات مصورة عن الأناقة المفقودة فى مصر، كما تجسد فى انتشار الولع بأثاثات ما قبل الحرب فى الدوائر المائزة وهى أثاثات من طراز يطلق عليه أحيانًا، وبشكل ممرور، اسم " لوى فاروق ". فبالنسبة للبعض أصبحت الأزمنة الملكية السابقة على الثورة بما كان فيها من أساليب حياة ومن امتيازات أرستقراطية، وليس الزمن الناصرى، هى ما تتجه إليه مشاعر الحنين والخيالات والمحاكاة، رغم ارتباط هذه الأزمنة عند الجميع بالحكم الكولونيالى وبالحرمان الذى طال الغالبية الساحقة من السكان[٤١].

الفصل الرابع

الطبقة والانتماء الكوزموبوليتانى
فى محال الكوفى شوب القاهرية

في يوم عمل في صيف ٢٠٠٤ رتبت لقاء مع أمل ومريم في ريترو كافيه بالمهندسين من أجل حوار حول محال الكوفي شوب. وكما حدث مع كثيرين من أصدقائي ومعارفي من الطبقة المتوسطة العليا، فقد تعرفت على أمل ومريم في "مناسبة اجتماعية " نظمتها صحارى سفاريز. في ذلك اليوم، كان مقرراً أن نلتقي في أحد محال الكوفي شوب الراقية التي أصبحت جزءاً أساسياً من الروتين اليومي لكثير من المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا، تلك التي يشار إليها دائماً بالإنكليزية والتي يجب أن لا نخلط بينها، أبداً، وبين المقاهي البلدية، التي هي مقاه يغلب عليها الحضور الذكوري والتي تحتل مناطق على الأرصفة والتي اشتهرت بها القاهرة. وقد تحولت محال كوفي شوب مختلفة إلى نقاط توجه مكاني وكذلك إلى علامات اجتماعية على انتماء طبقي بعينه. وقد ظهرت ثقافة ترفيه جديدة ومميزة في هذه المحال وحولها، وتمحورت حول المهنيين الشباب الميسورين غير المتزوجين الفئة التي انتمت إليها أمل ومريم، لكنها لم تقتصر عليهم. ويعد انتشار هذه المحال ظاهرة حديثة نوعاً ما. وقد بدأت محال الكوفي شوب تظهر في منتصف تسعينيات القرن الماضي في المناطق المركزية الميسورة مثل الزمالك والمهندسين وكذلك في المناطق الأبعد مثل مصر الجديدة والمعادي. وفي ٢٠٠٢ و ٢٠٠٤ عندما كنت أجري أبحاثي حول قاهرة الطبقة المتوسطة كانت محال الكوفي شوب يجري افتتاحها بوتيرة منتظمة، لتزحم شوارع معينة وتحول المناطق السكنية إلى نقاط ساخنة.

ويتفحص هذا الفصل ظهور فضاءات الطبقة المتوسطة العليا وأساليب حياتها واجتماعياتها في القاهرة. وأنا أتساءل كيف أثر ظهور الفضاءات وأساليب الحياة

الراقية، التى تميزت عن المشهد الحضرى المحيط بإحالات كوزموبوليتانية صارخة وبأسعار عالية نسبيًا، على الانتماء فى المشهد الحضرى للقاهرة. وأبدأ بفحص بعض الملامح المركزية لمحال الكوفى شوب الراقية فى القاهرة. وأسأل كيف زجت صيغة الكوفى شوب التى تنتمى إلى " العالم الأول " بنفسها فى المجالات التى تسودها صراعات محتدمة، مجالات الترفيه والحياة العامة الحضرية. وأدفع بأن محال الكوفى شوب هذه قد نجحت فى خلق مساحة محمية للاجتماعيات المشتركة بين الجنسين بعيداً عن رقابة العائلة فى مشهد اجتماعى أوسع حيث يثير هذا التفاعل الاجتماعى العلنى بين الجنسين مزيداً من الخلافات. ثم أنتقل إلى السؤال عن أى نوع من الانتماء ذلك الذى يظهر ويتخلق فى أماكن راقية مثل محال الكوفى شوب. وبرأيى فإن محال الكوفى شوب تعيد صياغة مؤشرات التآلف والاطمئنان، كما تعيد صياغة مؤشرات التنافر والتباعد.

كافيه لاتيه

وجدت أمل تقتسم طاولة مع صديقتنا المشتركة مريم. وسرعان ما انضمت إلينا صديقة لهما هى راندا. الثلاث كن مهنيات فى أوائل الثلاثينيات من أعمارهن موظفات فى الشريحة ذات التوجه العولى من الاقتصاد. ومثل غيرهن من النساء فى ريترو فقد كن يرتدين سراويل ضيقة من القطن أو الجينز وقمصانًا ضيقة بالمثل وإن راعت الخطوط الحمراء للاحتشام العام فغطت كل شىء ما عدا الذراعين والوجه. وقد صمم المقهى الصغير بما فيه من فن وبألوان الأرضية والأثاث الخشبى الحديث على نحو يعطى إحساسًا معاصرًا، وإن كان دافئًا، بالراحة البيتية. وأمنت موسيقى لها طابع الجاز، بما فى ذلك الأعمال ذات الشهرة العالمية مثل بوينافيستا سوشيال كلوب ونوراه جونز اللمسة النهائية. وقبل أن نبدأ مناقشتنا اخترنا بعض السلطات والساندويتشات من بين الكثير المعروض ضمن ما تقدمه ريترو من " غذاء خلاق " (مصطلح أمل)

واستودعنا طلباتنا أحد غرسونات ريترو الشباب ذوى الزى المميز: الجينز الأسود وقميص البولو الأزرق الذى يحمل اسم المقهى.

وسرعان ما تركزت مناقشتنا على أهمية محال الكوفى شوب للنساء. قالت أمل "نجحت محال الكوفى شوب فى انتزاع الفتيات من المنازل والنوادى". وأضافت " لم يكن لدينا، قبل هذا، مكان نقضى فيه وقتًا بعد العمل ". ويمثل الوجود الغالب للنساء فى معظم محال الكوفى شوب أحد الملامح اللافتة فى الحياة الاجتماعية لمحال الكوفى شوب. فى محال الكوفى شوب الراقية هذه كانت النساء المحجبات والسافرات يمثلن، فى الغالب، أكثر من نصف الرواد. وقد اعتاد كثير من النساء غير المتزوجات مثل أمل ومريم قضاء جانب كبير من وقتهن فى محال الكوفى شوب مثل ريتروكافيه. وبعد أن قضينا نصف ساعة من النقاش انضمت صديقتان أخريان إلى طاولتنا وتدفق علينا تيار متصل من الأصدقاء والمعارف وقوبلوا بتحية حارة. وقد بلغت الحياة الاجتماعية فى ريترو ذروة نشاطها فى تلك اللحظة مع خروج الموظفين من مكاتبهم. وانعطف بنا الحديث إلى ذلك الخليط المرح من الحكايا الطويلة والأخبار المشوقة المميزة لاجتماعيات الكوفى شوب. وقد كان فى مقهى الريترو الصغير نسبيًا عدد كبير من الزوار المنتظمين فى الزيارة مثل شلة مريم اللائى يترددن على مقهى ريترو بوتيرة شبه يومية لمقابلة الأصدقاء والمعارف. كانت أمل تعرف أسماء جميع الغرسونات وكانت ودودة مع صاحب المقهى. وأوضحت لى أن ريترو كانت بمثابة بيتها الثانى.

وكان مقهى سبكترا مكانًا آخر ذا شعبية، على مبعدة شوارع قليلة وراء مسجد مصطفى محمود الشهير فى قلب المهندسين، كان المقهى مزينًا بذوق عصرى مع أثاث خشبى بسيط ومقسومًا إلى قسمين. فى القسم الأمامى الهادئ متسع للمجموعات الصغيرة، وفى الغرفة الخلفية فضاء لمجموعات أكبر على نسق المطاعم الأمريكية، مع دكك خشبية تتسع لستة أشخاص يجلسون حول مائدة، فى حين راحت أجهزة التليفزيون تعرض شرائط فيديو موسيقية كانت تبثها إحدى قنوات الموسيقى العربية،

من غير صوت، وقدمت أغنيات شعبية عربية وغربية رائجة خلفية موسيقية بديلة. ومعظم زياراتى لمقهى سبكترا كان فى أوقات النهار أو فى بواكير المساء لأقابل واحدة من صديقاتى أو معارفى. ورغم اتساع المقهى، فلطالما تعين علينا أن ننتظر بالخارج حتى تخلو إحدى الطاولات. كنا نختار طاولة فى مقدمة المقهى ونطلب سلطة أو ساندويتش. وقد اشتهر سبكترا بأنه يقدم طعامًا طيبًا ورخيصًا نسبيًا. وكانت قائمة الطعام تتألف من تشكيلة واسعة من البيرغر والسلطات والساندويتشات بما فى ذلك سلطة سيزار وكلوب ساندويتش اللذان يكاد لا يخلو منهما مكان كهذا. وفى الأمسيات كانت الغرفة الخلفية تكتظ بزحام من شباب أصغر سنًا جاء بالأساس للتفاعل الاجتماعى فى شلل مختلطة الجندر.

مقهى كوستا، بالزمالك

وذات مساء كنت على موعد مع تامر، المهنى الذى وصل نهاية العشرينيات من عمره الذى ظهر فى الفصل السابق لنتحدث حول محال الكوفى شوب. وعندما وصلت وجدته يجلس فى الغرفة الخلفية مع شقيقته وصديقة له واثنين من أبناء عمومته. كان الفضاء معبأ بالفعل بشلل شابة مختلطة الجندر. حييت تامر، وقدمنى هو إلى الآخرين. وعندما اقتربت من واحد من ابنى عمه، صمت الجميع. وجاءت شقيقة تامر إلى وطلبت منى أن ابتعد عن جارى. قالت:

إنه شخص شديد التدين ولم يكن يشعر بالراحة وأنا جالسة بجواره. وكغيره من رواد محال الكوفى شوب فإن قريب تامر حاول أن يتوصل إلى موازنة شخصية بين أسلوب حياة المهنيين الشبان الذى كان يسمح بخروجات متعددة الجندر فى أماكن راقية وبين مفاهيم دينية حول الاتصالات المختلطة الجندر وغير ذلك مما تتزايد أهميته من أمور بالنسبة لكثير من المهنيين القاهريين الشبان من الطبقة المتوسطة فى تسعينيات القرن الماضى.

وبعد برهة كنت وحدى مع تامر وصديقته وأتيح لنا أن نناقش ظاهرة الكوفى شوب. وأوضح تامر أن العرف كان يعتبر تردد الشباب على المقاهى عيبًا. وقال "والآن، وحتى مع زيادة الاحتشام فى قواعد الملبس، فهناك المزيد من الحرية " وكان يشير بذلك إلى التزامن بين شعبية الحجاب وشعبية الكوفى شوب فى أوساط الشابات المنتميات للطبقة المتوسطة العليا. وتتوافق تعليقات تامر مع ملاحظة منى أباظة التى تشير إلى أن " أسلمة الفضاء العام فى تسعينيات القرن الماضى تزامنت مع إستراتيجيات بقاء فى شكل " تخفيف المعايير " بين الشباب داخل إطار مرجعى إسلامى (٢٠٠١: ١١٨) وقد أكد الجمهور فى سبكترا هذه الملاحظات. فمقهى سبكترا كان يجتذب من المحجبات أكثر مما يجتذب ريترو كافيه، مثلا وبقدر ملموس. وقد أخبرتنى صديقة تامر التى غطت شعرها بمنديل، وهى بادية الارتياح، أن الحجاب فريضة، ببساطة، عند المسلمين[٤٢]. لكن ذلك لم يكن يعنى أن أسلوب حياتها اختلف

إلى ذلك الحد عن قريناتها السافرات. وبعد ذلك بفترة قصيرة أشارت لى إلى ما كان يعرضه الفيديو حين ركزت الكاميرا على ثلاث فتيات طويلات السيقان يرتدين ملابس مثيرة جنسيًا ويرقصن رقصة مغرية لإمتاع جمهورهن من المشاهدين. وقالت لى "فرقتى المفضلة".

وأثناء قيامى بالبحث أصبحت خبيرة بجغرافيات الترفيه الراقى فى القاهرة. وحيثما التقيت المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا فقد كان اللقاء يتم الترتيب له فى واحد من محال الكوفى شوب الراقية هذه. كان البعض يفضل الدواخل البيتية، والمفتعلة إلى حد ما، لفروع روسترى. لكن آخرين فضلوا الحداثة الطازجة فى سيلانترو بكل ما فيها من فولاذ لا يصدأ وبريق معدنى بوسائد جلدية تكعيبية الطابع وأولية الألوان على ريترو كافيه بذوقه العصرى والمنطلق رغم أنه مريح. وقد سمح النمو السريع لهذه الشريحة من الأماكن الراقية بالتنوع وإمكان الاختيار. ولكن فى حين كان لكل مكان مادحوه وقادحوه، فقد بقيت محال الكوفى شوب الراقية فضاءات يتنقل بينها روادها وكانت كلها، وبمقدار متساو، جزءا من مشهد ترفيه راق أكثر اتساعًا.

وقد كانت فقرات برامج المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا من أصدقائى ومعارفى تشمل، عمومًا، الأماكن التى هى راقية دون لبس، ولا تشمل سواها، فى حين كانوا يستبعدون، مثلاً، الأعداد المتزايدة من محال الكوفى شوب الأقل حصرية التى فى المولات (انظر أباظة ٢٠٠١). فهذه المحال كانت تختلف، بكل وضوح، عن الأماكن الأخرى وعن محيطها المباشر بفضل طابعها الغربى، ونظافتها المدهشة والصيانة التامة لحد مذهل للسمات الداخلية وكذلك تكييف الهواء الذى يولد مناخًا مريحًا على نحو ثابت. وكان يبدو أن هذه الملامح جزء من القوانين ومعايير الحد الأدنى غير المعلنة التى يتعين مراعاتها لاجتذاب زبائن معينين وللاحتفاظ بمكانة راقية. وكان للعاملين والغرسونات ذوى التدريب الجيد، المهذبين، الشبان، ذوى المظهر العصرى – قدر من

الأهمية البالغة مماثل لأهمية الأسلوب والإيحاءات بالانتماء إلى العالم الأول فى شكل الإحالات إلى محال الكوفى شوب فى تراث المقاهى الأمريكية أو الأوربية. وكان من الشروط الأساسية أيضًا الانتخاب الصارم لـ " المستوى " الاجتماعى الثقافى للزبائن والحرص الدقيق على السلوك اللائق. وقد كانت اجتماعيات الجندر المختلط هى العلامة التى ميزت محال الكوفى شوب باعتبارها من الطبقة المتوسطة العليا. لكن هذه الحياة الاجتماعية المختلطة الجندر تتطلب جمهورًا منتقى بكل عناية. والعاملون مزودون بتعليمات لترصّد خروقات اللياقة: الحميمية الزائدة بين طرفين عاشقين، قبلة مختلسة. ولو تهاونوا فى سلوك كهذا فسوف يؤدى إلى تدمير عاجل لسمعة المنشأة ويبعد عنها الزبائن الآخرين.

وقد قامت مجلات مثل كامبوس وذابيبر، وأيضًا الأهرام ويكلى بتغطية منتظمة للمواقع والتوجهات الراقية وكذلك فعلت مجلات مصقولة مثل إينيغما ("المجلة العربية الدولية للألفية الجديدة ") وبذلك فهذه المطبوعات روجت لقاهرة راقية، وبمعنى ما أنشأتها. وبدورها، فإن محال الكوفى شوب كلها اقتنت هذه المطبوعات الناطقة بالإنكليزية وما يشابهها، مؤكدة بذلك انتماءها لهذا الفرع من المدينة الراقى والكوزموبوليتانى على نحو صارخ.

وفى البداية فقد بدا أن الأساليب الغربية العصرية لمعظم محال الكوفى شوب وقائمة الطعام الأمريكية التى احتوت على الكافيه لاتيه بنكهة وبدون نكهة، وسلطات سيزار وشطائر كلوب ساندويتش والحروف الإنكليزية البارزة على قوائم الطعام فى المنشآت المحلية هى أمور فى غير محلها فى المشهد الحضرى فى القاهرة. ووجدت الاجتماعيات العفوية والمعتادة المختلطة الجندر فى الكوفى شوب أكثر غرابة. وقد شاركنى دهشتى أصدقاء قاهريون لم يكونوا من مرتادى هذه الفضاءات. ويعكس تقرير نقدى عن ريترو كافيه كمطعم كتبه نبيل شوكت فى الأهرام ويكلى (العدد ٦٧٤، ٢٢ - ٢٨ يناير ٢٠٠٤)، على نحو لطيف، دهشة الحضريين الميسورين المجربين.

" من هؤلاء الشباب ومن أين أتوا؟ " سأل صديقى (المثقف)... ففيما أقعى المثقفون المصريون مفزوعين فى مزارات زرية المنظر مرتفعة الأسعار فى وسط البلد.. نزل على العاصمة نوع جديد تمامًا من المطاعم - من ذلك النوع الذى اعتاد المشاؤون على البحث عنه فى مانهاتن أو باريس. انس كل ذلك، تكفى رحلة بالتاكسى إلى المهندسين.. ريترو كافيه رؤية مستلهمة من غرينتش فيلليج، الصنو الراقى لسنترال بيرك، الكوفى شوب (هل هو موجود حقًا؟) الذى يقضى فيه " الأصدقاء " المسلسل التليفزيونى الشهير وقتهم. لكن هذا أرقى من حيث الجو والديكور والطعام. وكل الزبائن كانوا عصريين، كل منهم حسب أسلوبه/أسلوبها - حتى مرتديات الحجاب من الأتقياء الجدد التابعين لعمرو خالد.

لاحظ الإحالات إلى الفضاءات الغربية التى يوردها كعلامات على معرفة الكاتب الكوزموبوليتانية وعلى سعة تجاربه. ويعلن التقرير أن نوعًا من التعقيد المرتبط بالعالم الأول، لم يكن معروفًا حتى هذه اللحظة فى القاهرة، قد وصل أخيرًا. وهذا الحنين إلى إعادة أقلمة ترتبط بالعالم الأول، والذى سبقت لنا رؤيته فى حالة كارفور، هو من الملامح الشائعة فى القاهرة الراقية. ورغم هذه الدهشة فإن الحياة الاجتماعية فى محال الكوفى شوب تميزت، إلى حد كبير بهالة من الاعتيادية التى لا تحتاج تفسيراً. فقد كونت محال الكوفى شوب وروادها الحصريون، فيما يبدو، الأسس الواضحة تلقائيًا للحياة الاجتماعية للأصدقاء والمعارف من الطبقة المتوسطة العليا. وبرغم أنهم لم يظهروا إلا مؤخرًا فى جغرافيات الترفيه القاهرية، فقد تصرف رواد محال الكوفى شوب وكأن حياتهم الاجتماعية كانت دائمًا تتعامل مع هذه الفضاءات باعتبارها بيتها.

ولكن مع اعتماد هذه المقاهى الراقية على الإحالات الكوزموبوليتانية، إلى حد كبير، من أجل التميز والنجاح فهى تظل متفاعلة مع رغبات ومآزق قاهرية ذات طابع طبقى محدد. وقد زرعت الصيغة الأمريكية الأصل للكوفى شوب نفسها فى مجالات الترفيه والاجتماعيات والحياة الحضرية العامة ذات الدلالة المحلية والمتنازع عليها،

وأصبح لها ما يكاد أن يكون تأثيراً ثورياً على الحياة الاجتماعية للشباب الميسور من القاهريين. وقد أصبحت محال الكوفى شوب تمثل مشهداً حضرياً ذا طرز كوزموبوليتانية صارخة تسمح بممارسات واجتماعيات جديدة للطبقة المتوسطة العليا. وأنا أستكشف فيما يلى كيف أن هذا الإطار العابر للقومية الذى خلق فضاءات للانتماء الكوزموبوليتانى له أيضاً طبيعة المشروع الطبقى المحلى، ويتم التفاوض حوله فى إطار الحساسيات القاهرية بخصوص الاجتماعيات المختلطة الجندر.

من النادى إلى الكوفى شوب

وتشير المقابلات مع أصحاب المقاهى والعاملين فيها إلى أن مفهوم الكوفى شوب أدخله إلى القاهرة قاهريون من أوساط نخبوية استلهموا الصيغ المماثلة فى أوربا والولايات المتحدة. ويقال إن كوفى روسترى فى شارع مكة بالمهندسين كان أول كوفى شوب من نوعه. وبعد فترة وجيزة من افتتاحه فى منتصف تسعينيات القرن الماضى بدأ يجتذب أعداداً كبيرة. وقال لى كثيرون إن الكوفى شوب سرعان ما اكتسب شعبيته حتى إنه صار يتعين على المرء أن يحجز مقدماً ليضمن مكاناً. ويزدحم الشارع أمام الكوفى شوب بالزبائن الذين لا مقاعد لهم بالداخل. وبعد هذا النجاح المبدئى تزايد عدد محال الكوفى شوب الراقية فى مصر بسرعة فى نهاية التسعينيات ولم يزل ينمو منذئذ. ورغم أن معظم هذه المحال كانت ملكية محلية فى ٢٠٠٢، فقد كان من الواضح أنها أقيمت على نموذج نظائرها فى أمريكا بما فى ذلك ما تقدمه من أطعمة ومشروبات فكل هذه المحال تقدم تشكيلة من القهاوى الخاصة إضافةً إلى شطائر كلوب ساندويتش وسلطة سيزر وكلا الصنفين موجود فى كل المحال[٤٣]. وفى بداية القرن الحادى والعشرين أصبحت محال الكوفى شوب الراقية هذه، مثل "تشيليز" (تيكس ميكس) وجونى كارينوز (الأغذية الإيطالية - الأمريكية) مكان اللقاء المفضل للقاهريين الشبان القادرين على دفع أسعارها العالية نسبياً.

وقبل ظهور الكوفى شوب كانت الحياة الاجتماعية لكثير من معارفى من الطبقة المتوسطة العليا تدور حول النادى. وكما يقول فينسنت باتيستى فعندما بدأت الطبقات الشعبية فى خمسينيات القرن العشرين تستخدم الأماكن التى كانت فضاءً حصريًا للبورجوازية، قبل ذلك، مثل وسط البلد والحدائق العامة "فإن رغبة فى الانفصال دفعت الطبقات الأغنى إلى.. (أن تهجر) الحدائق (وتتجه) إلى أنديتها الرياضية غير المسموح بدخولها لغير الأعضاء " (٢٠٠٦: ٥٠٢).

وصارت النوادى الاجتماعية والرياضية البؤرة الرئيسية للحياة الاجتماعية للأسر من الطبقات العليا والمتوسطة. ففى نادى الجزيرة ونادى المعادى ونادى الصيد وهى من النوادى ذات الأسماء الكبيرة، يلعب الأطفال العديد من الألعاب ويقضون الوقت مع أقرانهم فى حين يستغرق أعضاء الأسرة الآخرون فى اجتماعياتهم. وقد دأبت هذه النوادى على الترحيب بجمهور يتألف من كل الأعمار ومن الجنسين معًا. وقد اعتبرت النوادى آمنة للأنشطة الاجتماعية للنساء؛ لأنها كانت تتميز بجو أسرى وبمستوى عال من الضبط الاجتماعى. وإضافةً إلى ذلك فقد تم عزلها عن العالم الخارجى بأسوار، كما ضمنت بطاقات العضوية الحصرية الاجتماعية ودرجة من التجانس الاجتماعى.

وتحددت هوية النوادى كمجال أسرى حتى إن تحولت بعض الزوايا القصية إلى أماكن تجمع مجموعات الشباب. وقالت ندى وهى مهنية من الطبقة المتوسطة العليا فى أوائل الثلاثينيات إنها، عندما دخلت الجامعة، أرادت أن تستكشف أماكن غير الفضاءات المحكومة فى البيت والمدرسة والنادى. " فى النادى يوجد دائمًا صديق للأسرة يراقبك ". لكنها وجدت الجو فى نادى أسرتها، النادى الأهلى، خانقًا: " طبقة وسطى للغاية، أكوام من المحجبات ! " ويعكس سخط ندى على الحضور الغلاب للمحجبات أفكارًا طبقية، أكثر مما يعكس موقفها من المحجبات. فكثيرات من أسرتها ومن صديقاتها محجبات. ففى مطلع القرن اتجهت أعداد متزايدة من الشابات فى الطبقة المتوسطة العليا إلى ارتداء الحجاب، ورغم ذلك فقد بقى الارتباط التجريدى قويًا

بين الحجاب والطبقة الدنيا. ومضت ندى تقول " أعطانى والدى النادى. وعندما بدأت أعمل، كان بوسعى الخروج من النادى وأن أدفع رسم الدخول إلى عالمى أنا ". وفى وقت قيامى بهذا البحث كانت النوادى الخاصة قد كفت عن أن تكون المكان المقدم على غيره لقضاء وقت الترفيه بالنسبة للمهنيين من الشباب الذين يحملون بطاقات العضوية. وعلى شاكلة ندى، فقد أخبرنى كثيرون بأنهم توقفوا عن التردد على النادى مع دخولهم الجامعة.

ويعكس التحول بعيداً عن الجو الأسرى فى النادى إلى الوسط الأكثر ارتباطاً بمراحل عمرية معينة فى الكوفى شوب عديداً من الملامح المهمة فى هذه الثقافة الترفيهية الراقية الجديدة. فالدخول إلى النوادى يقتصر على الأعضاء. ولكى يصبح المرء عضواً فهو بحاجة إلى توصيات من أعضاء حاليين ومبلغاً معتبراً من المال. وفى السبعينيات كان متوسط دخل الطبقة المتوسطة كفيلاً بتأمين العضوية فى أحد النوادى التى تحظى بقدر مقبول من الاحترام. وفى وقت إجراء البحث كانت العضوية فى هذه النوادى المتوسطة تتطلب استثمارات كبيرة فى حين كانت عضوية النوادى الأعلى مكانة مثل نادى الصيد أو نادى الجزيرة بعيدة عن متناول الجميع ما عدا الأسر الأكثر ثراءً. لكن العضوية تمتد إلى كل أفراد الأسرة ويمكن أن تمتد لمن يرتبطون بأعضاء الأسرة برابطة الزواج بكلفة منخفضة نسبياً. وهكذا فعضوية النادى هى، أولاً وقبل كل شىء، من الأصول الأسرية تشبه ملكية شقة مؤثثة أو مقر للعطلات فى أحد المنتجعات الساحلية. ولا تعتمد الزيارات إلى الكوفى شوب على رأسمال عائلى كهذا ولا تتطلب استثماراً كبيراً. وبدلاً من ذلك فزيارة مكان كهذا تتوقف على ثبات التدفقات النقدية وهو ما يتوافق مع الدخول الشهرية المرتفعة نسبياً لكثير من المهنيين من الطبقة المتوسطة. وتسمح الكوفى شوب بالدخول إليها على أساس أكثر فردية، وهو أساس يعتمد على القدرات المالية.

ويستتبع التحول من النادى إلى الكوفى شوب حركة باتجاه فضاء وجمهور أكثر ارتباطًا بالفئة العمرية. ورغم أن الشباب لم يكونوا الوحيدين الذين يترددون على محال الكوفى شوب، فقد مثلوا، بالفعل، الجمهور السائد وبالتالى جعلوا من تلك الفضاءات مجالاً لهم، فى تناقض حاد مع الجو الأسرى فى النوادى. إضافةً إلى ذلك فقد أمنت محال الكوفى مكانًا للقاء للعلاقات الاجتماعية التى تجاوزت بتناميها علاقات النوادى. فقد لا يكون أصدقاء العمل أو الجامعة أعضاء فى النادى ذاته، وقد لا يكونون أعضاء فى أى ناد. وهكذا فالانفتاح الحصرى للكوفى شوب يناسب الطبيعة المتنوعة للطبقة المتوسطة العليا حيث لا يتشارك الجميع فى تواريخ عائلية تحقق الانتماء إلى عضوية فى ناد.

وقد بدأ كوفى روسترى وسيلانترو، وهما من أكبر سلاسل الكوفى شوب، كمنافذ للمقاهى الخاصة والأطعمة الجاهزة. وما أن حل عام ٢٠٠٢ حتى كانت السلسلتان قد عدلتا الصيغة تعديلاً مشهودًا للتجاوب مع الميول المحلية. فأصبح عدد من الفروع فى مختلف أرجاء المدينة يوفر المجالس المريحة والفخمة ويقدم قوائم طعام حافلة بالأطباق والمشروبات غير الكحولية. وبقيت عدة اختلافات. قال لى أحد الشركاء فى سلسلة سيلانترو موضحًا " نحن مختلفون عن سلسلة كوفى شوب مثل روسترى. إنهم يقدمون الطعام الساخن. أما نظامنا فيعتمد على وجود أطعمة طازجة وجاهزة للتناول، على الرف. هذا يسمح لك بالتصرف الحر فى وقتك. بوسعك أن تشاهد وتختار، الأمر متروك لإرادتك. لا أحد يضغط عليك فيما تريد، وهذا يعطى شعورًا بالاستقلال ".

ومع زيادة تركيز الكوفى شوب على الطعام اقترب كثير من هذه المحال من المطاعم. ولم يبد أن محرر مجلة كامبوس يعجبه هذا " التدهور " فى الصيغة " الأصلية "للكوفى شوب: "قبل سنوات قليلة، كان هناك محل كوفى شوب واحد فقط وهو "هاريس كافيه". كان مثيرًا، كان أوربيًا. لكن المصريين حولوه إلى شىء آخر بتدخين

الشيشة والأكل، الأكل، الأكل. إنهم لا يستوعبون فكرة القراءة فى كوفى شوب أو مجرد قضاء وقت بعيداً عن الحر". وقد أشار كريم، وهو مهنى فى أواخر عشرينياته، إلى تناقض مماثل رغم أنه كان أقل ميلاً إلى إصدار الأحكام على اتجاهات المصريين. محال الكوفى شوب فى كندا تشبه ماكدونالد (أى أن الذهاب إليها روتينى وغير مائز، وبالأساس وظيفى). وقال: فى مصر حولناها إلى صيغتنا. فهنا يعد الذهاب إلى الكوفى شوب خروجًا (الخروج، أو بالأحرى " الخروجة "، كلمة تعنى فى المصرية المعاصرة قضاء وقت ممتع خارج أسوار البيت والعمل وهذا شكل من أشكال التماثل المذهل بين نحت كلمات وتراكيب للتعبير عما يجد من احتياجات وأنشطة يومية فى الإنكليزية والمصرية المعاصرتين، فكلمة outing وكلمة خروج أو "خروجة" لهما المعنى ذاته - المترجم) وبقيت الكوفى شوب، رغم ذلك، مختلفة عن المطاعم من حيث إن الأكل اختيارى والجو العام وترتيبات الجلوس غير رسمية، إلى حد كبير. واعتبر ذلك الشريك فى سلسلة سيلانترو أن اللارسمية ملمح فارق فى الكوفى شوب عندهم. قال " لا نريد أن يعتبر الناس الذهاب إلى سيلانترو خروجًا. إن المكان عندنا هو غرفة معيشة ثانية: اقرأ، اشتغل، افعل أى شىء تريد ". وقد أعرب إسماعيل مالك الريترو كافيه عن الرأى ذاته. فما يحدد الكوفى شوب بالنسبة لكثير من الزبائن هو طبيعته التى تشبه القهوة. يمكن للمرء أن يلتقى أصدقاءه لتناول شراب من دون أن يضطر للأكل، كما هو الأمر فى المطاعم.

وأشار كثيرون إلى أن التردد على الكوفى شوب أقل كلفة، بكثير، من الذهاب إلى المطاعم أو فنادق الخمسة نجوم. وحسب تعبير كريم فإن " تناول القهوة فى كوفى شوب هو من أفضل الطرق لإنفاق عشرة جنيهات فى القاهرة. ومن فى مصر لا يملك عشرة جنيهات؟ ". وعندما أصررت على أنه ليس متاحًا لكل واحد فى مصر أن ينفق عشرة جنيهات على فنجان قهوة، أصبح كريم أكثر تحديداً: " طيب. ليس ابن الموظف (ليس ابن من يعمل لدى الحكومة) ". وتعليقه انعكاس لخطوط التشظى الجديدة التى تشق

الطبقة المتوسطة المهنية فى القاهرة. لقد كان يلمح إلى سكان القاهرة الراقية الشرعيين من أثرياء الطبقة المتوسطة العليا، مميزًا لهم عن الطبقة المتوسطة الأكبر حجمًا التى يجرى إفقارها على نحو متزايد ممن تعلموا فى معاهد الدولة وتوظفوا فى خدمتها. وهذه الأسعار التى تعد " أسعارًا معتدلة " نسبيًا (هكذا وصفها غرسون فى كوفى شوب) تسمح، بالحقيقة، لكثير من المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا بأن يدخلوا الكوفى شوب فى البرامج المعتادة شبه اليومية ولعبت هذه الأسعار دورها فى تأسيس مكانة الكوفى شوب كفضاء ذى أولوية فى الحياة الاجتماعية للطبقة المتوسطة العليا.

تدفقات عولمية، فضاءات محلية

اتخذت محال الكوفى شوب مواقع جديدة داخل جغرافيات الترفيه المحلية، عالميًا. وقد أصبح الولع بالكابوتشينو علامة عولمية قوية، تشير إلى الأذواق المرقاة فى تصنيفات محلية عالية التنوع تقوم على التمايز الثقافى. وتستمد هذه التصنيفات كثيرًا من محتواها الدلالى ومن احترامها وتميزها من تجذرها فى التدفقات العولمية (أبادوراى ١٩٩٠، غوانو ٢٠٠٢). لكن نوعية الفضاءات التى تمثلها محال الكوفى شوب فى الجغرافيات المحلية للترفية والتميز الذى يتحقق بامتلاك القدرة على تذوق الكافيه لات – هى أمور محلية قبل كل شىء.

فكل محال الكوفى شوب تنطوى على ادعاء بالانتماء إلى العالم الأول. فتصميمها وقوائم الطعام فيها اتخذت من نظائرها فى أمريكا نموذجًا لها. ومعظم محال الكوفى شوب تحمل أسماء إنكليزية. والإنكليزية واضحة أيضًا فى قوائم الطعام التى تتنوع بين قائمة إنكليزية بسيطة (بما فيها من أخطاء إلى قائمة كتبت كلها بالإنكليزية وتتضمن وصفًا للطعام والمشروبات بتعابير غريبة. فعلى قائمة سيلانترو، مثلاً، يوصف

الكافيه لات بأنه " إكسبريسو تمت تهدئته بدفقة سخية من اللبن المبخر المتوج بهمسة من الحليب المزبد ". واستخدام الإنكليزية وادعاءات العلاقات المباشرة أو غير المباشرة بالنظائر فى أمريكا يضفى إحساسًا بالكوزموبوليتانية والحصرية على المكان وما فيه من طعام ومشروبات وزبائن. وبالتوافق مع قائمة الطعام فإن اللغة المستخدمة فى محال الكوفى شوب هى خلطة الطبقة المتوسطة العليا العربية - الإنكليزية المميزة للمهنيين الشبان من الطبقة المتوسطة العليا. وهذا ينسجم، بشكل لطيف، مع الديكور وقائمة الطعام الكوزموبوليتانيين.

رواد مقهى كوستا بالزمالك

هذه الاختيارات تشير إلى الجمهور الحصرى الذى تطلع مالكو محال الكوفى شوب إلى الوصول إليه. وقد قال الشريك فى سلسلة سيلانترو إن السلسلة تستهدف الناس الذين خبروا أماكن ومنتجات مماثلة فى الخارج. " التنفيذيين فى المشروعات التجارية والناس الذين يعملون فى البنوك ". ورغم ذلك فقد شقت هذه العادات طريقها إلى جمهور أوسع. وكما أصبحت الإنكليزية (وخلط الإنكليزية بالعربية) لغة طبقية محلية فإن العادات الكوزموبوليتانية مثل تناول الكافيه لاتيه وسلطة سيزر فى كوفى شوب قد تبناها جمهور أقل حصرية وأصبحت جزءًا من طقوس يومية خاصة بطبقة وبفئة عمرية. أصبح الذهاب إلى كوفى شوب أو إلى مطعم مثل تشيلليز خبرة جسدية حميمة تشير إلى انتماء إلى الطبقة المتوسطة العليا. وفيما يعجز البعض عن قضاء يوم من دون الكابوتشينو المناسب، فإن البعض الآخر لا يكف عن مقارنة الخواص الشهية لشطائر الشيكولاتة المعروضة فى محال الكوفى شوب المختلفة.

تعيد الكوفى شوب صياغة خبرات الجسد بالحاجة واللذة. وبالتالى فإنها أيضًا تعيد رسم خرائط المتعة والاسترخاء وخطوط السير الحضرية التى تتأسس على هذه الخرائط. وهكذا يصبح الفول والطعمية، وهما طعام الإفطار للأغلبية الساحقة من المصريين يوميًا، مجرد " إفطار شرقى " بتعبير من أحدهم وهو يدعو الأشخاص الواردة أسماؤهم على قائمة البريد الإلكترونى لصحارى سافاريز. ويدفع مايكل د. سميث (١٩٩٦) بأن الميل إلى القهاوى الخاصة فى محال الكوفى شوب الأمريكية يمثل نوعًا جديدًا من رأس المال الثقافى الذى يسهل الوصول إليه. وبالمقابل فإن محال الكوفى شوب فى القاهرة قدمت شكلاً واحدًا من المعارضة الرئيسية: معارضة بين الأطعمة والمشروبات الأجنبية وبين نظيراتها المحليات. فالشخص الذى نما عنده الميل إلى أى شىء من الكابوتشينو إلى الإكسبريسو " الدوبل " هو نقيض أولئك الذين يحرصون على قهوتهم المضبوطة أو الزيادة. ولا يكمن الفارق هنا فى المعرفة بخواص

القهاوى الخاصة والقدرة على تذوقها ولكن فى الدلالات الكوزموبوليتانية للطعام والمشروبات والمكان وزبائنه.

وكما قلنا فالمخزونات الكوزموبوليتانية مثل تلك المستخدمة فى الكوفى شوب لها تاريخ طويل فى القاهرة. ففى عهود سلفت كانت أوربا، وفرنسا على وجه الخصوص، معيار كل أناقة. وكثير من المحال التى كانت تلبى احتياجات الطبقات العليا والمتوسطة العليا آنذاك كانت تحمل أسماء فرنسية وتبيع أحدث المنتجات والموضات الفرنسية. ومع بداية القرن الماضى كانت المحال الكبرى الراقية على طراز grands magasins (أباظة ٢٠٠١). ومثل محال الكوفى شوب المعاصرة ظلت مؤسسات الصفوة مثل غروبى والأميركين تعطى شعوراً بالانتماء الكوزموبوليتانى والتميز المحلى الذى ركز على الأساليب والموضات الباريسية. وقد كفت فرنسا عن أن تكون مقياس النضج والكوزموبوليتانية. وكما قال مدير لأحد محال الكوفى شوب " يريد شباب الشرق الأوسط، هذه الأيام، الأسلوب الأمريكى ". وتلاحظ إيمانويللا غوانو (٢٠٠٢) تحولاً مماثلاً من التوجه إلى الأساليب والسلع الاستهلاكية والعمارة الفرنسية إلى نظيراتها الأمريكيات مع تحول بوينيس آيريس من " باريس أمريكا اللاتينية " إلى النسخة المحلية من لوس آنجيليس أو ميامى. ومن الواضح أن هذا التحول يعكس تصاعد السيطرة الأمريكية على الساحة الدولية وغلبة الثقافة الجماهيرية الشمال أمريكية على التدفقات الثقافية الدولية. ولكن الكوفى شوب يمكن النظر إليها باعتبارها المعادل الترفيهى لفضاءات العمل الراقية لكثير من رواد الكوفى شوب. ففضاءات العمل هذه مرتبطة بشبكات اقتصادية كونية وتهدف إلى العمل وفق معايير قياسية "عولمية " صيغت بدورها وفق النموذج الأمريكى. لقد حلت الإنكليزية محل الفرنسية كلغة للنخبة وأخلى الكافيه أوليه مكانه للكافيه لاتيه، على النمط الأمريكى.

ويعطى الكوفى شوب الإحساس بالانتماء الكوزموبوليتانى من خلال الطعام والمشروبات وثقافة الترفيه. " ففيما يأخذ المرء رشفات من الكافيه لاتيه، يصبح بوسعه

أن يلامس موارد أخرى فى عوالم متخيلة تجسدت عبر تدفقات الثقافة العولمية المتمثلة فى الإعلانات والأفلام وشرائط الفيديو الموسيقية (أبادوراى ١٩٩٠) وكذلك من خلال خبرات محتملة فى الخارج، وأن يشعر بأنه جزء من مجتمع عابر للقومية من الأشخاص الذين يترددون على الكوفى شوب ويشربون الكافيه لاتيه. لكن بروز الإنكليزية فى الأسماء وقوائم الأطعمة والحياة الاجتماعية فى محال الكوفى شوب الراقية تشير إلى ما يتخلق من فروق بقدر ما تشير إلى ما يتخلق من روابط. ففيما تخلق محال الكوفى شوب الراقية إحساساً بالانتماء الكوزموبوليتانى فإنها تنأى بنفسها وبروادها عن الفضاءات المحيطة وعن غالبية القاهريين الذين " لا يملكون لغة " أى لا يتحدثون الإنكليزية.

اجتماعيات جديدة

ورغم أن محال الكوفى شوب تعظّم شأن العلاقات الخارجية فإن الثقافة الترفيهية فى الكوفى شوب القاهرية تختلف عن الحياة الاجتماعية فى نظائرها الغربية، اختلافاً محسوساً. فالكوفى شوب فى البيئة الغربية يتميز بمحدودية الأنشطة ومحدودية الأوقات المخصصة لها من النهار. وبالمقابل، فإن محال الكوفى شوب القاهرية لها ثقافة ترفيهية تتسع لأنشطة أوسع بما فيها الخروجات التى يمكن مقارنتها بالترفيه فى الملاهى الليلية. فقد كنت أتردد على الكوفى شوب لتجاذب أطراف الحديث مع صديق (صديقة) أو اثنين (اثنتين)، أو للسهرة مع مجموعة كبيرة فى أمسيات الخميس أو الجمعة. وقد كانت محال كوفى شوب بعينها تزدحم فى ليالى الخميس بمثل ما تزدحم البارات الشعبية فى المدن الغربية ليالى السبت. فى مثل تلك المناسبات تمارس شلل الشباب اجتماعياتها وتستعرض أحدث الموضات وتنخرط فى مغازلات محلية الطابع وغير صريحة. وتستمر هذه التجمعات حتى العاشرة أو الحادية عشرة مساء عندما يتعين على كثير من غير المتزوجات أن يعدن إلى بيوتهن.

وقد نجحت محال الكوفى شوب القاهرية، إلى حد كبير، فى نقل أجواء العالم الأول مع تجنب الأمور المشينة المرتبطة بالترفيه الليلى الغربى. وصيغة الكوفى شوب التى سبقت إليها شركة ستاربكس التى لها مقر رئيسى فى سياتل (م. د.سميث ١٩٩٦) تعد مثالية بالنسبة للوسط القاهرى. فهذه الصيغة من " العالم الأول " هى جزء من التدفقات الدولية للاستهلاك الثقافى المائز لكنها ليست مرتبطة بالفضاءات " اللا أخلاقية " للكحول وللأمور الجنسية السفلية فى البارات والنوادى الليلية. وحقيقة أن الكحوليات لا تقدم فى أى من محال الكوفى شوب أو ما يناظرها من مطاعم راقية مثل تشيليز أو تى جى أى فرايديز هو أمر بالغ الأهمية، من هذه الناحية. فغياب الكحول يساهم مساهمة ملموسة فى حالة الاحترام التى ترتبط بالكوفى شوب وبجاذبيتها لدى جمهور أعرض فى الطبقة المتوسطة العليا. وكما تلاحظ منى أباظة فإن "الجيل الجديد قد اكتسب، من خلال اللقاءات فى الكوفى شوب، حريات لم تكن معروفة من قبل، ففى حين شهدت سبعينيات القرن الماضى تزايد الهيمنة البوليسية على الفضاء العام وتزايد تشظية هذا الفضاء، بالتوازى مع صعود الإسلامية، فقد شهدت التسعينيات تزايد المتاح من هذه الفضاءات التى أعيدت صياغتها" (أباظة ٢٠٠١: ١١٨). وتستكشف مها عبد الرحمن صعود عالم من السلع والخدمات الاستهلاكية التى صيغت على نحو يناسب أساليب الحياة الإسلامية وبهدف منح "المسلمين الملتزمين فرصة التعبير عن تدينهم دون أن يضطروا إلى هجر الحياة الاستهلاكية التى تسمح لهم باستعراض ثرائهم والاستمتاع برفاهية الثقافة الاستهلاكية للطبقة المتوسطة السائدة فى مصر" (٢٠٠٥: ٤: لدراسة قضايا مماثلة فى أسطنبول انظر نافاروياشين ٢٠٠٢). وترى مها عبد الرحمن أن هذه "الموجة الجديدة من الاستهلاكية الإسلامية" تتناسب مع الجيل الجديد من الدعاة أمثال عمرو خالد الذى تركز تعاليمه على التصالح بين "الدين" و"الحياة" (الميسورة والمريحة) (عبد الرحمن ٢٠٠٥). وفى حين أن محال الكوفى شوب ليست موسومة بطابع إسلامى فإنها توائم بين التعاليم الدينية والرغبة فى الاستهلاك الصارخ وتمثل بنظر ملاكها جزءاً من التصالح الخاص بهم هم بين "الدين" و "العالم".

وعندما سألت الناس عن أسباب شعبية الكوفى شوب والقبول المتزايد بهذا الترفيه العام والمختلط الجندر أشار معظمهم إلى تأثيرات الميديا. واعتبر كثيرون أن التأثيرات الخارجية (من بره، أى من الغرب فى هذه الحالة) لها دور مركزى فى " القدر الأكبر من الحرية " الذى تنعم به الكوفى شوب فى الحياة الاجتماعية. واعتبرت الميديا أداة فى تحقيق هذا الأثر وخصوصًا القنوات الفضائية العربية التى تتزايد أعدادها وتتزايد شعبيتها. لقد حطم " الدش " احتكار الحكومة لبرامج التلفزة، والأهم أنه حطم احتكارها للسيطرة على تدفق المعلومات وهو أمر له دلالته السياسية. لقد فتح نافذة على ثقافة بصرية وموسيقية أكثر حداثة وعلى العديد المتنوع من السلع والرغبات الاستهلاكية. وقد كان تأثير هذه التدفقات الثقافية الكونية مهمًا، لكن هذا هو ما حدث فى لحظات مختلفة فى مصر القرن العشرين، كما قلنا. وأزعم أن شعبية الكوفى شوب وثقافة الترفيه المختلطة الجندر لدى الشباب القاهرى الميسور فى مطلع القرن الحادى والعشرين يجب أن تفهم، أولاً، فى ضوء التحولات الاجتماعية - الاقتصادية للعقود الأخيرة، والتشكيلات الاجتماعية الحضرية الخاصة التى نشأت فى هذا الإطار.

وينتمى كثير من النساء والرجال الذين يترددون على محال الكوفى شوب الراقية إلى الطبقة الفرعية الخاصة بالمهنيين من الطبقة المتوسطة العليا الجديدة ممن تمكنهم مرجعياتهم الاجتماعية ورأسمالهم الثقافى من الحصول على رواتب عالية نسبيًا. فبعد الانطلاق على المسار المهنى أصبح كثيرون منهم معتادين على قضاء جانب كبير من أوقاتهم خارج المدار الأسرى. فقد تجاوز نمو شبكاتهم الاجتماعية الحى والمدرسة والنادى. وهؤلاء المهنيون يعمرون فضاءات الشغل المحددة طبقيًا حيث العلاقات العارضة بين الجنسين وخلط الإنكليزية بالعربية والمرجعيات الكوزموبوليتانية هى النمط المعتاد. ويمكن النظر إلى الكوفى شوب باعتباره معادلاً ترفيهيًا لفضاء الشغل هذا. وكغيره من أصحاب محال الكوفى شوب فإن مالك ريترو كافيه يرى أن الكوفى شوب يفى باحتياجات " المهنيين الجدد " أكثر مما يفى باحتياجات العائلات. وقد ربط الكوفى

شوب بفضاءات الشغل الجديدة التى وصفها بأنها " مودرن جدا " (حديثة للغاية) وشديد الاختلاف عن " الجو الشرقى " للعائلة.

وقد تكون فترة الوقوف الطويلة عند أعتاب النضج والاستقلال الجزئيين اللذين خبرهما كثير من المهنيين غير المتزوجين (من الجنسين - المترجم) من الطبقة المتوسطة العليا أمرًا بالغ الأهمية بالنسبة لتطور ثقافة الترفيه المختلطة الجندر على هذا النحو. وقد نشأ عن ارتفاع سن الزواج وظاهرة الطلاق المتكرر والمبكر فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا ظرف يجعل كثرة من النساء والرجال من الطبقة المتوسطة العليا يعيشون لفترات مطولة مع الأبوين مع حيازتهم لدرجة عالية من الاستقلال المالى والشخصى. فليست لديهم مسئوليات تجاه زوجة أو زوج أو أطفال ولا فضاء خاصًا بهم لاستقبال ضيوفهم أو إدارة حياة اجتماعية، بشكل عام، بعيدًا عن إشراف العائلة. وبالنسبة لكثير من هؤلاء القاهريين الشبان فالبيت يقوم بدور لا تتحقق فيه الحياة الشخصية، بما يتطابق مع وضعهم كأشخاص بالغين فى العمل وفى الحياة الاجتماعية، إلا على نحو مجزوء. ونتيجة لذلك، فإن جانبًا كبيرًا من حياتهم الشخصية الاجتماعية يتحقق فى الفضاءات العامة، خاصة فى الأماكن الراقية مثل محال الكوفى شوب أو المطاعم. وقد أوضح مهنى أعزب فى نهاية عشرينياته، بأسلوب ساخر، السبب الذى أوجب عليه أن يلزم بيته فى أول أيام الاحتفال بالعيد، رغم أنه كان يخطط للسفر. قال إن أمه شكت من أنه بدأ يتعامل مع البيت كأنه فندق.

القاهريون الميسورون وحدهم هم القادرون على تمضية الوقت فى أماكن مكلفة نسبيًا مثل محال الكوفى شوب الراقية. لكن شبانًا وشابات من شرائح أخرى انخرطوا هم أيضًا فى الاجتماعيات المختلطة الجندر فى الفضاءات العامة. فالبطالة وتدنى الأجور وافتقاد المسكن المناسب جعلت الزواج إنجازًا صعب التحقق بالنسبة لمعظم الشباب من الطبقة الدنيا والمتوسطة الدنيا. وهذا أحد أسباب ارتفاع سن الزواج فى العقدين الأخيرين (رشاد وعثمان ٢٠٠٢، عثمان وشهد ٢٠٠٣، سينغرمان وإبراهيم

٢٠٠٣) ومثل نظرائهم الأكثر ثراء فعديدون منهم يعيشون فترة انتقال من المراهقة المطولة أو الرشد الجزئى ببقائهم فى بيوت آبائهم. وفى الوقت ذاته يبدو أن هناك تخفيفًا جزئيًا للضوابط المفروضة على الاجتماعيات المختلطة الجندر فى الفضاءات العامة، وهو ما يسمح للمخطوبين بمجال أوسع، إلى حد ما، للتلاقى والتعارف - بعلم العائلة أو بغير علمها (أباظة ٢٠٠١).

وليس بوسع المرء وهو يتجول فى أنحاء المدينة إلا أن يلاحظ أهمية الاجتماعيات العلنية المختلطة الجندر بين الشباب الأقل ثراء وانتشارها. فالثنائيات الرومانسية لها حضور غلاب فى الفضاءات العامة فى القاهرة. والأكثر وضوحًا هو الحضور الواسع النطاق للثنائيات من " محدودى الدخل " فى الحدائق العامة وعلى ضفتى النيل. وهذا الاحتلال للفضاء العام من أجل لقاءات رومانسية وحميمة يعبر عن تناقض مع قوانين الآداب التى تغطى جانبًا كبيرًا من السلوكيات العلنية بما تفرضه من ضوابط على الجهر بما يتصل بالعلاقات الحميمة بين الجنسين تجسيدًا للمحاولات المنقوصة التى لا تكف عنها الدولة لتكريس بيت الزوجية الخاص باعتباره الفضاء الوحيد المناسب والقانونى للعلاقات الحميمة.

وقد شهدت القاهرة فى العشر سنوات الأخيرة نشوء عدد كبير من مولات التسوق التى يستهدف بعضها جمهورًا عريضًا من الطبقة المتوسطة. وفى مقال يشرح أهمية مولات التسوق فى إعادة صياغة الفضاء العام تدفع منى أباظة بأن مولات القاهرة تؤمن فضاءات جديدة " للتفاعل الاجتماعى "، ولتشكيل أساليب الحياة والاحتياجات الاستهلاكية وفضاءً جديدًا للشباب والمهنيين الجدد... فالمولات أماكن مثالية للاختلاط وللمغازلة " (٢٠٠١: ١١٨ - ١١٩). وقد خلقت هذه المولات فضاءات حضرية محمية ومحترمة للاجتماعيات المختلطة الجندر تحت اسم التسوق البريء. لكن من أعرفهم من المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا لم يكونوا يستخدمون المولات كفضاءات للقاءاتهم المنتظمة. فهم يفضلون أجواء الكوفى شوب الراقية الأكثر حصرية وشبابًا والأكثر

ارتباطًا بالطبقة المتوسطة العليا. وهكذا فإن الهموم والمشكلات التى يتقاسمها معظم الشباب القاهرى تجد تعبيراً طبقى الطابع عنها فى الفضاء المدينى المتشظى على نحو متزايد فى القاهرة. وبعكس نظرائهم الأقل ثراءً فإن المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا يملكون رأس المال اللازم لابتداع حلول مريحة، لها مكانتها و" احترامها "، لهذه المشكلات داخل المشهد الحضرى.

حداثيات الترفيه المتنازع عليها

مثلت محال الكوفى شوب رمزًا لحضور طالع للطبقة المتوسطة العليا فى المشهد القاهرى. فقد انتزعت فضاءات عامة لأساليب الحياة ولأنماط الاجتماعيات الخاصة بالطبقة المتوسطة العليا. وقد تميزت محال الكوفى شوب عن غيرها من فضاءات الترفيه بالزيارات اليومية وبدرجة واسعة من القبول داخل طبقة متوسطة عليا واسعة. ورغم أن الجمهور المختلط الجندر على نحو واضح هو من العلامات المميزة، منذ فترة طويلة، لأماكن الترفيه للطبقة المتوسطة وللنخبة، فغالبًا ما كانت هذه الأماكن تتحدد طبيعتها باعتبارها فضاءات عائلية أو مكرسة لخدمة جمهور أوسع. وفوق ذلك فقد كان هذا النوع من الترفيه ينظر إليه باعتباره خروجة خاصة أكثر مما هو روتين يومى. ويمكن القول إن محال الكوفى شوب اختلفت عن غيرها، على نحو خاص، بفضل الطبيعة التلقائية واليومية للاجتماعيات العلنية للنساء.

ويدفع والتر أرمبراست (١٩٩٩) بأن الطبيعة المختلطة الجندر لممارسات الترفيه النخبوية – اختلاط الرجال والنساء فى الفضاءات العامة – كانت بؤرة التدافعات الطبقية طوال القرن العشرين. فقد كان وجود النساء فى الأماكن العامة علامة رئيسية على ممارسات نخبوية " مستغربة " أو كوزموبوليتانية، ينظر إليها منذ عهد طويل على أنها مؤشر للحداثة والنضج ومصدر شرعية لمكانة النخبة ولامتيازاتها (أباظة ٢٠٠١).

وفى كتابه " الترفيه البورجوازى وأوهام الميديا المصرية " (١٩٩٩) يدفع آرمبراست بأن الطبيعة المختلطة الجندر لممارسات الترفيه النخبوية - اختلاط الرجال والنساء فى الفضاءات العامة - هى منذ عهد بعيد بؤرة لتدافعات تدور حول الأصالة كنقيض للتغريب وللنضج من جهة والتحلل الخلقى من جهة مقابلة.

ويمثل البلاج بما يشهده من اختلاط مختلف عليه بين رجال ونساء شبه عراة، علنًا، منطقة خطر يشترك فيها الميديا التى تصورها، ويرمز إليها بتعامله مع النساء بوصفهن القضية الأكثر إثارة للخلاف فى مساجلات الشرق/الغرب. فتصاوير البلاج تشمل النساء دائمًا، وعلى نحو ذى مغزى. فإن لم تشمل النساء لم يبق ما يقال أو ما يصور، لا شىء يسجل منطقة التجريب الاجتماعى التى يحددونها ويتقاسمونها. (آرمبراست ١٩٩٩: ١٠٧) علاوة على ذلك فإن آرمبراست يلاحظ أن الخلافات حول ممارسات الترفيه تكشف عن تركيز قوى على الطبقة. وهو يدفع بأن المصريين من الطبقة المتوسطة يجب أن يتجنبوا كلا من مهاوى التخلف عند الطبقات الدنيا والتحلل الخلقى وانقطاع الجذور المرتبطين بالأثرياء.

الترفيه ليس للفقراء، ولا يكون صحيًا عندما يستغرق فيه أصحاب الثراء الفاحش. فالتحلل المفترض فى كل من الفقراء والأغنياء يضع هوية الطبقة المتوسطة بين قوسين. فالفقراء موضع ريبة بسبب " عجزهم " عن تكييف حياتهم مع المؤسسات الحديثة، والأغنياء بسبب كوزموبوليتانيتهم التى لا جذور لها، على الطرف الآخر من القوس الاجتماعى. ويوصف هذا العجز " عن مواكبة البرنامج " بتخلف مفترض. وبالنسبة للأغنياء فالعجز مرتبط بغياب الأصالة وبالطابع الأجنبى والانتماء إلى الطبقة المتوسطة يعنى رفض هذين الشكلين من التطرف. (آرمبراست ١٩٩٩: ١١٢).

ووفقًا لما يقوله آرمبراست فقد ظلت المعايير التى حكمت الخلافات حول الطبقة والأخلاق والأصالة ثابتة على نحو لافت طوال القرن العشرين، لكن تبقى الأشكال

المحددة التى اتخذتها هذه الخلافات طوال القرن العشرين كحقبة زمنية عاصفة أمرًا غير واضح. إلى أى مدى كانت الحداثة في العهد الناصرى قادرة على انتزاع صور التحديث بعيدًا عن الصورة المثيرة للسخط المرتبطة بالغرب ومفهومات الكوزموبوليتانية عديمة الجذور وعلى النجاح فى إعادة ابتكار الحداثة كحقل لنشاط طبقة وسطى كبيرة تتميز بالتقدمية والأصالة؟ وما الدور الذى أنيط بالاجتماعيات المختلطة الجندر فى هذه الحداثة؟

وتعطى الأفلام التى أنتجتها الدولة فى العهد الناصرى انطباعًا بالنجاح فى توطين الحداثة حيث لعبت الاجتماعيات السلسلة والمختلطة الجندر فى الفضاءات العامة مثل الجامعة والنادى والبلاج دورًا رئيسيًا (انظر آرمبراست ١٩٩٩، غوردن ٢٠٠٢). وقد سمعت تعليقات كثيرة عن الأجواء الليبرالية نسبيًا فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى، الفترة التى سبقت تصاعد التعبئة الدينية. وكثيرًا ما كان يقال لى إن هذه كانت الفترة التى ارتدت فيها النساء المينى جيب وليس الحجاب. وبرغم ما يقال عن أيقونة المينى جيب فلا يزال غير واضح أى نوع من الاجتماعيات العلنية المختلطة الجندر كان يحدث آنذاك. فالأفلام التى تعد الآن من كلاسيكيات السينما والتى تصور المصرى الحداثى كانت جزءًا لا يتجزأ من برنامج حداثى. ويبقى السؤال إلى أى مدى كانت هذه الأفلام تمثل ممارسات كانت بالفعل شائعة فى أقسام واسعة من الطبقة المتوسطة. وماذا كانت طبيعة رد فعل الحركات الإسلامية وما تلا ذلك من تصاعد فى التدين؟ كيف أثرت التعبئة الدينية على الترفيه المختلط الجندر واستخدام النساء للفضاء العام؟ وبالنظر إلى ندرة التواريخ الاجتماعية – الثقافية المفصلة للطبقة المتوسطة فى القاهرة، أكتفى بالإشارة إلى أن ثقافة الكوفى شوب الجديدة يتعين أن توضع فى هذا المجال المعقد من الخلافات حول المعايير النوعية للياقة والتدين والتأثيرات الغربية. ويمكن النظر إلى محال الكوفى شوب وجماهيرها الميسورة

المختلطة الجندر باعتبارها أحدث تجسيدات الممارسات وأساليب الحياة الكوزموبوليتانية المائزة، التى تستخلص فى إطار مؤشرات اللياقة الاجتماعية والدينية. وكما جرى من قبل فإن الخلافات حول ممارسات الترفيه المائزة هذه ركزت، على نحو ذى مغزى، على المعدن الأخلاقى للنساء اللائى شاركن فى أشكال الترفيه هذه.

وكثيراً ما أحاطت الشكوك وأشكال الحظر بالاجتماعيات المختلطة الجندر وبحضور غير المتزوجات فى أماكن الترفيه، دون رقابة من أولياء الأمور. وترتبط هذه المخاوف بأفكار واسعة الانتشار تعتبر الزواج الظرف المشروع الوحيد للاتصالات المختلطة الجندر فى غير المجال الوظيفى وكذلك بما هو متصور من ضرورة السيطرة على حركة الشابات غير المتزوجات وعلى سلوكهن (الجنسى) بهدف حماية سمعة الفتاة وسمعة عائلتها، معا، وحماية فرصها فى الزواج (انظر ماكليود ١٩٩١، وغنام ٢٠٠٢). فمسئولية الأسرة عن الفتاة ومسئولية الفتاة أمام أسرتها لا تتوقف، عموماً، عندما تصبح شخصاً راشداً ومستقلاً ماليًا. فالإشراف على الفتيات فى سن الزواج ينظر إليه باعتباره جزءاً أساسيًا من المسئولية العائلية عن الحفاظ على الفتاة من الانحراف وعن حماية سمعتها. وتحديد موعد الرجوع إلى البيت هو الشكل الأكثر انتشاراً للإشراف وهو نظام ترى فتيات كثيرات أنه يفرض، بالأساس، لحماية سمعة العائلة بين الجيران.

وبين فضاء الكوفى شوب والفضاء العائلى فى البيت توتر غير معلن خاصة فيما يتعلق بالاجتماعيات المختلطة الجندر. وقد أشار عدد من المهنيين إلى أنه ليس بمقدورهم أن يلتقوا الأصدقاء من الجنس الآخر فى البيت. قال كريم " إذا كانت إحدى شقيقاتك بالبيت فلن يكون بوسعك استقبال أصدقائك فيه ". وأضاف تامر موضحاً " لا تقبل العائلات بزيارات الأولاد والبنات. عيب. حرام. لكن هذا ممكن فى الكوفى شوب. فالعائلات تنتقد الأشياء التى أصبحت من الأمور العادية فى الكوفى شوب. وفى المكان

الذى كنت أعمل فيه من قبل، لم يكن هناك حرج، كان الرجال والنساء يتفاعلون بحرية. معظم الناس كانوا متفتحى العقول ولم تكن لديهم مشاكل. لكن سلوكًا كهذا يصبح غير ممكن فى الشارع. وفى الأماكن الأخرى يتوقف الأمر على مظهر الفتاة وعلى المكان نفسه ". ويرسم تعليق تامر صورة سريعة للفضاءات المتباينة التى يعمرها كثير من المهنيين غير المتزوجين. والقواعد والمعايير الاجتماعية المختلفة التى تسود فى هذه الأماكن. ويوضح تعليقه أيضًا الدور المهم للكوفى شوب فى صياغة اجتماعيات الطبقة المتوسطة العليا المختلطة الجندر والعلنية باعتبارها اعتيادية ومحترمة. فالفضاء العائلى فى البيت لا يسمح، فى الغالب، بالاجتماعيات العفوية المختلطة الجندر التى أصبحت هى القاعدة فى الكوفى شوب.

وفى حين يأتى بعض الناس بأصدقائهم لمقابلة الأبوين، فمعظمهم يحافظ على الانفصال بين الحياة " الاجتماعية العامة " والحياة " العائلية " الخاصة به. وكما قال باهر " يجب أن تختار من تأتى بهم إلى البيت، بعناية ". وهو يدفع بأن الهاتف المحمول لعب دورًا مهمًا بهذا الخصوص. فإمكانية تلقى مكالمات أو إجراء مكالمات لا يشعر بها أحد تسهل الفصل بين الحياتين العائلية والاجتماعية الشخصية. وبرغم الاستثناءات، فمعظم معارفى من الطبقة المتوسطة العليا بذلوا جهودًا فائقة لفصل العالم العائلى فى البيت عن العمل وعن الحياة الاجتماعية. ونادرًا ما تناقش الأمور العائلية فى الكوفى شوب، رغم أن معظم المهنيين غير المتزوجين ما زالوا يعيشون مع الوالدين ويعتمدون عليهما ماليًا: فتلك اللحظات والحيوات الأخرى لا تكون حاضرة إلا على نحو مبهم فى الكوفى شوب، عند ذكر موعد الرجوع إلى البيت الذى يذكّر بالسلطة الإشرافية للعائلة، مثلاً، أو من خلال التعليقات المهموسة عن الوزن المالى لشخص ما أو عن الروابط العائلية الرفيعة.

والتحيات المتبادلة مسألة ترمز إلى إعادة الصياغة، على نحو معقد للاجتماعيات المختلطة الجندر فى الكوفى شوب. فبين الرجال أصبحت التحية بالعناق والقبلات أقل

شيوعًا. ابتعد الرجال عن هذه الحميمية الجسدية، أما بين النساء فقد بقيت هى الأصل. فالحميمية الجسدية بين الرجال والنساء لها حدودها، التى تختلف من شخص لآخر. وفيما اعتاد البعض على تحية الأصدقاء من الجنس الآخر بالعناق والقبلات، فقد يرفض آخرون المصافحة لأسباب دينية، وخاصة فى حالة النساء، مراعاة للياقة وللسمعة الجنسية.

وذات يوم حضرت افتتاح معرض للفوتوغرافيا لعدد من أعضاء صحارى سفاريز. وعندما حييت أحد المعارف وهو فى منتصف عشرينياته، كما هو معتاد بقبلتين على الخد، ووجهت باستجابة جامدة على نحو غير معتاد. وبدرجة من الحرج قدمنى إلى والديه اللذين جاءا لحضور العرض. ففى حضور والديه أصبحت تحياتنا المعتادة أمرًا غير لائق، عملا قد يضطر إلى الدفاع عنه فيما بعد، عندما تعود الأسرة إلى البيت. وقد أوضح اضطرابه التفاوت بين الحيوات الاجتماعية العامة والحيوات البيتية لكثير من المهنيين الشبان. وتشير التحولات فى طرائق تبادل التحية إلى إعادة رسم الخطوط المتعلقة بالاجتماعيات المختلطة الجندر فى الكوفى شوب الراقية. لكنها تشير أيضًا إلى حدود التواصل الجسدى المتساهل بين الرجال والنساء. فهذه الحميمية المختلطة الجندر لم تخرج عن إطار الكوفى شوب، وحتى هناك فقد كانت تعد إشكالية بحد ذاتها فى ضوء القواعد الدينية والاجتماعية.

وتمثل الكوفى شوب الراقية فضاءات تجريبية لحضور طبقى جديد. ففى فضاءات الكوفى شوب يمكن أن تعاش ذوات واجتماعيات معينة، بمنأى عن التدخل العائلى ويمكن أن تمارس الحميمية وأن تبقى الذوات المهنية متماسكة. لكن فضاءات الكوفى شوب أرست أيضًا أنماطًا معيارية معينة من الاجتماعيات ومن الأداء العام قد تتوافق أو لا تتوافق مع الآراء والممارسات الشخصية خارج هذه الفضاءات العامة. وعادة ما يظهر رواد الكوفى شوب أنهم معتادون على المحيط الكوزموبوليتانى والصحبة المختلطة

الجندر ومرتاحون إليها. ويبدو الحبور على الجميع، دون استثناء. كما يُظهر الجميع أنهم يعتنقون وجهات نظر متشابهة هى ليبرالية بدرجة معتدلة. تعكس النقاشات، فى أغلب الأحوال، موقفًا وسطيًا لا ينفع ولا يضر مع اتجاه إلى حجب جوانب من حياة الحاضرين إذا كانت " متحررة " أكثر مما يجب أو " محافظة " أكثر مما يجب، خاصة فى المجموعات المختلطة الجندر الأكبر حجمًا. وتتجنب هذه المحادثات، عمومًا، القضايا المختلف عليها مثل الكحول وارتياد منتديات بعينها والعلاقات الجنسية قبل الزواج فى الوقت الذى تظهر فيه درجة معينة من التقدمية ذات الطابع العمومى فيما يتصل بالاجتماعيات المختلطة الجندر. وتنتشر هذه الأشكال من الأداء المعيارى، على نحو خاص، فى مجموعات الشباب غير المتزوجين رجالاً ونساءً، لأسباب منها أن هذه اللقاءات الاجتماعية تقوّم بشكل روتينى فى ضوء إمكانيات الزواج وهو الأمر الذى يسعى إليه الجميع. ويبدو أن الكوفى شوب توفر منطقة وسطى آمنة يمكن أن يلتقى فوقها المهنيون الشباب من الطبقة المتوسطة العليا من مختلف الأوساط العائلية ومختلف المعتقدات، وأن يتفاعلوا داخل الإطار المشترك لألفة كوزموبوليتانية محافظة على احترامها.

ويرى كثيرون أنه برغم المظاهر فإن هذه التوجهات التقدمية التى تبقى رغم تقدميتها محترمة لا يتقاسمها كل الحضور. إن عددًا من صحبة الكوفى شوب الذكور الذين عرفتهم يترددون على البارات، أحيانًا، وهذه حقيقة نادرًا ما تذكر فى لقاءاتنا. وبالمقابل فإن كثيرات من بين صديقاتى غير المتزوجات ممن بلغن نهاية العشرينيات أو أوائل الثلاثينيات أظهرن عدم الثقة بالتوجهات التقدمية التى يتبناها كثير من أصدقائهن ومعارفهن من الذكور. ولديهن شكوك فى التزام هؤلاء الرجال بوجهات النظر التقدمية التى يظهرونها فى محيط الكوفى شوب. وهن يقلن إن الرجال المصريين قد يصورون أنفسهم بصورة التقدميين وقد يخرجون مع الزميلات والصديقات وقد

يصل الأمر بهم إلى الارتباط بعلاقات حميمة مع نساء لهن بالمثل مسيرة مهنية وحياة اجتماعية خارج البيت. لكنهن مقتنعات بأنه على الرغم من الأداء العلنى فمعظم الرجال، إن لم يكن كل الرجال. يفضلون زوجة صغيرة غير مجربة ترضى برعاية أسرتها وتبقى بالبيت لتلبى احتياجات زوجها وأطفالها. وقد دأبت مها، وهى شابة غير متزوجة فى أواخر عشرينياتها، على مناقشة المسارات الدقيقة التى تسلكها لتحافظ على سمعتها الجنسية وعلى احترامها. نعم هى تقبل بتعدد المكالمات التليفونية والرسائل الإلكترونية مع من يمكن الارتباط بهم، لكنها لا تلتقى رجلا على انفراد قبل أن تتخذ العلاقة شكلاً رسمياً بالتخطيط للخطبة. فى ذلك الوقت كانت مها داخلة فى تجاذب استمر طويلاً مع رجل اعتبرت أنه قد يكون زوجًا مناسبًا، وكثيراً ما أخذتنى معها كى لا ينفرد بها الرجل. وقبل هذه اللقاءات وبعدها، وخلال اللحظات القصيرة التى خلوت فيها إليها فى الحمام، كنا نناقش القضايا الشائكة المتصلة بسمعة الفتيات وبالزواج. وقد كانت تبذل جهوداً مضنية لإدارة الانطباعات التى تتعمد إحداثها فى حضوره. فقد كانت، مثلاً، تعلق تعليقًا سلبياً على بعض أشكال السلوك التى يعتبر هو أنها لا تليق بالنساء، مثل ارتداء المايوه، وكانت تجعل جسدها يتحدث لغة الحشمة، وكغيرها من نساء الطبقة المتوسطة العليا فقد كانت تخشى أن يفضل عليها، بالنهاية، فتاة محجبة توافق على البقاء بالبيت لتركز على دورها كأم وزوجة، فهذا هو نموذج الحشمة وإعمار البيوت. والحقيقة أن ما قاما به من استكشاف متبادل انتهى إلى خلاف حول عمل المرأة. وعندما أفصح عن تفضيله لربة بيت، أقلعت مها، أخيراً، عن محاولتها الظهور بمظهر زوجة المستقبل المثالية بالنسبة له.

ويقول الجزء المعنون"مشاوير المدينة " :من تناول قهوة فقط إلى تناول وجبة كاملة. إن كافيه مو"المكان الأحدث فى القاهرة للتجمعات الشبابية هو مزيج مذهل من محال الكوفى شوب والمطاعم.وباعتباره الأول من نوعه فى القاهرة فهذا المكان الحميم فى القاهرة يفخر بمختارات راقية من القهوات وبقائمة طعام طويلة بها أطباق يسيل لها اللعاب ، فى جو تؤمنه الألوان الدافئة للأرضية والخشب الداكن.إن "كافيه مو أثبت أنه الكافيه رقم واحد فى القاهرة"

ورجال القاهرة، بشكل عام، لهم اليد العليا فيما يتعلق بسلوكهم الاجتماعى والجنسى. وكما تقول كارين فيرنز (١٩٩٧) فى دراستها عن طلبة الجامعة القاهريين فبوسع الرجال أن ينتقلوا من دور الغريب الذى يغوى ويتحرش إلى دور المحب العاشق ثم إلى دور الخطيب الصارم، فالزوج أو الأخ، حسب العلاقة التى تربط الرجل بالمرأة ذات الصلة، يمكن أن يكون الواحد منهم عاشقًا يمارس الغواية وبمجرد أن يخلى الحذر مكانه للحب وللتخلى عن الحشمة أو حتى العذرية يعتبرون تلك التى كانت هدفًا لغرام جارف غير صالحة للزواج. أما النساء فمجال المناورة لديهن أضيق. فاختياراتهن المتعلقة بأسلوب الحياة وبالأنشطة اليومية تترك عليهن علامتها بوصفهن نساء أقدمن على خيارات أخلاقية معينة. وكما أبيّن فى الفصل التالى فإن حركتهن فى المدينة يمكن قراءتها باعتبارها اشتباكًا مع الضرورات المتناقضة للظهور العلنى وللياقة والاحتشام الجنسيين.

وينظر إلى محال الكوفى شوب والمطاعم والبارات على أنها تختلف وفقًا للأسعار وللشياكة ووفقًا لما هو متوقع أو مسموح من سلوكيات الرواد و "مستوياتهم الاجتماعية". ورغم أن ارتفاع الأسعار والشياكة والتساهل ليست عناصر مترابطة فمن المفترض، عمومًا، أنها تظهر مجتمعة فى الأماكن الموجودة عند الطرف الأعلى من القوس مثل كافيه مو. وتتوافق هذه التصنيفات مع التفاوتات الطبقية المتصورة إزاء ممارسات كهذه. وقد كان تامر يعبر عن رأى شائع عندما وزع هذه التوجهات وفقا لخريطة القاهرة المقسمة طبقيا. قال " فى مصر الجديدة يكون من الطبيعى للفتاة أن يكون لها صديق، إنهم أكثر تأثرا بالخارج، أكثر حرية، فى المهندسين تجد الأمور بين بين، فى الأحياء الأخرى لا سبيل إلى ذلك ". أو كما أوضحت مها " لا توجد مشاكل عند الطبقات الأدنى والأعلى (بالنسبة للعلاقات الجنسية). هم مختلفون عنا ". وتتناغم هذه التعليقات مع ما يدفع به آرمبراست بخصوص الطبيعة المحددة للترفيه عند الطبقة

المتوسطة، كما أوضحنا من قبل. فالانتماء عند الطبقة المتوسطة فى القاهرة يستتبع تجنب ما هو شائع عن الطبقات الدنيا من افتقاد التعقيد والخبرة الكوزموبوليتانية، كما يستتبع تجنب ما ينظر إليه باعتباره الترخّص عند النخبة. فأهل الطبقة المتوسطة يبحرون فى مجرى وسط بين الولاء لـ " الحداثة " وبين شبح الكوزموبوليتانية المنبتّة (آرمبراست ١٩٩٩: ١١٢). وتمثل اللياقة والحشمة الأنثوية بؤرة مهمة للجدل حول هذه الممارسات الترفيهية المائزة.

وفى حين تتسامح زبونات الكوفى شوب الراقية ممن عرفتهن مع أجواء الكوفى شوب، بشكل عام، فهن يرصدن هذه الفضاءات، تحسبا لأى خروج على اللياقة أو الاحترام. وفى ربيع ٢٠٠٢ شدت كافيه ريترو التى كانت قد افتتحت حديثًا اهتمام الكثيرين فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا التى عرفتها. وقد امتدح الناس ما تتسم به من دعة وجو فريد يعود فى معظمه إلى التصميم الداخلى البيتى وإلى اللمسات الشخصية للمالك. وإذا كانت محال الكوفى شوب والمطاعم الأخرى تخلق جزرا من الخصوصية يمكن فيها للشلل القائمة بالفعل أن تمارس اجتماعياتها، فإن تصميم الكوفى شوب هنا احتوى على مائدة طويلة ومنطقة جلوس مشتركة مريحة قصد بها السماح بالمزيد من فرص اللقاء العارض. وقالت لى مها إنها أقلعت عن التردد على ريترو بعد زيارات قليلة. قالت لى هذا المكان يجمع فتيات يبحثن عن علاقات. هل رأيت كيف يزحف بعضهم باتجاه البعض؟ " ويبدو أن الجانب الأعظم من رواد ريترو يتألف من مهنيين شباب ميسورين يتخذون من الاجتماعيات المختلطة الجندر موقفًا لا يميل إلى التعقيد. ورغم أن ريترو كان يفترض أن يعطى مها شعوراً بالراحة، من الناحية الطبقية، فإن جمهوره كان متحرراً أكثر من اللازم بقدر ضئيل، لكنه كان أكثر مما يمكن أن تتقبله. والاستمرار فى التردد على هذا المكان كان يمكن أن يضعها فى موضع الحرج. فهل يمكن أن يظن الناس أنها، بحكم وجودها فى المكان، منطلقة ومتبسطة لهذه الدرجة، وبالتالى ليست محترمة للغاية؟

وللاجتماعيات العلنية المختلطة الجندر التى تدور فى محال الكوفى شوب الراقية فى القاهرة مكانتها المتميزة فى الجغرافية العامة فى القاهرة، ورغم ذلك فسرعان ما تم استيعابها فى إطار الممارسات الروتينية اليومية لكثير من المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا. وقد كان للفضاءات الكوزموبوليتانية المختلطة الجنسية للكوفى شوب حضور جنينى فى فضاءات الممارسات الاجتماعية والعمل والدراسة وكذلك فى الخيالات المرتبطة بالعالم الأول وفى الرغبة فيه. وبالنسبة لكثيرين فقد أمنت الكوفى شوب، أخيراً، فضاءً عاماً للاجتماعيات المختلطة الجندر بعيداً عن العائلة، ولكن فى حدود الاحترام. وقد لاحظت محررة مجلة كامبوس، على نحو ذكى، وهى بصدد التعليق على ما أسمته " هوس الكوفى شوب " أن " الكوفى شوب أجابت عن أسئلة كثيرة كانت تدور حول الخروجات ".

الحصرية والانغلاق

ويظل الانفصال الاجتماعى داخل دائرة مغلقة شرطاً مسبقاً لأساليب الحياة والأداءات الخاصة بالطبقة المتوسطة العليا المائزة والتى تمارس فى محال الكوفى شوب الراقية فى القاهرة. وغالباً ما كانت الاجتماعيات المختلطة الجندر والأداءات الخاصة بهويات المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا تبدو غير متكلفة وتلقائية. وهذا الفهم الطبقى لما هو عادى وتلقائى يعتمد على استبعاد حقائق واقعية قاهرية أخرى خارج الكوفى شوب، واستبعاد الحقائق الواقعية الأخرى الأكثر حميمية رغم أنها تتمتع بنفس الدرجة من القدرة على إحباط هذه الأجواء، وهى حقائق الحياة العائلية. وقد اقتصرت اجتماعيات الطبقة المتوسطة العليا، إلى حد كبير، على فضاءات الكوفى شوب التى اختصت نفسها، بوضوح، بالجمهور الميسور من "مستوى ثقافى" معين. فهذه المحال بمنأى عن الأحكام والأساليب الاجتماعية الأخرى بفعل السمات الطبقية القوية والأسعار المرتفعة وقواعد قبول الزبائن.

فالكوفى شوب الراقية التى يتردد عليها المهنيون من الطبقة المتوسطة العليا هى، من حيث المبدأ، مفتوحة لأى مستهلك مستعد لأن يدفع أكثر من خمسة جنيهات(*) لفنجان قهوة. ودفع البعض بأن هذه " الأسعار المتهاودة " جعلت الكوفى شوب متاحة لـ " كل واحد " بعكس الفنادق والمطاعم الأكثر كلفة. لكن ارتياد الكوفى شوب يتطلب من المرء رأس المال الاقتصادى الذى يسمح له بالاستهلاك فى هذه الأماكن علاوة على ألفة ذات طابع عام بالأشكال المحلية للاستهلاك الكوزموبوليتانى والأساليب المجسدة للطبقة المتوسطة، بما فى ذلك لغة الجسد المراوغة التى توحى بالانتماء والسلاسة والحق فى أن يكون هناك. وفى الكوفى شوب تستبعد الأسعار المرتفعة و/أو الحد الأدنى أولئك الذين لا ينتمون إلى هذه الطبقة " المرتاحة ". وغالبًا ما يضاعف أثر الضوابط الاقتصادية بقواعد إدخال الزبائن. وقد اعتبر مدير أحد محال الكوفى شوب هذه الانتقائية بالغة الأهمية. قال " لنا سياستنا فى قبول الزبائن لأننا لا نريد " ضيوفًا غير مؤهلين ". وأوضح ما يقصده بـ " غير مؤهلين " بأنه يقصد من لا يكون ملبسهم لائقًا أو من يبدو عليهم أنهم من " مثيرى المتاعب " الذين يصخبون ويغازلون. فمن أهم نقاط الجاذبية فى الكوفى شوب " أن تكون بين من يفكرون مثلك " كما أن " الحصرية " لها دورها المهم فى تقريرالمكانة والنجاح. وهكذا تتميز فضاءات الكوفى شوب بمزيج من الانفتاح والاستبعاد. وهى عامة بمعنى أنها تمثل فضاءات اجتماعية مفتوحة، فى حين أن سماتها الطبقية ومتطلبات الدخول إليها تجعلها فضاءات طبقية السمت ومغلقة وأقل عمومية.

ولا ينشأ الخوف من اجتذاب أولئك المنتمين إلى مستوى اجتماعى أدنى عن أهمية الحفاظ على السمات الطبقية لمكان ما، فحسب، لكن هذا الخوف يحركه، أيضًا، الاعتقاد بأن أولئك الآخرين قد لا ينصاعون للأحكام الضمنية للاجتماعيات المختلطة

(*) أكثر من عشرة جنيهات بأسعار ٢٠١٠ - المترجم .

الجندر. وقد يبدأ الرجال، وقد بهرهم توفر النساء الشابات، بالمغازلة أو التحرش. وبالمقابل فقد تأتى نساء بهدف اصطياد الأثرياء من الزبائن الذكور. وتعكس هذه المخاوف افتراضات بشأن فضاءات الترفيه الأقل حصرية ذات الجمهور المختلط الجندر، التى يسود الاعتقاد بأنها أسواق للعلاقات السهلة. ولا تعد الاجتماعيات المختلطة الجندر محترمة وعادية إلا بالنسبة لطبقة معينة من الناس. وبالتالى فالأماكن يحكم عليها فى ضوء " مستوى " جمهورها.

ويبدو أن معظم محال الكوفى شوب الراقية تحقق قدراً من النجاح فى استبعاد "الاشخاص غير المناسبين ". وقد خلق هذا الانغلاق الاجتماعى مظهر جماعة لها ضوابطها الاجتماعية. ففى مكان كهذا يخشى الإنسان من تجاوز حدود المخالطة المحكومة. وكما لاحظت مريم وأمل فإن " الجو العام يفرض سلوكًا محددًا. وسوف تجد أن الناس يجفلون من تجاوز حدود معينة ". وقد خلق هذا الانغلاق الاجتماعى معايير طبقية للسلوك المقبول تتمثل فى رواميز الشباب من الطبقة المتوسطة العليا المرتبطة بالسلوك المختلط الجندر. وهكذا تكون محال الكوفى شوب التى تنجح فى الوصول إلى جمهور " راق " والاقتصار عليه فضاءات آمنة للنساء. وفى أماكن كهذه يمكن أن تنخرط ثلة مختارة فى مغازلات خفية ومهذبة لا يرجح أن ينظر إليها كنوع من التحرش، مادامت تدور بين أناس " مِن مستوى معين ". فالسمات الطبقية لمكان ما تمثل إطاراً يصبح فيه وجود المرأة طبيعيًا ومحترما. وفى هذه الأماكن الراقية ينظر إلى الخروج والجلوس فى مكان يضم جماعة مختلطة الجندر أو حتى بدون صحبة، وارتداء تنورة، أو بادى (قميص ملتصق بالجسد) أو كات cut (قميص بلا أكمام) باعتباره جزءًا من أسلوب حياة مائز ومحترم وطبقى السمت. وبالمقابل فإن وجود هؤلاء النسوة هو علامة على أن منشأة بعينها هى منشأة مرتفعة الأسعار وحصرية وراقية.

ولا غرو أن حلت الكوفى شوب محل النادى الخاص الاجتماعى والرياضى – الحصن السابق لاجتماعيات الطبقة المتوسطة العليا والعليا – كبؤرة للحياة الاجتماعية

المناسبة والمحترمة. فالكوفى شوب يعيد إنتاج الانغلاق الاجتماعى والفضائى للنادى، وإن بطرائق تناسب المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة. وبعكس عضوية النادى فالدخول إلى فضاء الكوفى شوب ذو طابع فردى ويعتمد على القدرة المالية على الاستهلاك وكذلك على التآلف مع هذه الثقافة الترفيهية الكوزموبوليتانية الخاصة بالشباب، والتعلق بها. وقد تم تطويع آليات الإدماج والإقصاء الخاصة بالكوفى شوب للتقسيمات والتمايزات الجديدة داخل المجتمع القاهرى. وقد ساعدت فضاءات الكوفى شوب على خلق طبقة متوسطة عليا كوزموبوليتانية وميسورة تتصف بأنها شابة وبأنها متجانسة نسبيًا.

جغرافيات الانتماء

فى المشهد القاهرى المقسم أصبحت الفضاءات علامات مهمة على الهوية. وتمثل أسماء الأحياء، مثل منطقة شبرا منطقة الطبقة العاملة أو الزمالك والمعادى منطقتى النخبة، علامات على الانتماء الطبقى (دى كونينغ ٢٠٠١). وتناول طعام معين فى أماكن معينة – سلطة سيزار فى كوفى شوب أو ساندويتش طعمية فى مطعم شعبى – يمثل طريقة معوية فى الانتماء، كما يمثل علامة واضحة على الوضع والتميز الطبقيين. وقد أقيمت محال الكوفى شوب، فقط، فى المناطق التى يفترض أن فيها جمهورًا من الطبقة المتوسطة العليا ومن النخبة مستعدًا لمثل هذه الأذواق والأشكال من الترفيه. وحسب تعبير أحد ملاك سلسلة سيلانترو فإن " صيغتنا تقوم على الإكسبريسو ولا تقدم إلا طعامًا صحيًا. وبالنسبة للأمرين فالمناطق خارج القاهرة متخلفة بعشرات السنين. ونحن نختار المواقع التى يوجد بها أناس يقدرون ما نقدم: العاملون فى المكاتب والبنوك. نحن نستهدف التنفيذيين ذوى الرواتب المرتفعة " وحتى ٢٠٠٥، كان فرع سيلانترو فى وسط البلد، وهى منطقة هجرها، تقريبًا، الشباب القاهرى الميسور. وقد كانت الجامعة الأمريكية السبب الوحيد فى حضوره الغريب، فمعظم محال الكوفى

شوب قائم فى مناطق راقية مثل المهندسين والمعادى ومصر الجديدة. وقد كان يقوم بجوار سيلانترو محل لبيع قطع غيار السيارات، وبجوار ذلك المحل قهوة بلدى، واحدة من مقاهى الرصيف " التقليدية " العديدة التى يكاد ارتيادها يكون محصوراً على الذكور. وبالمقابل فإن سيلانترو هو مقصد الجمهور الميسور المختلط الجندر الذى يستمتع بالكابوتشينو أو بالكافيه لاتيه مع شرائح البراونيز أكثر مما يستمتع بقهوة مضبوطة (قهوة تركية بالسكر) مما يقدم فى المقهى المجاور. وقد كان سيلانترو يمثل جزيرة راقية فى منطقة وسط البلد القاهرية التى كانت مغلقة بوجه المارة من الشباب، رغم فهمهم العميق للموضات الكوزموبوليتانية. وبهذه الكيفية تعلمت مناطق معينة فى القاهرة كيف تستمزج أذواقاً وممارسات ترفيهية معينة، فى حين كان من البديهيات أن بقية القاهرة، ناهيك عن الفضاءات خارج العاصمة، لم تكن قد استعدت لمثل هذه الأشكال من الترفيه.

ولدى القاهريين مخزون لغوى غنى من التعبيرات الدالة على التميز والجدارة وكذلك التعبيرات الدالة على التدنى والسوقية. وكما أشرت فى الفصل الثانى فإن شعبى (جماهيرى، من طبقة أدنى) وبلدى (محلى، أصلى، من طبقة أدنى) هى علامات أساسية وإن كانت ملتبسة فى القراءات المصرية للمجتمع. فهى علامات تنم عن تقسيمات بين ما ينظر إليه باعتباره طبقة عاملة تقليدية ومحلية أو لعوالم كوزموبوليتانية وطبقة متوسطة عليا ونخبوية. ورغم أن هذه المصطلحات تبقى مهمة لخيالات المجتمع المصرى فقد أدهشنى انتشار المصطلح بيئة. وعندما سألت شلة ندى عن معنى بيئة أوضحوا لى أن معناها الحرفى وإن كان يعنى الظرف المحيط فإنها تستخدم، عموماً، للكلام عن كل ما هو " متدن طبقياً ". وأضافت ندى أن " بيئة " تستخدم فى الغالب للإشارة إلى من يحاولون التظاهر بالانتماء إلى أوساط اجتماعية أرقى بأن يحاولوا (دون جدوى) اكتساب مظهر أو مسلك راق. فكلمة بيئة لا تستخدم للإشارة إلى أشخاص أو أماكن فقيرة بوضوح، ولكن للإشارة إلى من يفتقدون حس

الطبقة المتوسطة العليا لجهة الأسلوب ويعتبرون من " مستوى اجتماعى " أدنى. وقد يكون اللفظ الأقدر على توضيح مغزى هذا المصطلح هو " سوقى ". وبعكس شعبى أو بلدى فإن مصطلح " بيئة " لا يشير إلى الطبقات الأدنى أو إلى ما يفترض أنه عاداتهم بل إلى طبقة متوسطة " فاشلة "[٤٤]. ويعكس الانتقال من بلدى إلى بيئة انتقال الصراع الرمزى من موقع على الحدود بين " الطبقة المتوسطة المتعلمة " و " الطبقات الدنيا الفظة " إلى خطوط التقسيم داخل الطبقة المتوسطة ذاتها. فقد حلت تقسيمات أكثر مراوغة محل التمييزات الجلية والواثقة التى تقوم على ارتباط بين الطبقة والثقافة التى تنطوى عليها ثنائية " بلدى " ونقيضه " شيك " أو "مستوى"، ضمن زخم عالى التوتر من الأذواق والأساليب.

مقهى سيلانترو بوسط القاهرة

والفضاء ساحة مهمة لهذه التدافعات.. فالأشخاص المنتمون إلى أوساط من الطبقة المتوسطة المتدنية نسبيًا الذين لهم حصة من الفضاءات الحضرية ذاتها يمثلون الآخر الطبقى المباشر، فى حين تبقى الفضاءات القاهرية الأخرى بمنتجاتها وأهليها حاضرة على الدوام، وإن ظلت خارجا مجهولا، إلى حد كبير، ويكاد يكون غير حقيقى. هذه الفضاءات الأخرى أصبحت هدفًا لإسقاطات ربطت بينها وبين كل أنواع الملامح وطرائق الحياة والناس الباعثين على النفور - السوقية والفقر والبكتيريا والقذارة وكذلك المجهول الخطير الذى يمكن إسقاط كل أنواع المخاوف عليه. ويدفع بايات ودينيس (٢٠٠٠) بأن العشوائيات، المناطق غير الرسمية التى يقطنها نصف سكان القاهرة، تصور باعتبارها صندوق باندورا الذى تنطلق منه الأخطار، باعتبارها مباءة للتحلل الخلقى وللخروج على النظام والفقر والعنف. وقد أصبحت هذه القاهرة الأخرى، أيضًا، هدفًا لمشاعر التعاطف والواجب الدينى وأعمال الخير الملهمة. وقد حاول عدد من المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا تكريس مهاراتهم وشبكاتهم الاجتماعية للعمل الطيب فى مشروع خيرى لمساعدة النساء الفقيرات فى الحصول على مصدر رزق مستقل. وأثناء رمضان انضم آخرون إلى عملية توزيع السلع الاستهلاكية والغذائية الأساسية على الأسر الفقيرة المستحقة للصدقة فى الأحياء القاهرية التى تنتمى للعصور الوسطى. وقد عادوا بحكايا عن الفقراء النبلاء المستحقين للصدقة وكذلك عن أسر من المحتالين تدعى الفقر لكى تحصل على المزيد من عطايا الصدقة. ويرى دينيس، وهو محق فى ذلك، أن هذه الروح الخيرية الوليدة هى تعبير عن العصر الليبرالى الجديد فى مصر. وهو يدفع بأن " الصدقة تصبح، مرة أخرى ,قيمة بورجوازية حضرية وتصويرا للذات على نحو يمثل بعدًا أساسيًا فى صورة المواطن الصالح والمسلم الصالح ". وهو يعتبر التقليد المبتدع بصف موائد الصدقة فى شهر رمضان " تعبيرًا رمزيًا عن العلاقة بين البورجوازية وأهل الحضر... فالصدقة مفروضة (شرعًا - المترجم) كشكل وحيد للتعامل مع الفقراء وكأداة وحيدة للصعود الاجتماعى،

مع بقاء الشرطة الحصن الأخير. ولا وجود لوسائل أخرى مقبولة لإعادة توزيع ثمار اللبرلة " (دينيس ٢٠٠٦: ٥٧).

وعودة القاهرة المحرومة فى شكل " واقع محلى " غرائبى هى بدورها تعبير رمزى عن التصدعات الاجتماعية التى تمتد على مجمل المشهد المدينى القاهرى. فقد أعيد تدوير الناس " البلدى " والمنتجات " البلدى " ليصبحوا صورة لأصالة غرائبية. وهذه العناصر الأسلوبية شاعت فى الأماكن الراقية الأكثر حصرية التى تلبى احتياجات جمهور مختلط من الوافدين والنخبة المصرية. والحصرية التى تميزت بها هذه الأماكن سمحت لهم بإدخال عناصر واضحة المحلية مثل المشربية (حاجز من الخشب المشعر) ومثل ترتيب أماكن واطئة للجلوس و" طعام شرقى" دون أن يصحب ذلك إخلال بالمركز الراقى والمتميز للمكان أو بمستوى زبائنه. وتمثل هذه الأماكن استشراقًا محليًا أصبح ممكنًا بفضل المسافة الآمنة التى تفصله عن الحقائق الواقعية الأقل مدعاة للسرور فى المحيط " الشرقى" القائم. وعلى سبيل المثال فقد ظهر استشراق محلى مماثل فى المجتمعات القاهرية المسورة حيث يرى دينيس أن " القيم العربية والإسلامية... حاضرة معماريًا، ولكن بعد تحويلها إلى رموز استهلاكية فولكلورية. فالإسلام والعروبة تجرى الإحالة إليهما بطريقة أقرب إلى التصوير الأيقونى فى سندباد وعلاء الدين عند ديزنى منها إلى البساطة والتواضع وضبط النفس المتماهية مع النضالية والشعبية الإسلاميتين المعاصرتين" (٢٠٠٦: ٥٣)[٤٥].

ويمكن أن يكون الخوف والقلق والشفقة، جميعًا، جزءًا من الموقف إزاء الفضاءات الواقعة خارج تخوم القاهرة الراقية. وكل هذه المواقف المتباينة تنم عن التباعد والوحشة. وتبدو هذه الوحشة أكثر واقعية وهى تنم عن الانغلاق الاجتماعى والحصرية فى الدوائر الراقية. لكنها قد تستخدم أيضا للإشارة إلى التباعد عن حقائق الواقع القاهرى الأخرى. وفى خروجة إلى كوفى شوب مع بعض زميلات ندى أصرت امرأة فى الثلاثينيات من العمر على سرد تفاصيل زيارتها الوحيدة إلى " دار السلام". قالت إنها

ضلت الطريق وهى متوجهة إلى مركز المدينة ووجدت نفسها فى الشوارع المزدحمة لهذه المنطقة العمالية العشوائية. وكان من المنطقى أن تشعر بالخوف، كما قالت، لكن حتى الرجل الذى كان يصحبها أصبح عصبيًا ويريد العودة إلى الطريق الرئيسى بأسرع ما يمكن. وقد أخبرتنى ندى، فيما بعد، أنها تضايقت من الحكايا ومن الراوية. فلديها عمة تعيش فى دار السلام وهى تشعر بأن الإنسان لن يجد أمانًا أكثر من ذلك الذى يجده فى شوارعها المزدحمة. وبرأيها أنه سلوك نمطى أن تخرج علينا امرأة كهذه بقصة كهذه وتؤدى دور الراوية الماهرة ليكون واضحًا أنها بعيدة كل البعد عن هذا الواقع المتدنى. وفى مناسبة أخرى فى الكوفى شوب نما إلى سمعى أن أحدًا يقول إنه من شبرا. وسألته إن كان حقا من شبرا. وأجاب بقدر من التسامح إنه كان يمزح. وقد بث بلغة الجسد رسالة لا تقل وضوحًا: هل يمكن أن تتصورى أن أكون أنا من شبرا؟ شعرت بأن سؤالى كان أقرب إلى السذاجة. فبعد أن تحولت شبرا عما كانت فيه من الثراء إلى حى مزدحم وإلى حد ما متهالك، صارت موطنًا لخليط من السكان. لكنى أخطأت تفسير المزحة التى انطوى عليها تعليقه، وبشكل أكثر عمومية، فأنا لم أستوعب تمامًا أهمية هذه التباينات والتمييزات الفضائية فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا.

لقد أسفر نشوء القاهرة الراقية عن إعادة رسم خطوط الفصل الاجتماعى وتعزيزها فى المشهد الحضرى. فقد انتقل كثير من القاهريين من الطبقة المتوسطة العليا للعيش إلى جوار صفوة المدينة فى دوائر القاهرة الراقية، فيما بدا أن الشرائح الأقل ثراءً فى الطبقة المتوسطة صاروا أكثر بعدًا وتخلفًا أو "بيئة". هذه الترتيبات الفضائية عززت الانقسامات الاجتماعية - الثقافية المتصاعدة فى الطبقة المتوسطة المهنية فى القاهرة. وقد أصبحت حدود الفضاءات والتجمعات البشرية الراقية بؤرة التدافعات الطبقية، التى يتكرر التعبير عنها، بالأساس، فى تعليقات استنكارية على زحف " البيئة " أو محدثى النعمة، فى حين أصبحت الفضاءات القاهرية الأشد فقرًا هى المنطقة الخارجية التى نشأت فيها الدنيا التى تسكنها الطبقة المتوسطة العليا من

القاهريين. هذا التشظى فى المشهد الحضرى أنتج مؤشرات للانتماء تقوم على التفرقة والاستبعاد.

صور التقارب والتباعد

وبرأى ساسكيا ساسن (٢٠٠١) فإن العولمى يلامس الأرض ويتجسد فى المدن العولمية حيث تقوم وظائف السيطرة فى عملية الإنتاج الموزع والتى تخلق محاور للمركزية ومؤشرات على القرب والبعد. وعمليات تشكيل المدينة العولمية هذه تنشأ عنها جغرافية جديدة " تنسف الأفكار التقليدية عن المحيط وعن التراتبيات التقليدية للفضاء. وهى تفعل ذلك بطرق من بينها إعادة توزيع الإقليم الوطنى " (ساسن ٢٠٠٠: ٢٢٥) ووفقًا لما قالته ساسن (٢٠٠٠:٢٠٠١) فإن المناطق التجارية المركزية فى المدن الرئيسية حول العالم تربط بينها روابط أكثر قوة من تلك التى تربطها بمحيطها المباشر. وبشكل أكثر عمومية فإن " الفضاءات العولمية " التى ينتجها مركز مدينة ما فى الشبكة الاقتصادية الكونية هى أشد ارتباطًا بمثيلاتها من الفضاءات الحضرية خارج الحدود الوطنية منها بالفضاءات الأقل عولمية فى المناطق اللصيقة بها (سمارت وسمارت ٢٠٠٣).

وعندما نمضى بوجهات نظر ساسن إلى ما يتجاوز شبكات التمويل والخدمات التجارية المنتجة فقد نتعرف على عديد من الشبكات ومؤشرات الاتصال والانقطاع المرتبطة بها. فالمفهوم التوحيدى للفضاء ينهار لصالح شبكة من الاتصالات العشوائية التشتيتية التى لا تختلف عن مفهوم التدفقات التشتيتية للصور والأفكار ورأس المال الذى يطرحه أرجون آبادوراى (١٩٩٠). وتتوافق قراءة كهذه مع اقتراح دورين ماسى بأن نرى المكان باعتبار أنه "يتشكل نتيجة لمجموعة معينة من العلاقات الاجتماعية التى تتفاعل فى محل معين " (١٩٩٤: ١٦٨). فالتدفقات والشبكات تخلق تشكيلات متنوعة

ومتداخلة من القرب والبعد فى الساحات الاجتماعية- الثقافية المحلية. وفى القاهرة تتلاقى التدفقات العولمية المتباينة فى تكوين الدوائر الراقية للإنتاج والاستهلاك التى تخلق خطوطا جديدة للتشظى والانفصال فى المشهد المدينى. وبما أن محال الكوفى شوب لها دورها فى تحقيق حضور حضرى جديد للطبقة المتوسطة العليا وترمز إلى هذا الحضور الجديد فيمكن القول بأن لها دوراً مركزياً فى عمليات إعادة رسم الخريطة، على هذا النحو.

ويقدم العمل الإبداعى الذى أنجزه بنديكت آندرسون عن الطبيعة المتخيلة للمجتمعات طريقة لاستكشاف الجوانب الاجتماعية - الثقافية لإعادة رسم الخرائط هذه. وكما يقول آندرسون فإن المجتمعات الوطنية المتخيلة صيغت عبر وسائط إعلامية مثل الصحف التى خلقت من القراء مجتمعاً وطنياً (أوليًا)(*).

ويخص آندرسون نشوء رأسمالية النشر، وخاصة تنامى جمهور قارئ للصحف باعتباره الآلية الأولية لمخيال الجماعة الوطنية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وأنا أقترح أن يفهم تأثير الكوفى شوب القاهرية على نحو مماثل. ولهذا فأنا أريد أن أطل على أطروحة آندرسون إطلالة سريعة.

ينطوى مغزى الطقس الجماعى (المتمثل فى قراءة الصحيفة) على تناقض. فهو يؤدى فى انعزالية صامتة... ورغم ذلك فكل داخل فى هذا التواصل مدرك، تمامًا، لحقيقة أن الطقس الذى يؤديه يتكرر على نحو متزامن مع آلاف (أو ملايين) آخرين، هو واثق من وجودهم وإن لم تكن لديه أدنى فكرة عن هوياتهم... وفى الوقت ذاته، ومع ملاحظة قارئ الصحيفة أن نسخًا مطابقة للنسخة التى لديه من الجريدة يجرى

(*) (باستخدامها كلمة PROTO التى تعنى" أولى " تقصد المؤلفة أن هذا المجتمع من القراء كان نواة للجماعة الوطنية، وهذا يعنى أن الوطنية تصور يتم الترويج له، فإذا قبلت به جماعة تملك القدرة على أن يكون لها كيانها المتميز تحول التصور إلى واقع، وتحولت الجماعة إلى أمة - المترجم).

استهلاكها من قبل جيرانه فى المترو أو فى محل الحلاقة أو فى المسكن، فهو يتلقى تأكيداً متواصلاً بأن الدنيا المتخيلة تضرب بجذورها على نحو واضح فى الحياة اليومية... وتتسرب الأسطورة بهدوء وتواصل إلى الواقع، لتخلق تلك الثقة الرائعة بوجود رابطة اجتماعية فى الغُفلية التى هى دمغة الأمم الحديثة. (آندرسون ١٩٩١: ٣٥-٣٦).

ويدفع آندرسون بأن مجرد قراءة صحيفة على انفراد مع معرفة أن الآخرين يفعلون الشىء ذاته فى ذات الوقت، تقريبًا، يوحى بالتزامن وبالمجتمعية، وكلاهما بالغ الأهمية لمخيال المجتمعات الوطنية. لكن هذه القراءة الجماعية الغُفل لا تكفى. فالمجتمع المتخيل يقوم على أرضية الحياة اليومية عبر ملاحظة الآخرين الذين يحملون سلعًا رمزية مماثلة أو يؤدون أفعالاً رمزية مماثلة، وهى أمور لها قوة الدليل على أن المجتمع حقيقة واقعة.

هاتان الآليتان المهمتان لمخيال المجتمع – التزامن فى الغُفلية والتحقق فى الحياة اليومية – يمكن نقلهما بأمان إلى الكوفى شوب فى القاهرة. يتعلق تحليل آندرسون بنشوء المجتمعات الوطنية ورسوخ المخيال الخاص بأمم ذات سيادة ومحددة إقليميًا عبر الميديا والمؤسسات والرموز الوطنية. وفى حالة الكوفى شوب القاهرية يمكننا، وهو ما يتمشى مع تقوله ساسن، أن نرسم خريطة عدة مجتمعات متخيلة جزئيًا، متشابكة ومتقاطعة، وذات مساحات كبيرة أو صغيرة. فمقاه معينة مثل ريترو وبينوز وتاباسكو تسمح بتخيل أنماط معينة من الانتماء تتولد عن أساليب العالم الأول وخبراته وتوحى بعضوية فضاء كوزموبوليتانى هو فضاء محلى، قاهرى، مصرى، وإن كان جزءاً من دوائر وجماهير أوسع تنتمى للعالم الأول. لقد سافر البعض إلى الخارج وشارك فى ثقافات ترفيه أجنبية. لكن سفراً كهذا ليس ضرورياً للتآلف الكامل مع هذه الفضاءات والممارسات الروتينية الكوزموبوليتانية. وكما لاحظ محررو ذابيبر " اذهب إلى أى كوفى

شوب وسوف تجد فتاتين تتحدثان الإنكليزية ولا يبدو عليهما أنهما مصريتان، ورغم ذلك فهما مصريتان ولم تسافرا إلى الخارج قط ".

وتدفع إيمانويلا غوانو بأن المشهد النيوليبرالى فى بوينس آيريس يشى بسرديات طال بها العهد عن " الذات وانتمائها إلى مكان آخر- إقصائها عن العالم الأول ورغبتها فيه على اعتبار أن معظم أعضاء الطبقات المتوسطة فى بوينس آيريس يعتبرون ذلك حقهم " (غوانو ٢٠٠٢: ١٨٤). وفى القاهرة تم التعبير عن حنين مشابه إلى خبرات العالم الأول والدخول فيه عبر الفرحة التى صاحبت بدايات مواقع جديدة من العالم الأول مثل كارفور. وعبارة " الآن فى مصر " التى غالبًا ما تستخدم لتسويق خدمات وسلع ذات مرجعيات كوزموبوليتانية أو ذات أصول أجنبية تثير مزيجًا مشابهًا من الاستبعاد ومن الرغبة فى تحصيل النضج المرتبط بالعالم الأول. وذات مرة قالت لى امرأة فى ثلاثينياتها وهى تزكى لدى، بكل حماس ،أحد المشارب فى المهندسين "هناك يشعر المرء وكأنه ليس فى مصر". كانت تنتمى لوسط أكثر ثراء من معظم من عرفتهم وكانت تسافر كثيرا إلى أوروبا التى سبق لها العيش فيها. والحقيقة أن المشرب كان يبدو وكأنه ينتمى لأرقى أحياء لندن أو باريس أو نيويورك، بما فيه من تصميم داخلى بسيط، وأرائك جلدية زرقاء، وإضاءة خافتة وتشكيلة كوكتيلات كحولية متاحة. ورغم أن بعض المشارب التى تقع عليها أحيانا قد يثير لديك الدهشة والفرح لوجود مكان جديد ينتمى للعالم الأول فى القاهرة التى خبرتها جيدا فالعكس هو الذى أصبح أكثر شيوعا بالفعل. فأماكن مثل الكوفى شوب الراقية والسوبر ماركت المتميزة التى تشبع الميول الكوزموبوليتانية والمولات الحصرية نادرا ما تثير الانبهار أو الحماس.

وتشى الكوزموليتانية الصارخة فى القاهرة الراقية بشعور بالانتماء الكوزموبوليتانى العابر للجنسية.وغالبا ما تكون التصورات التى لدى الطبقة المتوسطة العليا عن الحياة المريحة ترتبط بمعايير قياسية وروتينات يفترض أنها تنتسب للعالم الأول أكثر مما ترتبط بالمعايير القياسية التى تميز حياة الطبقات الأقل تميزا.

فلم يعد هناك وجود، بالنسبة للقاهريين من الطبقة المتوسطة العليا، تقريبا، أى تناقض بين العيش فى القاهرة والاستمتاع بمثل هذه الأساليب الحياتية المنتمية ل "العالم الأول" فالمزيج بعد الكولونيالى المتناقض الذى يقوم على الشعور بالاستبعاد من تعقيدات العالم الأول ومن الانتماء إليه – من ناحية – وعلى الحنين إلى كل ذلك – من ناحية أخرى – قد تم حله عبر " إعادة أقلمة المدينة فى القاهرة (غوانو ٢٠٠٢: ١٨٢). ويتراءى لى أن محال الكوفى شوب هى أهم الأماكن التى يحقق فيها هذا النوع من الامتزاج، بالنسبة للقاهريين الميسورين من الشباب، التكريس والتأمين. وخذ، مثلاً، كلمات مالك ريترو كافيه. هو يدفع بأن "الكوفى شوب لا يمكن لها أن تتبنى قائمة أطعمة ومشروبات " محلية "؛ فالطبقات التى ترتاد الكوفى شوب تريد الأشياء التى يرونها بالخارج. وإذا اخترت ديكوراً محلياً فلن يكون المكان كوفى شوب. هؤلاء الناس يريدون الحياة الأخرى، الأكثر نجاحًا، ويجدونها هنا ". وتقدم الكوفى شوب خبرة وثيقة الاتصال بعالم أول أعيدت أقلمته فى مصر. وهم يسمحون وتسمح الكوفى شوب بانطلاق خيال مجتمع كوزموبوليتانى محلى يتميز بثراء وتمكن مقبولين وواضحين ومتصلين على نحو متزامن بالخارج (برة).

ورغم أن " برة " (وتعنى الخارج حرفيًا) هى مجاز جغرافى متخيل فهى تعكس مسار مصر ولا بد من موضعتها فى سياق البُنى العولمية الماضية والحاضرة للهيمنة وانعدام المساواة والإقصاء إضافةً إلى ما فى الداخل من انعدام للمساواة على نحو يرتبط بهذه البُنى العولمية. وبينما تقوم الولايات المتحدة بدور المقرر للاتجاهات الرئيسية فى مجالات العمل والتعليم والاستهلاك، فإن أوروبا القريبة هى المقصد السياحى ومصدر الصداقات والارتباطات العائلية المتجاوزة للقومية الأكثر أهمية. وقد أصبحت دول الخليج مقصداً عامًا للمهنيين من الطبقة المتوسطة العليا منذ سبعينيات القرن الماضى. فالكثيرون منهم زاروا الخليج أو عاشوا فيه مع الأبوين، ووقت إجراء هذا

البحث كانت دولة الإمارت المقصد الأكثر جذبا للعمالة المهاجرة. ولم تكن مناقشة العمل فى أبى ظبى ودبى تعكس المقابلة بين التنظيم والنظافة هناك وبين الفوضى والكثافة والتلوث فى القاهرة، فقط، بل كانت تركز أيضًا على الفرص الواسعة للاستهلاك الراقى. ويعود جانب كبير من المعرفة الواسعة لدى الناس بالسلع وأماكن الترفيه "الغربية" إلى خبرات كتلك التى اكتسبوها فى الخليج (فينيال ودينيس ٢٠٠٦: ١١٩ - ١٢٠).

وكما يقول بينيديكت آندرسون فالمجتمعات المتخيلة تتخلق عبر اختلاط الخرافة بالحقيقة، فيما تؤمن الحياة اليومية الدليل على التحقق الفعلى للمجتمع. وتؤمن الكوفى شوب مادة غزيرة لمثل هذا التحقق من حيث إنها ترحب بجمهور حصرى نسبيًا لديه رأس مال كوزموبوليتانى فى أجواء غالبًا ما تكون كوزموبوليتانية على نحو صارخ. وقد ساعدت الحياة اليومية المنعزلة اجتماعيًا التى يعيشها كثير من معارفى من الطبقة المتوسطة العليا، على نحو مماثل، فى تأكيد القبول بأساليب الحياة والرغائب والتوقعات الخاصة بالطبقة المتوسطة العليا كشىء طبيعى. وقد نشأ هذا التطبيع المحلى ذو السمة الطبقية للكوزموبوليتانية ونشأ الإحساس بالانتماء نتيجة لمعطيات الطبقة وأسلوب الحياة وهى المعطيات التى تواصل تأكيده.

وينتمى هذا الارتباط ذو الأساس الطبقى، انتماءً جذريًا، إلى التشكلات المادية والاجتماعية والثقافية للتمايز والانفصال الاجتماعيين. وأن تكون قريبًا، متآلفًا مع أساليب الحياة الكوزموبولِيتانية، وبعيدًا، مقطوع الصلة بكل ما هو " شعبى"، هو جزء من بنية طبقية محلية يمثل رأس المال الكوزموبوليتانى فيها شكلاً من رأس المال الثقافى المثمن غاليًا الذى يفتح الأبواب لأفضل الوظائف المهنية والدوائر الاجتماعية، والذى يؤكد انتماء المرء إلى قاهرة الرخاء النسبى والتمكن والأناقة الكوزموبوليتانية. والمهارات والخبرات الثقافية التى تسمح للمرء بالمشاركة فى الحياة الاجتماعية للكوفى

شوب – اللكنة الإنكليزية – العربية، الملابس التى على الموضة وذات الطابع الجنسى أو تلك الأكثر حشمة وإن بقيت متميزة بالذوق والتى ترتديها بعض المحجبات، والاجتماعيات العفوية المختلطة الجندر – هى ذاتها التى تحدد على نحو صارم أهلية الشخص كمرشح لوظائف وشبكات راقية. وهكذا فإن كون المرء زبونًا فى كوفى شوب يعنى سكنى قاهرة راقية بما فيها من شركات متعددة الجنسية ومحال سوبر ماركت مثل " مترو " والنوادى الاجتماعية والكومباوندات المحترمة حيث يقاس العيش الكريم بمقاييس كوزموبوليتانية هى محلية وعالمية، فى آن واحد. وكما يقول أنطونى دى كينغ فإن هذه " العالمية " تحيل غالبًا إلى ممارسات وأساليب حياة استهلاكية شائعة فى الفضاءات المائزة فى العالم الأول وأساليب حياته فى مختلف أنحاء العالم، أكثر مما تشير إلى الحقائق الواقعية المركبة الموجودة بالفعل فى " العالم الأول " بما فيها من تفاوتات اجتماعية وخطوط تمايز معقدة (٢٠٠٤: ١٣٣). وتنشأ أساليب الحياة ومؤشرات الانتماء الكوزموبوليتانية عبر امتزاج معقد بين الثقافات الطبقية المحلية المائزة والتدفقات الاقتصادية والثقافية العابرة للقومية التى تعكس واقع عالم شديد التفاوت.

وتحقق فضاءات الكوفى شوب تأكيدًا يوميًا وثيقًا لهذا الانتماء الكوزموبوليتانى الذى يجرى تأمينه بالانغلاق الاجتماعى. وتحرس حصرية الكوفى شوب وجمهورها حواجز مالية وثقافية تضمن الأداء الذى يتواصل دون مقاطعة لاجتماعيات الطبقة المتوسطة العليا والتكريس الآمن لحياة الطبقة المتوسطة العليا القاهرية. وهكذا فإن فضاء الكوفى شوب تأسس على أشكال جديدة من الفصل الاجتماعى وفى الوقت ذاته خلق هذه الأشكال. وأنا أدفع بأن مجتمع المهنيين الكوزموبوليتانيين الأثرياء رواد الكوفى شوب الذين يظلون مع ذلك مجتمعًا محليًا، يعيد رسم خرائط التآلف والانتماء. وقد ارتبطت الممارسات العامة للانتماء الكوزموبوليتانى مع نظائرها المرتبطة بالتباعد،

وتأسيسا على ما تشير إليه ساسكيا ساسن بخصوص تفكيك وإعادة ترتيب الفضاء الناشئين عن الدوائر العولية للتمويل والعمل والتكنولوجيا ورأس المال، بحيث يمكن لنا أن نقول إن الانتماء الكوزموبوليتانى ذا الأساس الطبقى فى الكوفى شوب نشأت عنه تشكيلات جديدة للقرب والبعد أدت إلى تشريح وتشظية المشهد الاجتماعى القاهرى.

فهل يؤدى هذا التشظى للمشهد الاجتماعى، أيضًا، إلى تفكيك روابط الجماعة الوطنية بمعنى سياسى، كما يشير جون كلمر فى مناقشته للطبقات الجديدة فى جنوب شرق آسيا (٢٠٠٣: ٤١١)؟ لا أظن أن هناك إجابة صريحة عن سؤال كهذا. ففى حين يبدو أن الأشكال ذات المنشأ الطبقى من الانتماء الكوزموبوليتانى لا تناقض مشاعر الانتماء الوطنى، فأنا أميل إلى الدفع بأنها ساهمت، على نحو ذى مغزى، فى إعادة صياغة أشكال الولاء والتآلف داخل الفضاء الوطنى المجرد، وكذلك فى إطار الفضاءات الأكثر تجسدًا فى المدينة. فبوسع القاهريين الميسورين أن يتملصوا من الفضاءات والمؤسسات الوطنية أو العامة التى تتناقص مواردها المالية والخربة والعاجزة، بوضوح، عن مجاراة المعايير القياسية والأساليب الخاصة بالعالم الأول لينسحبوا إلى مقابلها الخاص والحصرى. ويترتب على ذلك نشوء عوالم ذات أصول طبقية تعيش جنبًا إلى جنب فى مشهد مدينى منقسم. ويدفع دينيس بأن الامتزاج الاجتماعى الذى ميز الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين أخلى مكانه للتشظى المتصاعد فى العصر الليبرالى الجديد فى القاهرة (١٩٩٧: ١٠) ففى القاهرة المعاصرة عوالم حية بالغة التشظى، تشمل مجالات الشغل والاستهلاك والإسكان والترفيه. والانتماء الكوزموبوليتانى للطبقة المتوسطة العليا المزروع فى جغرافية حضرية موسومة بالتشظى الاجتماعى يساهم فى تشريح الفضاء الحضرى والحقائق الاجتماعية التى تعمر المدينة. هذه مدينة يعجز بعض أهلها عن أن يتخيلوا معنى أن يعيش الإنسان على بضع مئات قليلة من الجنيهات شهريًا، وحقيقة أن هذا هو قدر معظم القاهريين وهو بالنسبة للكثيرين ليس أمرًا ذا بال.

فضاء الطبقة

وقد خلقت الكوفى شوب الراقية الجديدة فى القاهرة محمية صغيرة للاجتماعيات المختلطة الجندر غير القائمة على أساس عائلى داخل جغرافيات عامة متنازع عليها للترفيه. وقد نجحت الكوفى شوب فى بتر كل ارتباط بين هذه الاجتماعيات وبين اللاأخلاقية والسلوك الجنسى المتحلل الذى يرتبط بالفضاءات المختلطة الجندر الأقل حصرية الواقعة خارج المدار العائلى المخلّص(*) فهذه الفضاءات الراقية توفق بين تشكيلة واسعة من أداءات ورغائب الطبقة المتوسطة العليا بالتزامن مع مساهمتها فى خلق أساليب وممارسات مائزة للطبقة المتوسطة العليا.

وللدوائر الراقية المؤلفة من المدارس والجامعات والمستشفيات الخاصة وكذلك مناطق التسوق والسكن وأماكن الترفيه من قبيل الكوفى شوب – دور بالغ الأهمية فى إنضاج تقسيمات جديدة داخل الطبقة المتوسطة القاهرية. فقد خصت هذه الدوائر الطبقة المتوسطة العليا بفضاءات عامة وبأساليب للممارسات الاجتماعية ونقشت، فى الوقت ذاته، على المشهد الحضرى تقسيمات جديدة فى الطبقة المتوسطة كانت موضوعًا للفصول السابقة. فشريحة معينة من الطبقة المتوسطة يتلاقى أعضاؤها ويختلطون فى فضاءات الكوفى شوب التى تستبعد، إلى حد كبير، الشرائح الأخرى من تلك الطبقة. ولا تشى هذه الفضاءات الراقية، فقط، بالانتماء الكوزموبوليتانى، بل تشى أيضًا بالابتعاد عن الحقائق المحلية الأخرى. فخطوط الإقصاء والإدماج فى سردية العصر الليبرالى الجديد فى مصر وفى مشروعه تجد نظيرها، بالتالى، ليس فقط فى سوق العمل الحضرى ولكن أيضًا فى التشظى الاجتماعى فى المشهد الحضرى القاهرى. والمرجعيات والطموحات الكوزموبوليتانية هى علامات مهمة فى الحالتين. والتدفقات العولمية تصب فى التراتبيات الاجتماعية المحلية وتزود خطوط التقسيم

(*) redemptive تستخدم هذه الكلمة هنا بمعناها المسيحى– المترجم).

وأشكال التمييز الاجتماعى - الثقافى الجديدة بالمعلومات. وينطبع هذا كله على المشهد الحضرى فى شكل فضاءات حصرية تتميز بدرجة عالية من الانغلاق الاجتماعى.

ومن العلامات المميزة لهذه الفضاءات الكوزموبوليتانية على نحو صارخ وللاجتماعيات المائزة التى تحتضنها - شخصيتها المختلطة الجندر والتى تمثل عرفًا راقيًا مرموقًا وطقسًا طبقيًا مكرسًا دون عناء. لكن أداءات الجندر فى الطبقة المتوسطة العليا على هذا النحو، وكما أبين فى الفصل التالى، هى ممارسات هشة. وقد ظهرت هذه الهشاشة فى القلق من حضور محتمل لآخرين قد لا يلتزمون بمعايير الاجتماعية المختلطة الجندر القائمة على الاحترام فى الطبقة المتوسطة العليا. ويظهر هذا، واضحًا جليًا، عندما ننتقل، فى سياق الفصل التالى، من الكوفى شوب إلى فضاءات الشارع الأقل ارتباطًا بالطبقة.

الفصل الخامس

عن سائقى التاكسى والمومسات والمهنيات:
الجندر والفضاء العام والفصل الاجتماعى

سائق تاكسى يخطف النساء ويسرقهن ويغتصبهن ويقتلهن ثم يمزق أجسادهن تمزيقًا، ويضع الأجزاء فى عديد من أكياس البلاستيك ويبعثرها فى أنحاء مصر الجديدة ومدينة نصر.

انتشرت قصة الرعب هذه كالحريق بين القاهريين طوال الأسبوعين الماضيين. ولحسن الحظ، يبدو أن الأمر ليس سوى شائعة. وقد أصدرت وزارة الداخلية بيانًا، نشر فى معظم الصحف، يقول إن " الشائعات عن سفاح يغتصب ويقتل النساء لا أساس لها نهائيًا " الأهرام ويكلى: ٢١ - ٢٧ فبراير ٢٠٠٢.

فى بواكير ربيع ٢٠٠٢ ترددت بإلحاح قصة عن قاتل سفاح يعمل على تاكسى فى مصر الجديدة أحد أحياء الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة وحولها، وقيل إن القاتل المزعوم يخطف ويغتصب ويقتل النساء الشابات " ذوات المظهر الحسن " ويمثل بأجسادهن. وقد تلقيت رسائل إلكترونية عديدة تصف هذه الجرائم بتفصيل مرعب. وبين هذه الرسائل بيانات أدلى بها شهود من الشرطة وأم إحدى الضحايا التى حادثت ابنتها على هاتفها الخلوى قبل اللحظة المصيرية مباشرة وتضخمت القصة حتى اضطرت الحكومة إلى إظهار رد فعل عليها. فأنكرت، بكل قوة، صحة الحكايا فى الصحف القومية. وبرغم هذه الاعتراضات الرسمية - أو ربما بسببها، جزئيًا - واصلت الشائعات انتشارها عبر البريد الإلكترونى. وبعد قرابة شهرين انقطع تدفق الرسائل الإلكترونية وتبخرت الحكاية. وقد سمعت وقرأت عدة تقارير عن القصة "الحقيقية" وراء الشائعة. تأسست الشائعة، على ما يبدو، على حادثة منفردة لا علاقة

لها بقاتل متعدد الضحايا. اعتقل القاتل وأغلق الملف. لكن شاباً ألهمته الحادثة فبدأ إرسال الرسائل الإلكترونية التى تروى حكايات جديدة (٤٦).

وتمثل حكايا القاتل المتعدد الضحايا نقطة بداية مناسبة لاستكشاف المشهد القاهرى المنقسم على خلفية السياسات النيوليبرالية. وتدفع لويز هوايت بأن "الشائعات يمكن أن تكون مصدراً للتاريخ المحلى بما تعكسه من تناقضات وأشكال قلق محتدم إزاء أماكن معينة لها تواريخ معينة " (هوايت ٢٠٠٠: ٨٣) وتشير هذه الشائعة، بالتحديد، إلى بعض التوترات التى تصحب التشكلات الطبقية الجديدة والتعبيرات المرتبطة بها فى المشهد الحضرى للقاهرة. ويشدنى على نحو خاص الطرائق المركبة التى تضفر بها خيوط الجندر والطبقة والفضاء العام. لماذا كان الجانى المزعوم سائق تاكسى (ذكراً)؟ هذا سؤال يستحق أن يسأل. ولماذا افترض الرواة أنه تخير ضحاياه من بين الشابات المنتميات للطبقة المتوسطة العليا؟ ولماذا أظهرت الشائعة هذه القدرة على البقاء رغم ما نشر على نطاق واسع من إنكار حكومى؟

يفحص هذا الفصل السياسات التفصيلية الخاصة بالفضاء فى القاهرة المتجهة إلى الليبرالية فى مطلع القرن الحادى والعشرين. وسوف أفحص التفاوضات اليومية حول التشكيلات الطبقية الجديدة فى العصر الليبرالى الجديد فى مصر بتتبع المهنيات من الطبقة المتوسطة العليا – الضحايا المفترضات للشائعة – وهن يعْمرن ويعْبرن الفضاءات العامة المتباينة فى القاهرة. وأناقش كيف تفاوضت هؤلاء المهنيات فى نهايات عشرينياتهن وبدايات ثلاثينياتهن حول نوعين من الفضاء العام. فأبدأ بالعودة إلى الفضاء المحكوم فى الكوفى شوب الراقية الذى ناقشناه فى الفصل السابق. وفى هذه الفضاءات المغلقة اجتماعياً احتلت نقطة المركز إدارة فضاء عام محترم. وبعد ذلك أناقش الفضاءات المفتوحة الأقل ارتباطاً بالطبقة فى الشارع والمواصلات والتى اتسمت بجهود متصلة لحماية الجسد الأنثوى النقى المنضبط جنسياً لدى سيدات الطبقة المتوسطة العليا.

ومن خلال انخراطى فى دوائر الطبقة المتوسطة العليا تعلمت المنطق والأحكام الموجهة للمهنيات الشابات وهن يتحركن عبر المشهد الحضرى. وأعتمد، أيضًا، على بعض تجاربى مع الفضاء؛ لفهم ذلك الخليط من الغفْلية المدائنية، والهويات الاجتماعية المفترضة، والحياة الاجتماعية الحضرية، وهو الخليط الذى يشكل التفاعلات فى الفضاءات العامة فى القاهرة. وقد وجدت أن مسارات الطبقة المتوسطة العليا تقررت، فى المقام الأول، على أساس تفاوتات وتمايزات طبقية المنشأ، خاصة الصيغ الطبقية الطابع للذكورة والأنوثة. وفيما يلى أحلل كيف تفاوضت إناث الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة حول الفضاء المدينى فى القاهرة، وأناقش المنطق الاجتماعى - الفضائى الذى ينسب هويات اجتماعية إلى نساء بأعينهن فى العديد المتنوع من الفضاءات العامة.

وأنا أستخدم لفظى العام والخاص للإشارة إلى فضاءات منزلية كنقيض للفضاءات الحضرية المجتمعية المفتوحة. وبالنسبة لى فالفضاء العام يعنى ميلاً إلى الانفتاح أكثر من مجال مسيّج ومحدد على نحو واضح. وهكذا يصبح بوسعنا أن نفكر بالعمومية باعتبارها مجموعة مركبة من الخواص. ويمكن أن تكون الأماكن عمومية من بعض النواحى ولكنها فى نواح أخرى تشبه الفضاء الخاص. وعلى سبيل المثال، فالكوفى شوب هو مكان عام إذا قورن بالفضاءات البيتية الخاصة. وعند مقارنته بالفضاءات " العامة " للشغل حيث يقتصر الدخول، فى معظم الأحوال، على الموظفين، فإن الكوفى شوب يمثل فضاءً عامًا نسبيًا مفتوحًا، من حيث المبدأ، لأى واحد قادر على الدفع. لكنها ملكية خاصة، محمية من الأنظار، ويتطلب الدخول إليها توافر شروط عديدة معلنة ومضمرة. وبهذا المعنى فهى تختلف عن الفضاءات المفتوحة مثل الشوارع والحدائق العامة، اختلافًا كبيرًا.

وفى قراءتها الممتازة للاستخدامات المجندرة للفضاء فى منطقة من مناطق الطبقة العاملة فى مصر تدفع فرحة غنام بأنه يتعين علينا أن " نتجاوز الشخصية المجندرة للفضاء العام عند فحص الكيفية التى تغلق بها فضاءات عامة بعينها وتفتح أمام

المجموعات العمرية والنوعية لنعرف أى أماكن هى ومتى وكيف وبواسطة من تغلق وتفتح " (٢٠٠٢: ٩٢). وتتقاطع الأفكار المتعلقة بالفضاء العام والخاص مع الأفكار المتعلقة بما هو لائق اجتماعيًا، وبالمسموح والمحظور من أشكال الحميمية. وتتحدى هذه التشكلات المعقدة للفضاء الاقتراب الصريح بين الفضاء العام والذكورة وبين الفضاء الخاص والأنوثة. فقواعد الدخول والسلوك المتوقع تختلف باختلاف الأماكن العامة وتنطوى على مغزى رمزى تفضيلى. وعلى سبيل المثال فالفضاءات الوظيفية الخاصة بالشغل والدراسة هى ساحات لقدر أدنى من التدافع العلنى فيما يخص الاتصال المختلط الجندر مقارنة إلى فضاءات الترفيه مثل الكوفى شوب. وينعكس هذا، على سبيل المثال، فى درجة أعلى من تقبل وجود " زملاء " من الجنس الآخر، لا من الأصدقاء أو المعارف.

وقد سمح لى التجوال فى أنحاء المدينة مع هؤلاء النسوة باستنباط بعض القواعد المنطقية الضمنية فى الحياة الحضرية، وبرسم خريطة المعرفة والخبرة الجغرافية المحددة التى تفترض مسبقًا فيمن يتحرك فى المدينة. ويتناغم تحليلى لحياة المدينة عبر الحركة مع المنهجية التى اقترحها ميشيل دى سورتو فى " ممارسات الحياة اليومية " (١٩٨٤). ويدفع سورتو بأن الحركة عبر المدينة يمكن تحليلها على أساس الإستراتيجيات الفضائية لدى القوى وهى التى تعمل انطلاقًا من فضاء " ممتلك " والتكتيكات الواهية لدى الضعيف وهى تكتيكات تتجسد لحظيًا فيما يسميه التصرفات اللفظية لدى المشاة (١٩٨٤: ٣٧). وتتناغم تأملاته حول الفضاء والقوة مع المسارات الحضرية التى تناقش فى هذا الفصل. لكن الخطوط بين القوى والعاجز، بين القادرين على وضع إستراتيجيات لاستخدام الفضاء وأولئك الذين يتعين عليهم الاعتماد على تكتيكات لحظية، ليست بالوضوح الذى يبدو أن دى سورتو يشير إليه. فالمسارات الحضرية لدى السيدات الشابات من الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة تتحدى الثنائيات الواضحة التى تقوم على المقابلة بين النخبة والمسيطر عليهم، وعلى إستراتيجيات السيطرة كمقابل للتكتيكات اللحظية لاستخدام الفضاء، وبالتالى فهى

تسمح بفهم أكثر تعقيداً للكيفية التى تعمل بها القوة فى السياسات التفصيلية اليومية الخاصة بالفضاء.

ويمكن قراءة فقرات الحركة الحضرية التى تناقش هنا باعتبارها خطوات الفصل الاجتماعى الذى يتصاعد تأثيره كعلامة يتميز بها الفضاء المدينى فى القاهرة بعد أكثر من عقد من السياسات النيوليبرالية. فهذه الفقرات تبين مركزية الجندر فى التمفصل الطبقى فى القاهرة المعاصرة. وأنا أدفع بأن الحضور العلنى للمرأة له دور مركزى فى تمفصل ثقافة جديدة للطبقة المتوسطة العليا، وبالتالى فهو يصبح بؤرة صراعات طبقية. ففى العصر الليبرالى الجديد فى مصر أصبحت أجساد نساء الطبقة المتوسطة العليا، مرة أخرى، ساحة مركزية لتمفصل اللامساواة الاجتماعية وللتدافع حولها.

أنثى ومهنية ومن الطبقة المتوسطة العليا

تعرفت فى القاهرة إلى عدد من نساء الطبقة المتوسطة العليا ذوات النفوذ فى نهاية العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من أعمارهن ممن يتنقلن بشكل روتينى فى أرجاء المدينة، من البيت إلى الشغل إلى صالة الألعاب الرياضية (الجيم) إلى الكوفى شوب إلى السينما إلى المسرح قبل أن يعدن إلى بيوتهن للنوم، ويستيقظن مبكراً ليعاودن الحركة عبر المدينة إلى الشغل. كن كلهن مهنيات من عائلات تنتمى للطبقة المتوسطة حتى المتوسطة العليا، تعلمن فى مدارس لغات وحصلن على أفضل الوظائف فى مؤسسات الميديا، أو المنظمات غير الحكومية أو أقسام التسويق فى الشركات المتعددة الجنسية. معظمهن كن ما زلن غير متزوجات ويعشن مع الوالدين، وإن كن يقضين كثيراً من وقتهن فى الفضاءات الراقية المتباينة الخاصة بالشغل وبالترفيه والتى انتشرت فى القاهرة منذ منتصف تسعينيات القرن الماضى، وكان بعضهن يرتدين السراويل القطنية أو الجينز الضيقة وقمصاناً ضيقة على نحو مماثل. وقد تكون لأخريات ملامح مشابهة، لكنهن يلبسن غطاء الرأس وقمصاناً طويلة الأكمام، فيما

ظهرت نساء غيرهن بمظهر إسلامى أنيق، مرتديات ثياباً فضفاضة لطيفة ومناديل الرأس تتماشى معها. وفى كل الحالات، فإن أسلوب ملابسهن ونوعية هذه الملابس يشيان بوضع طبقى مريح. وفى حركتهن عبر المدينة، كن على اتصال دائم مع الأصدقاء عبر هواتفهن المحمولة، لينسقوا أماكن ومواعيد اللقاء معهن، بقدر من المبالاة النسبية بالمسافات الواسعة لدرجة مدهشة التى يقطعنها من أجل هذه الاجتماعيات. وهن يحافظن، فى الوقت ذاته، على اتصالهن بعائلاتهن عبر الاتصالات الهاتفية المتكررة بالمحمول؛ ليطمئنوا أولئك الذين بالبيت على سلامتهن وعلى حسن تصرفهن وليعلمنهم بتحركاتهن.

هؤلاء المهنيات الشابات هن فى عداد الرموز الأكثر وضوحًا للعصر الليبرالى الجديد فى مصر: شابات، راقيات، يملكن طلاقة نسبية فى الحديث بالإنكليزية، يعملن بالقطاع ذى التوجه الدولى فى الاقتصاد القاهرى ويزعمن المعرفة بالتيارات العولمية والتقليعات الكوزموبوليتانية. وقد أصبح حضورهن فى الحياة المهنية والاجتماعية العامة أمرًا طبيعيًا بل حيويًا لأساليب حياة الطبقة المتوسطة العليا التى يميزها الطابع المختلط الجندر فى الاتصالات والأماكن. وكان حضورهن جزءًا بالغ الأهمية فى أهلية فضاءات الشغل والترفيه هذه لوضعها النخبوى وأيضًا للحداثة والتوافق مع العولمة. وكما تقول شيلبا فادكى عن ظرف مشابه لدرجة مدهشة فى مومباى فإن " نساء الطبقة المتوسطة كمستهلكات ومهنيات مرحب بهن فى الفضاءات الجديدة للاستهلاك (مولات التسوق ومحال الكوفى شوب) حيث يكون حضور نوع معين من النساء علامة على حداثة المدينة وعلى حقها فى مكانة عالمية " (٢٠٠٧: ١٥١٤). فأساليب الحياة عالية الحراك والميل للانخراط فى الفضاء العام للنساء المهنيات تعد رأس مال ثقافى معتبر فى أجزاء من الطبقة المتوسطة العليا. وتفاوضهن حول الفضاء العام وأداؤهن العام ينتميان إلى مشروع طبقى نخبوى يمكن اعتباره كوزموبوليتانيًا صارخًا، على أساس إحالته الدائمة إلى " الخارج ".

امرأتان فى شارع جامعة الدول العربية

وقد كانت مواصفات الزوجة المثالية المنتمية للطبقة المتوسطة العليا موضع مناقشات ساخنة. فمع انتشار أساليب الحياة الكوزموبوليتانية الصارخة بين نساء الطبقة المتوسطة العليا فى سن الزواج فإن أشكالاً من التدين والحشمة ذات الطابع الطبقى كانت مصدراً لنماذج مجندرة مختلفة وإن تميزت بقدر مماثل من الجاذبية

(انظر محمود ٢٠٠٥). ومن الصعب اعتبار هذين النموذجين نقيضين يلغى أحدهما الآخر. فكثير من النساء اللاتى عرفتهن حاولن خلق مزيج خاص بهن من المهنية وأساليب الحياة العامة، وتعريفات دينية التوجه للأنوثة المستمسكة بالفضيلة، مع كثير من التساؤل عما يفضله الرجال، والنقاشات المحتدمة، نوعًا ما، حول ذلك.

وقد شهدت مصر منذ ثمانينيات القرن العشرين تصاعد التدين بين أقسام واسعة من السكان. ولا شك أن زيادة التدين فى المجتمع المصرى أثرت على أساليب حياة الطبقة المتوسطة العليا، وإن جاء ذلك بطرائق ذات طابع طبقى قوى (انظر ماكليود ١٩٩١). وقد أثر ذلك على التصورات حول اللياقة والحشمة المجندرين وساهم فى نشوء أفكار أكثر استلهامًا للدين فيما يخص الزوجة المثالية، وهى أفكار تتعارض جزئيًا مع أساليب الحياة العامة الموصوفة هنا. وغالبًا ما اعتبر اتخاذ المرأة الحجاب واحدًا من أوضح التعابير على تعزيز دور الدين والهويات الدينية فى الحياة الاجتماعية فى القاهرة. وقد كان التحجب ظاهرة بارزة على نحو خاص بين نساء الطبقة الدنيا والمتوسطة الدنيا، وأقل بروزًا بين نظيراتهن من الطبقة المتوسطة العليا (ماكليود ١٩٩١). واعتبر الحجاب علامة على تدنى المستوى الاجتماعى – الثقافى، وكانت النساء فى سن الزواج من الأسر الأكثر ثراءً يجدن من يحثهن على تجنب الحجاب، ناهيك عن الخمار أو النقاب. ولكن فى نهاية التسعينيات بدأ كثير من شابات الطبقة المتوسطة العليا المهنيات يتخذن الحجاب، هن أيضًا. وبعض من ارتدين الحجاب قلن إنهن فعلن ذلك تقربًا إلى الله (يقربوا من ربنا) وسلوكًا لطريق يفضى إلى ترقية ذاتية. واكتفت أخريات بالقول إنه فرض دينى أن تغطى المرأة شعرها. وحسب خبرتى فإن اختيار الحجاب لم تكن صياغته تجرى، بالضرورة، باعتبارها خيرًا يناقض الشر، أو سلوكًا أخلاقيًا يناقض سلوكًا غير أخلاقى. لقد كان، فى الغالب، اختيارًا لأسلوب حياة أكثر استلهامًا للدين على حساب أسلوب حياة " دنيوى " بدرجة أكبر.

ورغم أن الأمر يتطلب مزيدًا من البحث لرسم الإطار العام للديناميكيات الطبقية المتباينة وراء تأخر " حجاب " الطبقة المتوسطة العليا على هذا النحو، فكثير من الناس

يشيرون إلى تأثير عمرو خالد الواعظ غير الأزهرى ذى الشعبية الكاسحة الذى اجتذب جماهير غفيرة من الطبقة المتوسطة والمتوسطة العليا لمحاضراته الأسبوعية وبرامجه الدينية على القنوات التليفزيونية الفضائية.

وصف عمرو خالد بأنه " داعية الأثرياء " على أساس أنه وجه خطابه، بالتحديد، لجماهير الطبقة المتوسطة العليا معالجًا خياراتهم المتعلقة بأساليب الحياة فى محاولة منه لكى يبين لهم كيف يجمعون بين الدنيا والدين، كما قال لى أحد مشجعيه (بايات ٢٠٠٢: تمام وهاينى ٢٠٠٣). وقد حقق نجاحًا مرموقًا فى أوساط النساء من الطبقة المتوسطة العليا والطبقة العليا وكرس جانبًا كبيرًا من دروسه للاهتمامات " الأنثوية " - حيث الحجاب موضوع مركزى وفى صيف ٢٠٠٢ حظر عليه الوعظ فى مصر. ورغم أن أسباب هذا المنع، على وجه التحديد، ظلت غير معروفة، فيبدو أن نجاحه غير العادى فى هذه الشريحة الثرية والنافذة من المجتمع سبب مهم.

وقد اختلفت النساء اللاتى يقوم هذا الفصل على رصد مسيراتهن حول مدى الانخراط فى النشاط الدينى وحول خياراتهن فيما يتعلق بالحجاب. إنهن جزء من التيار الرئيسى فى الطبقة المتوسطة العليا يسعى إلى تحقيق توازن بين الحياة العامة النشطة والاحترام وبين الالتزام، بدرجات متفاوتة، بالتوجيهات الدينية، وبغض النظر عن خياراتهن بخصوص التحجب فقد بقى الاحترام والسمعة قضيتين أساسيتين لدى كل هؤلاء النسوة. وكان مركز اهتمامهن هو الحفاظ على سمعتهن باعتبارهن طاهرات جنسيًا ولا يمكن لأحد أن يأتيهن إلا بالزواج.

معضلات الظهور العلنى

تفاوضت نساء الطبقة المتوسطة العليا حول وجودهن العلنى على خلفية أزمات مزمنة تتعلق بالحضور العلنى للأنثى وإمكان رؤيتها. وكما بينت فى الفصل السابق، فإن أنواعًا بعينها من الظهور العلنى للنساء لها تاريخ متنوع فى قاهرة

القرن العشرين. ولقد كانت هذه الأشكال ساحة للنزاعات حول الحداثة والأصالة (انظر أبو لغد ١٩٩٨: أحمد ١٩٩٢).

وقد كان حضور النساء فى فضاءات الترفيه العامة علامة مهمة ميزت ممارسات النخبة الكوزموبوليتانية أو " المستغربة " (انظر آرمبراست ١٩: أباظة ٢٠٠١). وفى القاهرة لم تكن هذه الإحالات الكوزموبوليتانية خالية من المشكلات كعلامة مميزة للانتماء الطبقى إلى النخبة وللنضوج، إطلاقًا، ويمكن النظر إلى هذه الإحالات كعلامة على الاغتراب والاستغراب الذى لا جذور له، مثيرة تداعيات تربطها بالتحلل الأخلاقى. وقد استمر هذان التفسيران المحتملان يطاردان التفاعلات فى الأماكن العامة ويستنهضان الجهود المتواصلة للتصرف بتفسيرات الحضور العام. فكيف كان التفاوض حول هذا الحضور الأنثوى المعلن وهذا الظهور الأنثوى المعلن وكيف جرى التصرف إزاء الضرورات، التى كانت متناقضة فى الغالب بين ظهور علنى ولياقة واحترام، من قبل الشابات من الطبقة العليا فى مطلع القرن الحادى والعشرين؟

ورغم أن إنفاق وقت طويل فى الفضاءات العامة للترفيه كان جانبًا مهمًا من الروتين اليومى لنساء الطبقة المتوسطة العليا اللائى عرفتهن، فقد كانت هذه الخروجات مقصورة، إلى حد كبير، على أماكن راقية بمعنى طبقى لا لبس فيه وتتمتع بدرجة كبيرة من الانغلاق الاجتماعى. وقد كانت مسارات هؤلاء النسوة، كلهن دون استثناء، تقوم على خرائط طبقية، فالأماكن الآمنة للنساء هى الأماكن الراقية بالمعنى الطبقى. ولقد لعبت محال الكوفى شوب القاهرية الراقية دورًا هامًا فى تأسيس حضور شاب من الطبقة المتوسطة فى المشهد الحضرى. ففى حين كانت هذه المحال تعطى الإحساس بالانتماء للعالم الأول فإنها كانت تراعى الحساسيات الدينية والأفكار المجندرة عن اللياقة، فى الوقت ذاته. وقد أمنت هذه المحال للمهنيين من الطبقة المتوسطة العليا فرصًا جديدة للاجتماعيات، وللعثور على شركاء العمر، وغير ذلك من أشكال التشبيك وتقديم النفس للآخرين. وبالمقابل، فقد رفضت كل النساء اللاتى تحدثت إليهن مسألة التردد على " القهوة البلدى" رفضًا باتًا، رغم أن بعضهن استثنى المقاهى التى هى جزء من المشهد الثقافى بوسط البلد. وكما قالت مروة وهى شابة غير متزوجة فى

منتصف الثلاثينيات " القهوة مكان عام، لكن لمستوى ثقافى معين. إنها للرجال فقط. وسوف يرفض الناس جلوس الفتاة فى القهوة. أما فى الأماكن الخاصة بنا (فى الكوفى شوب) فلا نكون غريبات. لقد اعتادوا رؤية النسوة يجلسن وحدهن، هناك، أما إذا ذهبت للجلوس فى قهوة، فسوف ينظر الجميع، ثم يقول أحدهم شيئًا ما، ثم يعاكس ".

وكما حاولت أن أبين فى الفصل السابق فقد خلقت الكوفى شوب الراقية مساحة محمية للاجتماعيات غير العائلية المختلطة الجندر فى الجغرافية العامة المتنازع عليها والخاصة بالترفيه. وقد انتزعت هذه الاجتماعية المختلطة الجندر بعيداً عن أى تداعيات تربط بينها وبين الإباحية والسلوك الجنسى المتسيب الذى يرتبط بفضاءات مختلطة الجندر وأقل حصرية تقع خارج المدار العائلى المخلّص. لكن قراءة ما بين سطور الحيوات العامة المعيشة فى الكوفى شوب القاهرية الراقية يمكن أن تكشف عن اهتمام وقلق متصلين إزاء إمكان نشوء مشكلات تتعلق بالوضع العام للاجتماعيات المختلطة الجندر. وغالبًا ما يركز ناقدو الممارسات وأساليب الحياة الكوزموبوليتانية على المعايير الجنسية وعلى السلوك الأنثوى اللائق وهما أمران صارا، بالتالى، بؤرة القلق لدى كثيرات ممن يرتدن الكوفى شوب من الشابات الحريصات على العثور على شريك عمر مناسب. فالسمعة الجنسية للشابة لها أهمية حيوية لسمعتها ولسمعة أسرتها ولفرصها فى الزواج. والأمور المتصلة بالسمعة هى الزاد الموضوعى للنميمة الرائجة وللقلق الدائم. وفى الجماعات المختلطة الجندر، على نحو خاص، فغالبًا ما تلامس المناقشات، وبشكل غير مباشر، قضايا الفضيلة والاحترام. ويبدو كثير من النسوة فى سن الزواج حريصات على تأكيد أنهن محترمات فى مواجهة نقد محتمل لوجودهن فى مثل هذه المحال العامة، أو لمظهرهن وأساليب حياتهن.

وبالمقارنة إلى زملائهن وأصدقائهن من الرجال فالمجال المتاح أمام هؤلاء النسوة للمواءمة الصعبة بين أساليب الحياة والمعايير الأخلاقية هو مجال محدود. فهن يحملن عبء فروض التهذيب (الجنسى) (فيرنر ١٩٩٧) وحضورهن فى فضاءات عامة مثل الكوفى شوب يضع عليهن علامة بوصفهن نساء اخترن أسلوب حياة أكثر علنية، وهو ما يمكن أن يثير تساؤلات حول تهذيبهن. وكما قالت مريم " الفتيات اللاتى يعرفن البيت

والعالم الخارجى، معًا سيكن أقوى". وقد يسأل الرجال: " كيف اكتسبت هذه الخبرة؟ " لكن هذا مجرد نفاق. لماذا يجب أن تكون هى نقية ويكون هو غير نقى؟. وبالمثل فإن كريم ينتقد هذه المعايير المزدوجة. فهو يدفع بأن " هناك رجالاً يذهبون مع الفتيات إلى الكوفى شوب لكنهم يريدون الزواج من فتيات لا يرتدن الكوفى شوب. لا أعرف ما الذى يجعل احترام الفتاة يتوقف على خروجاتها؟ ". وتتناغم هذه التعليقات مع تحليل فرحة غنام للجندر والفضاء العام بين سكان الزاوية الحمرا وهى حى من أحياء الطبقات الدنيا فى القاهرة. ووفقًا لما تقوله غنام فإن "محاولات السيطرة على دخول المرأة إلى مكان العمل... ليست محدودة بالرغبة فى السيطرة على الجسد الأنثوى وعلى جنوسة الأنثى. هناك أيضًا رغبة قوية بالسيطرة على عقول النساء، وعلى المعرفة التى يتيسر لهن الوصول إليها وعلى أشكال التضامنيات التى يمكن لهن تشكيلها " (٢٠٠٢: ٩٠). لكن تعليقات مريم تشير، أيضًا، إلى الشك بالنساء اللاتى لا يبقين بداخل حدود مرسومة بوضوح للياقة والتهذيب الأنثويين. وحتى " التجاوزات " المحدودة، وهى فى هذه الحالة " اكتساب خبرة " تشير إلى إمكانية تجاوزات أخطر مثل الجنس قبل الزواج.

ويجب أن تتموضع هذه التدافعات حول التهذيب الأنثوى فى الفضاء الآمن للكوفى شوب بما فيه من درجة معتبرة من القبول بأساليب الحياة العلنية للنساء؛ فقد ساعد المحيط الأكثر حصرية فى الكوفى شوب على تأطير مظهر المرأة وسلوكياتها بإطار الطبقة المتوسطة العليا وضمن، بالتالى، تفسيرًا معينًا لحضورها. ولكى يتيسر تأمين تأطير طبقى كهذا احتاجت محال الكوفى شوب إلى ضمان مستوى طبقى غير ملتبس لزبائنها.

الفضاء الآمن فى الكوفى شوب

الانغلاق الاجتماعى ملمح مهم للكوفى شوب الذى يحرص على اجتذاب جمهور مختلط الجندر من الطبقة المتوسطة العليا. ورغم أن الحدود الخارجية والداخلية تخضع

لحراسة ثقيلة الوطأة، فهناك قلق متصل من الحضور المحتمل للآخرين غير المناسبين في هذه الفضاءات. ولا يمكن للقاءات غير الخاضعة للإشراف العائلي بين الرجال والنساء غير المرتبطين برباط الزواج أن تكتسب طابع الاحترام ما لم يكن المركز الطبقي للأطراف المعنية فوق كل شك. ويمكن أن يؤدى حضور الآخرين غير المناسبين أن يثير الشكوك حول المركز الطبقى للحياة الاجتماعية المختلطة الجندر، وبالتالى الشك فى جدارتها بالاحترام. ويعتقد، أيضًا، أن هؤلاء الآخرين غير قادرين على الانصياع للقواعد الضمنية للاجتماعيات المجندرة التى توجه الحياة الاجتماعية فى محال الكوفى شوب الراقية. فالمتوقع منهم هو تجاوز الخطوط الحمراء المرسومة بعناية للاجتماعيات المختلطة الجندر المحترمة بالتحرش بزبونات المقهى أو باصطحاب الموسسات. وخذ، على سبيل المثال، ملاحظات أمل حول الأنواع المختلفة من الزبائن التى يمكن أن تجدها فى عدد من أماكن الترفيه الراقية. " فى بعض الأماكن يمكن للفتاة أن تجلس بمفردها، هنا (فى ريترو كافيه). فى سيلانترو. هذه الأماكن غربية بدرجة أكبر. ويجب أن ترى أى نوع من الناس سوف تقابله فى مكان ما. مرّوش مثلاً(٤٨). الشيشة تجتذب أهل الطبقة الدنيا وفتيان الطبقة العليا الراغبين فى اصطياد الفتيات. الناس ينظرون إليك، طوال الوقت ".

و"المستوى الاجتماعى" مفهوم للتفاضل الاجتماعى يجمع بين تصورات تتعلق بالطبقة وبالثقافة، وهو معيار مركزى فى الحكم على قدرة امرأة بعينها على الانخراط فى اجتماعيات محترمة مختلطة الجندر وعلى أداء أمور يمكن أن توحى، فى ظرف مختلف، بانعدام التهذيب. وتنطوى هذه الافتراضات على أن النساء (والرجال) من مستوى اجتماعى راق يعرفون كيف يديرون التفاعلات المختلطة الجندر على نحو لائق، على اعتبار أن ذلك يمثل جانبًا من ممارساتهم الطبقية المكرسة التى هى كوزموبوليتانية رغم أنها محترمة. وبالمثل، فارتداء ملابس عارية لا يشير، بالضرورة، إلى افتقاد التهذيب مادامت الأصول الطيبة لمن تلبس على هذا النحو هى فوق كل شك. عندئذ ينظر إلى هذه الملابس كجزء من أساليب حياة ومعايير محترمة ذات طابع طبقى، بنفس القدر الذى تتسم به الملابس الراقية للمحجبات من الطبقة المتوسطة العليا

من احترام وطبقية. فالمؤشرات الطبقية التى تمتلكها هؤلاء الشابات تحميهن من التصنيف ضمن الفتيات اللائى من "مستويات" اجتماعية أخرى ويرتدين ملابس مشابهة واللائى ينظر إلى الواحدة منهن باعتبارها " صايعة " (زبالة، من الشارع، وإذا شئنا التعبير الإيجابى، خبيرة بأحوال الشارع) أو حتى قليلة الأدب (بالتعبير الدقيق: غير مهذبة، وغالبًا ما يكون هذا هو التعبير المهذب عن كل ما يراوح بين التسيب الخلقى والمومسة). ومرة أخرى يبدو التوازى مع الفضاءات المماثلة فى مومباى المتجهة إلى الليبرالية مدهشًا. وكما تلاحظ فادكى " طالما يرتدين ملابسهن على نحو لائق طبقيًا، فإن حضور الثنائيات بل حتى ما يظهرون من حميمية متبادلة لا ينظر إليه بعين السخط بل يمثل، فى الحقيقية، جزءًا من الرسالة التى تسعى هذه الأماكن إلى توجيهها: أن هذه فضاءات عولمية تحكمها قواعد عولمية ويمكن للمرء فيها أن يترك وراءه المدينة وظروفها الثقافية المحلية " (٢٠٠٧: ١٥١٤).

هذا المنطق يظهر فى مناقشة تامر للكوفى شوب. فالحكم على مكان معين، بالنسبة له، يعتمد على " أسلوب الناس " الذين يترددون عليه. ويتذكر هذا المهنى من الطبقة المتوسطة العليا الذى بلغ نهاية عشرينياته زيارة وحيدة لكوفى شوب مفتوح "رخيص" فى المعادى، وهى منطقة للنخبة فى ضواحى القاهرة. " لم يكن أسلوب الناس عظيمًا بالدرجة المطلوبة، ولم أشعر بالراحة. عندما أخرج، لا أريد أن أقابل فى طريقى فتاة زنخة، شخصًا " بيئة " يقرفنى. كان الجو، بالتحديد، غير راق. وهذه مشكلة أخطر بالنسبة للفتيات. لا يمكننى أن آخذ خطيبتى إلى بعض الأماكن التى أتردد عليها مع أصدقائى من الشباب. فالأماكن التى أخذها إليها يتعين أن يكون فيها أناس من مستوى " نظيف "، حيث يبقى كل واحد فى حاله، ولا أحد ينظر إليك على نحو غير مهذب أو يقهقه عاليًا ". وتعد محال الكوفى شوب فى شارع جامعة الدول، وهو شارع رئيسى للتسوق وممر أساسى فى المهندسين، أمثلة واضحة على الأماكن التى لا يمكن له، أبدًا، أن يزورها مع خطيبته، كما قال. " فى معظم محال الكوفى شوب هذه تجد المومسات. لا يمكن أن أذهب هناك مع خطيبتى. سيظن الآخرون أنها ليست خطيبتى، بل صديقتى. سوف ينظر إليها كواحدة من أولئك

الفتيات". وأظهر كريم، وهو مهنى فى أوائل الثلاثينيات، رأيًا مشابهًا. "يجب أن تجعل المكان مريحًا للنساء. يجب أن يكون مغلقًا ونظيفًا وأن يكون بعض العاملين من النساء. ويتعين أن تحافظ على مستوى معين من الناس الداخلين إليه. وإذا وجدت امرأة أن رجلاً يتحرش بها، أو امرأة يبدو أنها مومس، فلن تأتى مرة أخرى لأن الناس قد يقولون إنها يمكن أن تكون واحدة منهن ".

ويتبين من تقرير نهال عن زيارتها لديسكو لم يكن فيه ما يشير بوضوح إلى أنه من الطبقة المتوسطة العليا كيف أن حضور الآخرين غير الموثوق بهم يمكن أن يؤثر على إحساس المرأة بنفسها. فهذه المهنية التى بلغت أوائل الثلاثينيات قالت لى إنها شعرت بالحرج بمجرد دخولها. اعتبرت أن كثيراً من النساء الموجودات هن من النوع "المتساهل" فيما يخص الضوابط الجنسية وشكت فى أن بعضهن مومسات. ورغم أنها كانت فى صحبة صديق ورغم إدراكها لهويتها كمهنية من الطبقة المتوسطة العليا ذات مستوى لائق، فقد شعرت بأنها أدرجت ضمن هذه المجموعة من النسوة المتحللات لمجرد وجودها هناك، وأحست بأن التجربة لوثتها. وروت لى نساء أخريات حكايا مشابهة، معبأة بمشاعر مماثلة. وأكدت بعضهن التأثيرات الاجتماعية التى تنشأ عن مشاهدتهن فى مكان معين، وأكدت أخريات على شعورهن بالحرج، بل بالمهانة، لأن وجودهن فى مكان ما جعل آخرين ينظرون إليهن باعتبارهن أقل احترامًا. ويمكن أن ينشأ هذا الشعور بالحرج والمهانة عن أى شىء، من الهواجس الشخصية إلى الإشارات غير الصريحة من الآخرين الحاضرين، من المعاكسات والمغازلات السليمة الطوية إلى المداخلات الواضحة. وما أدهشنى هو مدى تأثير هذه التقويمات الاجتماعية (المتخيلة) على ما لدى النساء أنفسهن من تصورات عن أجسادهن وذواتهن المجنسة.

وكما تبين هذه الحكايا، فإن الحضور العلنى لهؤلاء النساء يطارده شبح الدعارة. ومناقشة إليزابيث ويلسون لمسألة " المرأة العامة " فى المدن الأوروبية فى القرن التاسع عشر هى مناقشة مفيدة بهذا الصدد. " كانت المومس امرأة عامة " لكن مشكلة الحياة الحضرية فى القرن التاسع عشر كانت تدور حول ما إذا كانت كل امرأة فى العالم

المضطرب الجديد للمدينة، الفضاء العام للأرصفة والمقاهى والمسارح، ليست إلا امرأة عامة وبالتالى عاهرة. فمجرد حضور النساء دون صحبة – دون مالك – كان مصدر تهديد للسلطة الذكورية وإغراء لـ " الضعف " الذكورى، فى آن " (ويلسون ٢٠٠١: ٧٤). ولا تزال العلاقة المتوترة بين الأخلاق والانكشاف تؤمّن الخلفية المركزية لتفاوضات النساء حول الفضاء العام فى عديد من الأماكن، وفى أمور أخرى فى القاهرة المعاصرة. فهذه العلاقة تحكم الصورة الملتبسة للشابات من الطبقة المتوسطة العليا اللائى يتحركن – دون مالك – عبر الفضاء العام. ويتمثل جوهر هذا الالتباس فى التفسيرات المتناقضة الممكنة لحضور امرأة شابة فى مكان عام. هل يشير حضورها إلى انفتاح جنسى غير محمود أم أنه جزء من أسلوب حياة ومن روتين يومى أكثر احترامًا؟ وتلاحظ سوسن عثمان علاقة ملتبسة مماثلة بين الأخلاق والانكشاف فى الفضاءات العامة فى الدار البيضاء. فهى تدفع بأن " واحداً من الإشكالات التى تنشأ عن اللقاءات العلنية الجديدة بين الشبان والشابات هى افتقاد الجداول (paradigms) وهى كلمة يشير بها اللغويون إلى مجموع الصيغ الصرفية لجذر معين وتستخدم فى هذا النص، لا بالمعنى اللغوى الأصلى هذا ولكن بمعنى اجتماعى مواز يركز على مختلف الأشكال التى تتخذها ممارسة اجتماعية ما وهى تدور مع الظروف المتغيرة دون أن تختفى صورتها الأصلية التى هى جذرها – المترجم) المناسبة للممارسات الغزلية. ففى الماضى كانت النساء المغريات على نحو علنى فى الأماكن العامة هن المومسات، ولا تزال هذه الفكرة تلون إدانة كثير من الناس لمن ينخرطن فى الغزل العام" (عثمان ١٩٩٤: ١٦٣). ويمكن أن يوحى الظهور العلنى بأن المرأة متاحة (على نحو غير أخلاقى) ولهذا فيجب أن يمارس ممارسة حذرة. وكما تقول رايتشيل نيوكومب عن الناس فى مدينة فاس المغربية " يتعين أن تحافظ النساء، فى الفضاءات العامة، على توازن دقيق بين الانكشاف واللياقة، معلنات عن جمالهن وحريصات على وجود شعور بالمسافة الفاصلة بينهن وبين الكلمات والنظرات من رجال غير مرتبطين بهن " (٢٠٠٦: ٢٩٩).

قهوة بلدى - باب اللوق

قهوة تريانون بالمهندسين

وإدارة ظهور المرأة ملمح مهم فى تصميم الكوفى شوب، كما يبين كريم فهو يقول: " ليس للقهوة باب. وبالمقابل فالكوفى شوب مغلق. ولن يراك كل من يمر وأنت جالسة هناك، لا يؤثر عليك الآخرون. ولا تحب صديقتى أن تجلس فى مكان يمكن أن تُشاهد فيه وأن تسمع تعليقات. إنها ترفض أن تجلس فى الشارع. هى تفضل مكانًا مغلقًا على نحو آمن". وحماية المرأة من النظرات هى تيمة قديمة فى عمارة الترفيه فى القاهرة. ففى كثير من المطاعم الأقدم عهداً طابق ثان يمكن أن تجلس فيه العائلات والمجموعات المختلطة الجندر بعيداً عن الأعين. ومعظم محال الكوفى شوب مصممة على نحو مماثل لحجب الرؤية من الشارع. وتوضح حكاية كريم عن فاشون كافيه، وهى كوفى شوب أخرى فى شارع جامعة الدول، أهمية إدارة الانكشاف، على هذا النحو لقد أراد مالك فاشون كافيه أن يبتكر مقهى بنوافذ كبيرة مفتوحة على الشارع " مثل المقاهى فى بوليفارات باريس ". وثبت أن الفكرة مدمرة فى ظروف القاهرة. ويقول كريم إن الجمهور الذى بدأ يتردد على المقهى كان يتألف، فى معظمه، من رجال جاؤوا للقاء الفتيات؟ " جاء أناس يمكن أن يخلقوا إشكالات، جاؤوا للغزل / التحرش (المعاكسة). وتوقفت الزبونات عن التردد على المقهى، وبدأ نوع آخر من النساء يرتاد المكان ".

ورغم أن الاهتمام بالحماية البصرية ركز بوضوح تام على تحديقات العابرين، فقد امتدت أيضًا إلى التحديق(*) من الرواد المنتمين لمستوى اجتماعى أو أصول اجتماعية محوطة بالشبهات. وكما يفهم من تكرار الإحالات إلى "نوع معين من أناسنا" و"نوع الناس الذين ننتمى إليهم" وكذلك من الإشارة السلبية للآخرين الأقل مكانة على المدرج الطبقى، فإن تحديقًا محدداً هو الذى اعتبر إشكاليًا بل ضاراً: النظرة المقتحمة من رجال لا يتمتعون بالجدارة والموجهة إلى نساء محترمات لهن وضعهن الطبقى.

(*) gaze لهذا اللفظ دلالاته عند سارتر ثم عند فوكو وبقية البنيويين، والمؤلفة تستخدمه استخداماً محمّلاً بإحالات إلى أعمال هؤلاء الفلاسفة – المترجم).

ويوضح تأثير هذا التحديق تعليق صدر، ذات مرة، عن أمل. فقد أوضحت على نحو جازم أنها " لن تنزل إلى الماء " (لن تسبح فى ملابس البحر) ما لم تكن واثقة من "المستوى الاجتماعى" للآخرين من الحضور "ربما كانوا بيئة ويأكلونك بنظراتهم". وكما أبين بمزيد من التوسع، فيما يلى، فإن التحديق من ذكر غير ذى قيمة يعد تجربة مهينة لأجساد أنثوية طاهرة ومحترمة جسمانيًا ورمزيًا.

فالسؤال الأساسى من يمكنه النظر إلى من. فقد تكون النظرة جزءًا من انكشاف لائق ومرغوب، وقد تكون مؤذية ومهينة، حسب " المستوى الاجتماعى". وفى مقابل النظرة غير المقبولة من رجال من طبقة أدنى، فنظرات الآخرين من ذوى المكانة الطبقية المرموقة مطلوبة بل مرغوبة. أما أن تظهر المرأة فنادرا ما كان موضع نقاش، إلا فى التعليقات حول سطحية وغرور وانتهازية وقلة تهذيب الأخريات اللاتى يعطين الأولوية للظهور فى أحدث وأشيك مكان أو اللاتى يرغبن فى أن يظهرن بهدف العثور على شريك. فالرغبة فى الظهور هى، كما تبين، موضع جدل شديد، ويمكن أن تثير الاتهامات بالسطحية والاتهامات، فى حالة النساء، بقلة التهذيب.

وتسمح الفضاءات المحروسة بكل حرص فى الكوفى شوب بأداء الهويات الطبقية المجندرة للطبقة المتوسطة العليا - الاجتماعيات الترويحية للشلل المختلطة الجندر والروتينات العلنية للمهنيات غير المتزوجات. وتسم هذه الاجتماعيات المختلطة الجندر، بدورها، هذه المؤسسات بسمة الطبقة المتوسطة العليا. وبالنسبة لظهور فضاءات استهلاكية مؤنثة فى نهاية القرن التاسع عشر فى نيويورك، ترى لينر بوندى ومونا روموش أن أجزاء معينة من المدينة أصبحت مرتبطة بتعريفات برجوازية للأنوثة. وبالتالى، فإن هذه الفضاءات عززت الهويات البورجوازية للنساء المتسوقات. وقد خلصتا إلى أن "تعريفات الأنوثة تم تضفيرها مع مواصفات فضاءات بعينها فى المدينة" (١٩٩٨: ٢٧٩ - ٢٨٠). وتؤدى محال الكوفى شوب الراقية فى القاهرة وظيفة مشابهة لمناطق التسوق فى القرن التاسع عشر. فما دام إطارها الطبقى فوق كل مظنة

والآخرون من ذوى السمعة السيئة مستبعدين، فقد وضع فضاء الكوفى شوب، بشكل عام، تفسيراً للسلوك العلنى لهؤلاء النسوة ولمظاهرهن الجنسية الطابع يقوم على القبول والاحترام. أما فى الشارع، حيث معايير المحال الراقية غير مهيمنة وحيث يفتقد الإطار الطبقى الواضح، فإن تقديم المرأة (لنفسها) على هذا النحو يمكن أن يقلب رأساً على عقب. فالكات (cut) أو القميص من غير كمين، الذى على الموضة يصبح، هو ذاته، فى غير محله، وقد يعد أيضاً علامة على سوء السمعة وعلى التحلل الخلقى، ودعوة صريحة للتعليقات بل للتحرش.

إلى الحراج الحضرية

كنت أمشى ذات يوم فى أحد الشوارع التجارية المزدحمة فى وسط البلد عندما علق أحد المارة، غاضباً " مش حرام عليكى كدة؟ " (ألا تخجلين من نفسك؟) مرت لحظة قبل أن أفيق من الصدمة. فرغم أنى اعتدت المعاكسات (المغازلات / التحرش) عند المشى فى الشوارع، فلم يحدث لى قط أن عنفت على هذا النحو. وألقيت نظرة سريعة على ثيابى: تنورة تصل إلى الركبة وتى شيرت محكم إلى حد ما وقصير الكمين، لا شيء غير عادى، كان الرجل المجهول الذى كان فى منتصف العمر قد اختفى. ولم يكن بوسعى أن أطلب تفسيراً نظرت حولى ووجدتنى محاطة بأمثلة عديدة على الملابس الجنسية و " العارية " فى واجهات المحلات.

واصلت سيرى عائدة إلى البيت، دون أن تفارقنى الحيرة، واتصلت هاتفيًا بندى لأسألها الرأى. ولم تبد أى دهشة. فى البداية اعتبرت أن الأمر كان مجرد غزل. وعندما ألححت على أن اللهجة كانت أقرب إلى التقريع قالت " إذن، هو كان يرى أنك لا تلبسين ملابس لائقة. لا بد أنه ظنك مصرية " قلت لها إنى سمعت أن هذا النوع من "المداخلات" كان شائعًا فى أوائل التسعينيات، فى ذروة التعبئة الدينية، عندما كان

الناس يستوقفون البعض فى الشارع للنصح والتحذير ليحسنوا حياتهم ويعيشوا وفقًا للفروض الدينية. لكنى لم أخبر، قط، شيئًا كهذا وكنت أظن أن هذا النصح التحذيرى صار شيئًا من الماضى. وعند النزول من مينى باص كنت أجد إحدى الراكبات، فى بعض الأحيان، تشد بيدها قميصى، الذى تحرك إلى أعلى كاشفًا عن جزء من خصرى. وهذه الإيماءات الصغيرة كانت تذكرنى، على الدوام، بالحد الأدنى للحشمة المفروضة على النساء خارج البيوت، وكانت غالبًا ما تترك لدى قدرًا يسيرًا من الحرج لأنى لم أنتبه إلى مثل هذه التفاصيل المهمة. لكن هذه الإيماءات المنطوية على عطف وحنان بدت بعيدة الصلة باللوم الغاضب من ذلك الرجل. وقالت ندى متفلسفة " طيب. هناك دائمًا نقطة بداية. كان ذلك رجلاً متعصبًا من حقبة أخرى ".

من الصعب تصوير الكثافة والطبيعة المحسوسة بدنيًا للتفاعلات فى الفضاءات العامة فى القاهرة، أو الوعى الحاد بالذات لدى نساء كثيرات عندما يتحركن عبر الفضاء العام. وتدفع جيليان روز بأن النساء يثبتن باعتبارهن ذوات واضحة التجسيد والتموضع. وبالمقابل، فمعظم الرجال يستمتعون بوهم ذكورى عن التحرر من الجسد ومن تموضعه المحتدم. وهذه الأشكال المتباينة من تحديد الذوات تنشأ عنها خبرات محددة بالفضاء، برأى روز. " فالنظرة الذكورية المهددة تنقش سلطانها، على نحو مادى، على أجساد النساء بتثبيت ذوات أنثوية عبر وعى ذاتى حاد بأنهن ينظر إليهن وبأنهن يشغلن فراغًا... إنه فراغ يثبت النساء فى حال كونهن موضوعات مجسدة ينظر إليها " (روز ١٩٩٣: ١٤٥-١٤٦). وكما لاحظت من قبل، فإن الطبقة والمحيط الاجتماعى - الفضائى لهما دور مهم فى تصنيف هذا التحديق والخبرة التى تنشأ عنه والتفسير الذى يطرح له. فالتحديق من شاب ميسور فى كوفى شوب يمكن تفسيره على نحو يختلف تمامًا عن التحديق الذكورى الأقل تحديدًا وإن كان كلى الحضور بقدر أكبر، الذى يحدث فى الشارع. وبالمثل فإن امرأة ينم مظهرها عن انتماء للنخبة، بوضوح، يمكن أن تخبر تحديقًا مختلفًا، إلى حد ما، فى الكوفى شوب وفى الشارع،

مقارنة بخبرة امرأة أقرب إلى الطبقة المتوسطة. ومع معالجتى لتيمات التحديق الذكورى والتجسد النسوى كما تمفصلها روز، فأنا أستكشف الديناميكيات المحددة لـ "التحديق" فى الوسط القاهرى وأتساءل حول ما يمكن أن نتعلمه من هذه التفصيلات بخصوص تثبيت الأجساد الأنثوية من الطبقة المتوسطة العليا والهويات المجندرة(٤٩). فالتحديق يشخّص باعتباره عامل تلويث وتحقير ناشطًا، له تأثير مادى على الجسد المؤنث. وأكثر من ذلك فالتحديق يمكن أن يفرز سمعة سيئة وأن يوحى بقلة تهذيب الأنثى. وتتصل هذه الأخطار، بدرجة كبيرة، بحضور آخرين من غير الطبقة المتوسطة العليا، أولئك الذين يتصور أنهم من "مستوى ثقافى" أو " اجتماعى " أدنى، وينظر إليهم، بالتالى، على أنهم غير قادرين على تفهم الحضور العلنى المحتدم، الذى تم التفاوض عليه على نحو خفى، لشابات من الطبقة المتوسطة العليا.

وفى حالة الكوفى شوب يتخذ " الفضاء العام " خاصية تشخيصية ذلك أن "الوجود فى مكان عام " هو بالأساس أمر يتصل بتقديم الذات، بإدارة حضور علنى محتدم. لكن الفضاء العام يمكن أن يمثل، أيضًا، فضاءً اجتماعيًا أقل تحريرًا. حيث القواعد غير مؤكدة والتفاعلات غير مقيدة، والآخرون الذين قد يلتقيهم المرء مجهولون (كافيراج ١٩٩٧، ميتشيل ١٩٩٥). وهذه النماذج المتباينة للفضاء العام تستتبع، أيضًا، أشكالاً متباينة من التحديق - منها ما يسعى إليه ومنها المخوف. وتثير الشوارع إحساسًا بحراج حضرية تنطوى على مفاجآت محتملة وأخطار وملوثات عديدة. ويتركز الإحساس بحراج حضرية خطيرة، بشكل أساسى، على الأخطار الجنسية التى يمثلها بالنسبة للجسد المؤنث. فالقلق حول ضرورات اللياقة عند الظهور علنًا تحل محله، وربما يترجم إلى، مخاوف من التلوث والتحقير الذى قد يطال الجسد الأنثوى الشديد الهشاشة والقابل للعطب المنتمى للطبقة المتوسطة العليا.

وبعكس الكوفى شوب المغلق، فإن شوارع القاهرة مطبوعة بالامتياز الذكورى(٥٠). فالشارع فضاء وجد ليعمره الرجال، فضاء يمكنهم أن يقضوا وقتهم فيه، ليلاحظوا

المارة ويتفاعلوا معهم ويعلقوا عليهم ويغازلوا النساء بينهم. وبالمقابل، فإن المرأة الشابة التى من دون صحبة لها وجود يبقى ملتبسا فى المنطقة الغائمة عند عتبة الشعور باعتبارها كائنًا عابرًا هامشيًا وربما غير شرعى وسيئ السمعة (غنام ٢٠٠٢). يفترض أن يكن فى طريقهن إلى مكان ما، ولهن مقصد واضح، ولا يتمهلن أكثر مما يجب. فالتسكع فى الشوارع، خاصة عندما يكن منفردات، يؤخذ على أنه دعوة صريحة للرجال ليتواصلوا معهن. وقد كانت جهود صديقاتى التى تهدف إلى التخطيط الدقيق لجداولهن الزمنية ولقاءاتهن لتجنب الفجوات الزمنية التى قد تضطرهن للانتظار وحدهن فى فضاء عام تشير إلى حضورهن العتبى فى هذا النوع من الفضاءات العامة. فبقاء المرأة وحدها فى فضاءات عامة مفتوحة يرقى إلى مستوى تلميحات بدعوة جنسية وهو ما يجعل المرأة عرضة، ليس فقط للتحقير المادى، ولكن أيضًا لتلويث رمزى ينشأ عن النظر إليها باعتبارها جاهزة للتواصل الجنسى، هذا الاحتكار الذكورى للحكم على النساء والتعليق عليهن واعتراضهن فى الشارع لم تُجدِ المكانة الطبقية العالية لدى معارفى من النساء فى تجنبه، إلا بقدر جزئى.

وقد اعتمدت إستراتيجيات النساء فى التجول فى المدينة على الخرائط الاجتماعية للقاهرة التى تشير إلى ما هو متوقع فى أماكن معينة والتى تضع على هذه الأماكن علامات الاسترخاء والتوتر، والسلامة والخطر. وقد تفاوضت هذه الإستراتيجيات حول مختلف الترتيبات الفضائية اليومية التى تؤطر التفاعل الاجتماعى فى الفضاءات العامة فى القاهرة. وتتألف هذه الترتيبات الفضائية من أفكار ومعايير تتعلق بالسلوك واللياقة والهوية، وتنسب هويات اجتماعية لأشخاص محددين فى ظروف فضاءات محددة وأوقات محددة من اليوم.

ويخضع حضور المرأة الشابة لملاحظة وتقويم دائمين. ويتأسس التقويم على مظهرها وعلى المؤشرات الطبقية وعلامات الاحتشام مثل الحجاب أو الملابس غير الضيقة. وكما تقول أن جى سيكور (٢٠٠٢) عن أسطنبول فإن ملابس بعينها تسمح

بتفسيرات ومداخلات بعينها فى الفضاء العام وهى بالتالى، بالغة الأهمية فيما يتعلق بالسياسات التفصيلية للتفاعل فى الفضاءات العامة. والأساليب المختلفة للملابس النسائية لها موقع مركزى ودلالة أيقونية فى مختلف أساليب التأنث. ورغم ذلك، فكل أسلوب من هذه الأساليب تعين التفاوض حوله عبر فضاءات متنوعة مع تفسيرات لحضور المرأة تختلف باختلاف الفضاء الذى تجتازه. ويتوقف تفسير الجينز الضيق، وإن لم يكن كاشفًا أكثر مما يحجب، والقميص ذى الصفات المماثلة، أو غطاء الرأس الأنيق الذى يناسبها، والرداء الفضفاض، على الظرف المحيط اجتماعيًا وفضائيًا. وتختار هؤلاء النسوة ملابسهن اختيارًا يتحدد وفقًا للمسار: فلا يكون ضيقًا للغاية، ولا كاشفًا للغاية، ولا مبالغة فى الماكياج عند اجتياز المناطق الأكثر شعبية أو اختلاطًا. وقد يتخذن مسلكًا دفاعيًا: تثبت النظرات إلى الأمام على نحو مستقيم، تصدر الإشارات بالانعزال عن كل ما يحيط بالمرأة فى محاولة لإقامة درع غير مرئى حولها.

وقد ثبتت أهمية هذا التأطير الفضائى للحضور العلنى للمرأة. فى واحدة من رحلاتى إلى مصر الجديدة كنت على موعد للقاء أمام ميريلاند، وهى حديقة واسعة فيها مطاعم ومقاه. وهذه الحديقة علامة واضحة على الطريق وكانت تبدو نقطة ميسرة للقاء. وحدث خطأ ما وانتهى بى الأمر إلى أن أنتظر وحدى فى الشارع. وتوقف رجال عديدون بسياراتهم وحملقوا فى. وتأكدت مخاوفى عندما أخرج أحدهم حزمة كبيرة من أوراق النقد ولوح لى بها. وأدركت أنى قد أخطأت، كما هو واضح، فى اختيار علامة الطريق. فحتى ملابسى الأميل إلى الحشمة (سروال طويل أسود وبلوزة بسيطة وماكياج خفيف للغاية) لم تحمنى من التصور الغالب على هذا المكان باعتباره نقطة لالتقاط العاهرات. وبما أن الدعارة غير مشروعة فإن المومسات لا يميزن أنفسهن، من حيث المظهر، عن الجمهور النسوى العام. وهكذا يتعرف الشخص على هوية المومس بالمظهر الظرفى فى إطار معين من الفضاء / الزمن، مثل الفتيات فى بهو الاستقبال

فى فندق الخمسة نجوم اللاتى أشارت إليهن مها وهى معى، بما ميزهن من ماكياج زائد نسبيًا وملابس ضيقة أكثر من اللازم بقليل.

والحق الحصرى للذكر فى أن يحكم أو يعلق أو يستوقف امرأة ليوجهها فى فضاء عام يجد التعبير المباشر عنه فى المعاكسات (المغازلات / التحرش) المتكررة التى تقابل النساء عند اجتيازهن المدينة. والمقتطف التالى جزء من مقال ظهر فى المطبوعة الناطقة بالإنكليزية كوميوينتى تايمز، وهى مجلة شهرية تخاطب جمهوراً محليًا من الطبقة المتوسطة العليا.

التحرش الجنسى فى الشوارع المصرية

لا تستطيع النساء فى مصر، ببساطة، المشى فى هذا البلد دون أن تضايقهن حملقات الذكور... وبعض التعبيرات التى تستخدم فى الشوارع للتحرش بالنساء نابية لدرجة صادمة، وأحيانًا ما تكون عنيفة، مع إشارات تشريحية سو. تحولت إلى نمط مرضى شائع. وتضحك إحدى صديقاتى كلما تذكرت عابر طريق أمطرها بعرض قائمة الأفعال الجنسية المختلفة التى يحب أن يمارسها معها. واضطرت أخرى إلى تحمل الألم الذى نشأ عن قيام شخص غريب بلمس مؤخرتها بيده لمسًا خفيفًا... ويلوم المتحرشون الذكور النساء لأنهن يثرن خيالاتهم الجنسية القذرة (لكن) المشكلة ليست فى ملابس النساء، والدليل هو أن المحجبات لسن بمنجاة من التحرش فى الشوارع.

شيماء بكير، كوميوينتي تايمز، يونيو ٢٠٠٤

فالكاتبة تعبر عن شعور يكاد يكون عامًا يتعلق بالتحرش الجنسى فى شوارع القاهرة. وهى تظهر خيبة الأمل إزاء ما يعترض مرورها فى فضاء عام بتعليقات مجافية للذوق وتلامس جسدى غير مرغوب فيه. وحسب خبرتى فالمعاكسات تتنوع بين

مزاح ذى إبداع خلاق بدرجة عالية وتحرش جنسى فظ، فى حين تمثل العبارة المعيارية " يا عسل " مجرد تذكرة دائمة بتحديق ذكورى دائم الرقابة (غنام ٢٠٠٢: ١٠٠). ورغم أن هذه المعاكسات لا تملك طابعًا طبقيًا محددًا، فى ذاتها، فغالبًا ما تنسب إلى رجال يتسكعون فى الشارع ولهم ارتباطات بالطبقة الأدنى.

وقد علمتنى صديقاتى من الطبقة المتوسطة العليا أن نساء الطبقة المتوسطة يجب أن يكن حازمات فى تجاهل المعاكسات، مهما كانت مرحة، إذا كن يردن الحفاظ على احترامهن. ووافق رجلان ممن مارسوا المعاكسات على نحو غير منتظم، على هذا الرأى. فالمعاكسات تواصل ليس وراءه هدف آخر سوى الغزل، حسب رأيهما، ولا معنى لها سوى المعنى الجنسى. والمرأة المهذبة المنتمية للطبقة المتوسطة يجب أن لا ترد، ولا حتى للدفاع عن نفسها أو لتقريع الرجل الذى تجاسر على مضايقتها، حتى لا تؤمن فرصة لتفاعل أطول زمنًا. فالدخول فى محادثة أو الرد على معاكسة ينظر إليه باعتباره أمرًا يقترب من الانفتاح النسبى على العبث المجنس، وبالتالى فهو شىء يتعين أن تتجنبه امرأة محترمة. والأمر غير المفهوم هو أن النساء اللاتى يتعرضن للغزل والتحرش ينظر إليهن باعتبارهن مسئولات جزئيًا عن المعاكسات. فقد ينظر للمرأة على أنها تحرص على هذا النوع من الاهتمام بها؛ لأنها تتحرك وحدها فى فضاء عام وتجتذب التحديق الذكورى بملابسها أو بسلوكها. وتوزيع المسئولية على هذا النحو يتناغم، أيضًا، مع وجهات النظر التى تتعلق بالخطر المتحمل الذى يتمثل فى اتصال المرأة بالرجال من غير المحارم " الزوج، الأب، الأعمام والأخوال، والأخوة "(*). على اعتبار أن اتصالاً كهذا يمكن أن تنشأ عنه نتائج كارثية بإثارة مشاعر شهوانية فى الرجال الذين هم ضعاف بالطبيعة (هوفمان -لاد ١٩٨٧، ماكليود١٩٩١: ٨٣-٨٤) وفى

(*) من الواضح أن المؤلفة لم تقدم قائمة كاملة بالمحارم وهو أمر لا يحتاج منا إلى سد نقصانه لأنه معروف للقراء - المترجم ،

إطار درس حول أهمية الحجاب دفع عمرو خالد بأن " امرأة واحدة يمكن أن تغوى مائة رجل، لكن مائة رجل لا يستطيعون غواية امرأة واحدة " (وردت عند بايات ٢٠٠٢: ٢٤)(**).

لكن المشهد الموصوف فى كوميونيتى تايمز يمكن أن يقرأ، أيضًا، كتعبير عن التوترات التى تصاحب التشكيلات الطبقية الجديدة فى عصر الليبرالية الجديدة فى مصر وتجلياتها فى المشهد المدينى للقاهرة. فالحضور العلنى للنساء قد أصبح أحد أهم المؤشرات لثقافة شباب الطبقة المتوسطة العليا التى نمت فى فضاءات الترفيه الجديدة فى القاهرة فى تسعينيات القرن العشرين. لكن هذا الحضور العلنى هش ويثير أشكالاً من القلق الشديد حول الأذى الممكن الذى قد يطال الأجساد الأنثوية من الطبقة المتوسطة العليا فى الفضاءات العامة للمدينة.

وكما تقول آنا مهتا وليز بوندى فى مناقشتهما للتجسد النسوى والخوف من العنف فى إدنبره " النساء ' يجسدن ' خطابا يثبتهن... باعتبارهن قابلات للعطب وعاجزات بدنيًا، خاصة فى مواجهة العنف الذكورى، وباعتبارهن هدفًا لجنوسة ذكورية عدوانية " (١٩٩٩: ٧٧) أما فى القاهرة فالنساء يصورن باعتبارهن أهدافًا للمراقبة المجنسة، فى حين ينسب إليهن اتهام ملتبس بالجرم لأنهن اجتذبن إليهن هذا الاهتمام المجنس وهو اتهام يضعهن فى موضع الدفاع.

ولم يكن هذا النمط من التشيؤ بحاجة إلى فاعل محدد: فهو ينبت من داخل تعريفات الفضاءات العامة والهويات الاجتماعية التى تنسب إلى مختلف أنماط من يستخدمونها. وكما لاحظت من قبل، فالنساء يجسدن، حرفيًا، مثل هذه المزاوجات

(**) عمرو خالد يعيد هنا صياغة عبارة راقية المعنى والهدف للصوفى القديم ابن عطاء الله السكندرى الذى يرى أن "فعل رجل فى ألف رجل أبلغ تأثيراً من قول ألف رجل لرجل"، وهى عبارة تثمّن ضرب المثل الأعلى بالفعل الصالح باعتباره أبلغ أثرًا من القول المحكم - المترجم).

المتنافضة ومجرد فكرة تحديد هويات إجماعية معينة – مثل اعتبار امرأة ما سيئة السمعة بناء على مظهرها – يمكن أن تترتب عليها تأثيرات مادية. وفى الوقت ذاته فالخبرة اليومية بالمعاكسات تؤكد على نحو متواصل، بالفعل، التجسد المجنس للمرأة. وكما يتبين من الإشارة السابقة إلى الطبيعة المؤلمة لـ " لمس خفيف باليد " ومن مناقشتى للتحديق غير المهذب فإن أجساد الإناث من الطبقة المتوسطة العليا يمكن، بسهولة، أن تتعرض للأذى وللمهانة. فالنظرات واللمسات يمكن أن تسبب الأذى لأجساد إناث الطبقة المتوسطة العليا، وأن تسبب أيضًا الشعور بالتحقير.

مرور آمن

ويتخذ تجنب التحديقات غير المرغوبة والاتصالات غير المرغوبة وحجبها موقعًا مركزيًا فى إستراتيجيات الطبقة المتوسطة العليا بخصوص النقل. وقد أصبح اثنان من وسائط النقل المنتشرة رمزين على طرفى نقيض لتجربة الفضاء العام: فالباص أصبح يمثل التقارب الإجبارى والتحرش الممكن، فيما تمثل السيارة السيطرة والحماية وحرية كاملة فى الحركة. وتتناغم التعليقات اليومية على النقل العام مع الافتراضات المتعلقة بضعف وغلاوة جسد أنثى الطبقة المتوسطة العليا. فلا يجب أن تتعب المرأة، ويجب أن تكون على راحتها وآمنة من التلامس غير المرغوب مع الأجساد الأخرى.

ورغم أن الرجل يمكن أن يتحمل هذه المكاره، فيجب ألا تجبر المرأة، أبدًا، على التعرض لبشاعات الزحام فى فضاء مفتوح رغم أنه مغلق، مثل الباص العمومى، حيث يقضى على المرء بالاقتراب من الآخرين ومن أجسادهم غير النظيفة، وأسوأ من كل ذلك، التحرش البدنى، والباص العمومى الأرخص (الأحمر) الذى يتكلف ركوبه ٢٥ قرشًا (٠٫٠٥ يورو) (ثمن الركوب ومعدل استبدال العملة تغيرا منذ طبع هذا الكتاب – المترجم) أيًا كانت مسافة الرحلة أصبح رمزًا لـ " المصرى الفقير " بالنسبة لأولئك الذين

لا يستخدمونه. وأخبرتنى صديقة بأن زميلاتها فى الطبقة المتوسطة يملن إلى التعليق على المعاكسات بقولهن " كأننا فى الباص الأحمر ". ويستخدم الباص العمومى مجازاً للتعبير عن حالات التحرش البالغ الفظاظة التى يعتقد أنها تحدث على نحو نمطى فى هذا النوع من المواصلات الرخيصة. ورغم أن الباصات جزء من الروتين اليومى لمعظم القاهريين من الرجال والنساء فقد أخبرنى معظم النساء من الطبقة المتوسطة العيا بأنهن لم يدخلن باصًا عموميًا، قط، ولن يدخلنه، أبدًا. والوسيلتان المقبولتان للنقل العمومى وقت إجراء هذا البحث كانتا خطوط الخدمة الجديدة للباصات المكيفة الهواء (جنيهان مصريان، نصف يورو)(*) التى يحد تصميمها وتسعيرها من الاقتراب العابر للطبقة، ومترو الأنفاق، حيث خصصت عربتان للنساء فقط.

وقصص التحرش فى المواصلات العامة كثيرة. ورغم أن شائعة سائق التاكسى القاتل كانت مبالغًا فيها، على نحو خاص، فهى تناسب المخزون الأكبر من الحكايا المشابهة. فقد سمعت عدداً من التقارير عن مخاطر المينى باص والميكروباص، والتى تحكى جميعًا عن رجال يرقبون فرصة التحرش بالنساء اللاتى يتحركن دون رفقة. وتعبر هذه الحكايا عن مشاعر عميقة بالخطر الذى يتربص بالشابات اللائى يتحركن وحدهن فى الفضاء المدينى للقاهرة. ويتركز القلق حول حركة المرأة على مرورها دون أذى عبر الفضاء العام. ليس حضور هؤلاء النسوة فى المشهد العام هو الذى ينظر إليه كإشكالية ولكن الاهتمام ينصب أكثر على نوع المخاطر التى تنشأ عن الظهور فى المشهد العام. وهذه كلها أخطار مجنسة تهدد الطهر الجنسى للمرأة وتهدد احترامها (فادكى ٢٠٠٧: ١٥١٦). ويقال إن القاهرة آمنة، بشكل عام، لكن المخاوف من العنف الجنسى، خاصة الاغتصاب، هى مخاوف شائعة. وفيما يعد الاغتصاب المهانة

(*) راجع الأسعار وأسعار الصرف الحالية – المترجم.

القصوى، فمجرد نظرة يمكن أن تؤذى وتحقر الجسد الأنثوى الطاهر الذى لم يعبث به والمجنس على نحو لائق.

وتعرض الحاجة إلى استخدام المواصلات العامة أو إلى المشى فى الشوارع الروتين الراسخ لنساء الطبقة المتوسطة العليا وأساليب الحياة المفضلة لديهن للتجاوزات وللأخطار المجنسة العديدة التى يعتقد أن المشهد المدينى للقاهرة يحتوى عليها. وقد علقت هدى بأنها اضطرت لتغيير أسلوبها فى الملبس عندما تغير عنوان سكنها بالزواج. ولأنها تأخذ الآن سيارة أجرة من البيت لمحطة المترو التى تقع فى حى شعبى، فقد توقفت عن ارتداء ملابس ضيقة وماكياج واضح لتجنب الانكشاف الزائد الذى قد يستثير التعليقات. وقالت " ليس بوسعك ارتداء ملابس مهنية، مثل التنورة، مالم يكن لديك سيارة ". وشكت من أنها لم تعد قادرة، نتيجة لذلك، على تصوير نفسها بصورة امرأة مهنية ذات مسار وظيفى. وقد أصبحت السيارة بالنسبة لكثير من نساء الطبقة المتوسطة شيئًا لا غنى عنه، وإن كان بالنسبة للبعض لا يمكن الحصول عليه. فالسيارة تسمح لهن أن يلبسن على النحو الذى يفضلنه وأن يعشن طبقًا لأدوارهن كممثلات كوزموبوليتانيات خبيرات للجيل الجديد فى مصر. والسيارة تحميهن، أيضًا، من اللقاءات غير المرغوبة، ويمثل التاكسى خيارًا مفضلاً، وإن كان مكلفًا، لكثير ممن لا يملكن سيارة.

وبعكس حكايا الخطر والتحقير التى تحيط بالنقل العام، أصبحت السيارة، على هذا النحو، رمزًا لعالم كامل من الحياة المهنية ولتقديم الذات وللاجتماعيات المحترمة، وضامنًا لها. وبالإضافة إلى الحماية المادية، فالسيارة تؤمن تأطيرًا متحركًا للذات يؤكد موقعًا طبقيًا معينًا، قريبًا من التأطير الفضائى الثابت فى الكوفى شوب الراقية.

وكما لاحظ شريف وهو رجل من الطبقة المتوسطة فى أواخر ثلاثينياته فإن " المرأة التى تركب التاكسى تبقى متصلة بالشارع. سوف يتعين عليها أن تعود إلى الشارع ويمكن بالتالى أن تتعرض للمغازلات. ويمكن للمرأة فى سيارتها الخاصة أن تلبس

ثيابها على النحو الذى تريد. ولن يتحرش بها أحد ". وتعتمد أساليب الحياة العامة لنساء الطبقة المتوسطة العليا الشابات على القدرة المالية التى تيسر الجلوس فى أماكن معينة واستخدام وسائل مواصلات معينة لكى تقتصر حركتها، باختصار، على الأماكن الراقية فى القاهرة. وكما يلاحظ آرمبراست فى مناقشته لتردد القاهريين على دور السينما.

يتزايد ارتداء الحجاب بين النساء اللائى ينفقن جانباً كبيراً من وقتهن فى الأماكن العامة، سواء بالاختيار أو وفقًا للضرورات. وتميل نساء العائلات الميسورة إلى ارتداء الحجاب بمعدل أقل. فهن، على كل حال، محميات من الظهور العلنى بما لديهن من قدرة أكبر على الوصول للتكنولوجيا (التليفونات، وخاصة السيارات أكثر من المواصلات العامة) وبفضل المؤسسات الأكثر حصرية التى يترددن عليها (آرمبراست ١٩٩٨: ٤٢١).

وهو يشير إلى مثال على دور السينما الراقية مثل دار العرض فى هيلتون رمسيس. ويكتب قائلاً " بالنتيجة فالدار نفسها تعمل عمل الحجاب الطبقى فدار العرض فى هيلتون رمسيس، على وجه الخصوص، مشيّدة ومسعّرة على نحو يستبعد الجميع باستثناء الأكثر ثراء. وبأسعار تتراوح بين ٧٫٥ و٢٠ جنيهًا مصرياً(*) فهذه الدار أغلى من أن يقدر على دفع أجر الدخول إليها معظم الناس... ويمكن للمرء أن يذهب للمبنى بالسيارة، وأن يصل إلى الطابق الأعلى بالمصعد، ثم يخرج عبر المسار ذاته، دون أن يتعرض للشارع " (آرمبراست ١٩٩٧: ٤٢٧). وقد توجت السيارة المحاولات لخلق بيئة محكومة. فهى تنقل النساء، دون أن يتعرضن لأذى أو لمداخلات غير مرغوبة، من فضاء آمن إلى الذى يليه.

(*) راجع الأسعار الحالية – المترجم .

وقد رسمت نهال صورة تبسيطية لنموذجها الأعلى للشابة من الطبقة المتوسطة العليا: تقود عربة شيروكى نوافذها المغلقة ذات زجاج داكن، وجهاز التكييف يعمل، وهى تتحرك من مكان لمكان لا يحكمها إلا المعايير الخاصة بها من حيث التهذيب والعلاقات الاجتماعية. وتبدو هذه الصورة صادقة تمامًا. فقدرة كثير من نساء الطبقة المتوسطة العليا على ممارسة أساليب الحياة وأنماط العلاقات الاجتماعية وتقديمهن لأنفسهن، على النحو المفضل لديهن، تعتمد على هذا النوع من الانغلاق والسيطرة الطبقيين فى بيئتين. وعند التحرك فى أنحاء القاهرة فى صحبة هؤلاء المهنيات الشابات يبدو أن خريطة المدينة تنكمش لتشمل، فقط، تلك المناطق التى تسودها أساليب الحياة التى يتميزن بها: المناطق الراقية فى المهندسين والزمالك والمعادى ومصر الجديدة. ويعتمد المرور الآمن بين هذه المناطق على الطريق الدائرى، وعلى الجسور العلوية وعلى الطريق الذى يصل الآن بين هذه المناطق المختلفة، مما يسمح بالحركة من أى جزء من أجزاء القاهرة الراقية إلى ما يليه، دون حاجة إلى النزول إلى الفوضى والازدحام والفقر التى تميز الفضاءات القاهرية الأكثر فقرًا. وبالنسبة للبعض، فإن الفضاءات خارج هذا الاقتصاد ذى البعد الطبقى المحدد صارت واقعًا غامضًا وبعيدًا. فتلك الفضاءات الأخرى تحمل مؤشرات على أنها قذرة، مليئة بالبكتيريا وبالمخاطر الصحية، وبأناس غير مريحين، وبالتحرش. وبعض هذه الفضاءات خارج القاهرة الراقية مثل قطاعات الإسكان الشعبى أو غير الرسمى (عشوائيات، انظر بايات ودينيس ٢٠٠٠) هى أماكن لا تزار أبدًا، إلا بالمصادفة، عندما يضل المرء طريقه ويضيع فى منطقة عشوائية مثل دار السلام، المليئة بأخطار مجهولة لكنها متربصة.

مخاوف الجندر والأداء الطبقى الهش

[لم تحلم بنات الأرستقراطية الراقية] إلا بإقامة دائمة فى الخارج، فقد كن يعشن محاطات بأجهزة إلكترونية ويرفضن الخروج إلى الشوارع ويخشين الاتصال بكل أولئك

الفقراء السارحين على الأرصفة حتى لا يونونهن. كن يخرجن فى السيارات، فقط، ليذهبن إلى مؤسسات حصرية مغلقة: مطاعم، أو دور سينما، أو بلاجات يثقون بأنهم لن يلتقوا فيه بأحد من العامة.

كن محقات. فحيثما ذهبن، توتر الجو. كان جمالهن يكاد يكون فوق المسموح. وحتى إن ضحكت الفتيات بكل حشمة، بدا الأمر أشبه باستفزاز. وعندما كن يزحن شعورهن إلى أعلى، كانت الإيماءات تحمل بشحنة شهوانية. وكانت الأثداء النافرة تحت قمصانهن تحدث من الفوضى أكثر مما تحدثه الأسلحة الآلية. وخدودهن الشفافة كانت تبدو وكأنها خلقت للقبل.

رشيد ميمونى (١٩٩١ : ٨١)

هذا المقطع مأخوذ من *Une peine á vivre* وهى رواية عن حياة ديكتاتور فى بلد لم يُذكر اسمه كتبها الأديب الجزائرى رشيد ميمونى. وهى تصف حياة نساء فى موقع أكثر تميزاً من حياة النسوة اللاتى اعتمد هذا الفصل على مسيراتهن الحياتية. لكن الرواية تصور حالة مشابهة، على نحو قريب، حيث مخاوف النخبة وقلقها من الأماكن الأقل حصرية وممن يسكنونها تمتزج بالحقائق اليومية المتشظية لمدينة مقسمة. فمعايير النخبة تتصادم، على نحو متصاعد، مع قيم غيرهم من ساكنى المدينة، وهو ما يؤكد استحالة " الخروج إلى الشوارع ". وكما كتب ميمونى، فهن محقات فى عدم مغاردة محيطهن الحصرى. فحتى أبسط إيماءة يمكن أن " تقرأ قراءة خاطئة " فتخلق الفوضى، وتؤدى إلى التحرش والتحقير لتجسيدات الأنوثة النخبوية التى هى طاهرة ومحترمة، فى بعدها عن هذه الحالة.

وفى الفضاءات الكوزموبوليتانية الصارخة التى بقيت، رغم ذلك، محترمة، فى الكوفى شوب، يظل الاحترام الجنسى الأنثوى بؤرة مركزية للقلق والتدافعات. ويكرر هذا التركيز على الاحترام الأنثوى المركزية الأقدم لخروج المرأة إلى العلن فى المعارك الجدلية المطولة حول الحداثة كنقيض للأصالة، والسيطرة الاستعمارية كنقيض للتحرر الوطنى، والعلمانية الغربية ضد حداثة إسلامية (انظر ابو لغد ١٩٩٨، أحمد ١٩٩٢،

آرمبراست ١٩٩٩). وعند التحرك إلى خارج هذه الفضاءات الراقية الآمنة ينتقل التركيز من التفاوض حول الأنوثة المهنية إلى القلق على المرور دون أذى عبر فضاء حضرى ملئ بأخطار ملوثات مجنسة.

ورغم أن الوضع الطبقى لمعظم نساء الطبقة المتوسطة العليا يعطيهن قوة معينة فى مواجهة الامتيازات الذكورية فى الشوارع، فمعظم نساء الطبقة المتوسطة العليا بين من عرفت يفضلن اللجوء إلى الإستراتيجية الموثوقة للانغلاق الطبقى لضمان مرورهن الآمن عبر الفضاءات العامة فى القاهرة. فمساراتهن تعتمد، كلها، على الخرائط الطبقية. وهذا يشير إلى تناقض مهم فى صميم حركيتهن العالية وأساليب حياتهن الأشد ميلاً إلى العلنية: فشرط الإمكانية لديهن هو الانغلاق الاجتماعى، تجنب أى إزعاج، والقدرة على تفادى الاتصالات غير المرغوبة. وفى فضاءات القاهرة الراقية فقط يمكن أن يكن " براحتهن " فيلبسن ويمارسن الطقوس الاجتماعية وفق ما يرينه مناسبًا، دون أن يتعرضن لإزعاج أو أن ينظر إليهن باعتبارهن سيئات السمعة. وتنطوى الفضاءات الأخرى على خطر سوء السمعة الذى يمكن أن يلحق بنساء من الطبقة المتوسطة العليا المحترمات، وعلى خطر التحقير الذى يتمثل فى تحديقات من رجال دون المستوى وفى لمسات غير مرغوبة.

والأخطار التى تتمثل فى الخروج إلى الساحة العامة بالنسبة للجسد الأنثوى المنتمى للطبقة المتوسطة العليا هى رمزية ومادية، فى آن معًا. فالمرأة المحترمة يعرف عنها أنها تملك جسداً طاهراً، مجنسًا على نحو لائق. وكما يسهل إعطاب أو تدمير سمعة نساء الطبقة المتوسطة العلياء فيمكن لأجساد الطبقة المتوسطة العليا، وبسهولة، أن يلحق بها الأذى والتحقير. والشعور بالتميز الذى ينبعث من هذا الحضور الأنثوى كتجسيد لمشروع طبقى كوزموبوليتانى صارخ يكافئه شعور قوى بالهشاشة والخطر. وتدفع سيكور بأن " حكايا الفضاء، سواء كانت تتتبع تكتيكات الغفْلية أو إستراتيجيات

الهوية يجب... النظر إليها كسرديات سياسية تعمل عبر شوارع المدينة " (٢٠٠٤: ٣٦٣).

وتشهد التفاوضات حول المدينة، كما نوقشت فى هذا الفصل، على وجود نوع من التدافع السياسى. وقد أصبحت الأجساد المؤنثة من الطبقة المتوسطة العليا ميدان معركة مركزيًا لتشكيلات وتدافعات طبقية جديدة، تجسد، بشكل حرفى، كلا من القوة والهشاشة لدى الطبقة المتوسطة العليا فى العصر الليبرالى الجديد فى مصر.

وكما بينت دراستى عن الفضاء الآمن فى الكوفى شوب، فكثير من مسارات هؤلاء النسوة الحضريات يعتمد على فضاءات محددة طبقيًا تخصهن هن. وبهذا المعنى فهن يستخدمن ما يعتبره ميشيل دى سيرتو إستراتيجيات مسيطرة. إنهن يعتمدن على انتمائهن للنخبة وعلى القوة الاقتصادية للوصول إلى الفضاءات المغلقة اجتماعيًا فى القاهرة الراقية. وهذه الفضاءات بدورها، تعتمد على حضورهن لدعم مركزها الراقى ومؤهلاتها الكوزموبوليتانية. وبالمقابل، فإن حركة هؤلاء النسوة عبر الفضاءات ذات البعد الطبقى الأقل تحديدًا تقترب من فكرة دى سيرتو عن التكتيكات التى تستهدف خلق مساحة مؤقتة للمناورة. وفى مقابلات كهذه، يبدو الظرف معاكسًا لهؤلاء النسوة، رغم مراكزهن الطبقية المستقرة. فالتعريفات المجنسة على نحو صارخ للأنوثة فى العلن وما يلازمها من أخطار التحقير وما ينسب إليها من انعدام التهذيب – تضعف من قدرتهن على المرور دون أذى عبر الفضاءات العامة. وعوضًا عن التوافق مع بعض الثنائيات التى حددها دى سيرتو فإن ممارساتهن الفضائية تظهر على هذا النحو تذبذبًا بين الجمود والحركة، بين الإستراتيجيات والتكتيكات، بين القوة والعجز، بين الدائم والمؤقت (انظر سيكور ٢٠٠٤ من أجل نقد ذى صلة).

ويتعين أن تتموضع هذه التوليفات من التكتيكات والإستراتيجيات فى إطار المشهد الحضرى المتحول للقاهرة فى العصر الليبرالى الجديد فى مصر. وتعكس الاتجاهات إلى الانغلاق والفصل الاجتماعيين اعتمادًا متزايدًا على فضاءات " تخصهن

" تؤمن قواعد إستراتيجية لتنفيذ إستراتيجيات النخبة. وهذا النوع من إستراتيجيات الانغلاق الطبقى هو فى كل مكان فى القاهرة الراقية. ويدفع إيريك دينيس بأن السياسات الحضرية الجديدة فى القاهرة موجهة إلى استئصال التنوع والمغايرة والتجاور (٢٠٠٦: ٦٧).

وبالإحالة إلى مشروعات التنمية الحضرية فى ساو باولو تدفع تيريزا كالديرا بأن الاتجاه إلى خلق فضاء للمسافة الاجتماعية الفاصلة يتصل بـ " عجز (السكان الأكثر تميزًا) عن فرض رواميزهم السلوكية - بما فيها قواعد التمايز على المدينة " (٢٠٠٠: ٣١٩). وهذا التخليق لفضاء المسافة الاجتماعية الفاصلة هو إستراتيجية متزايدة الشيوع بين النخبة فى القاهرة. وكما يزعم فينسنت باتيستى فإن " نقد الحدائق العامة غالبًا ما يكون قاسيًا بين ممثلى الشرائح الأكثر ثراء فى المجتمع، الذين يعبرون عن الأسف بسبب " غزو " الجماهير التى " لا تعرف كيف تتصرف، والتى هى غير محترمة " للفضاءات العامة... وعندما بدأت الطبقات الشعبية تخرج، احتمت الشرائح القاهرية الثرية بفضاءات الترفيه الحصرية وفى المجتمعات ذات الأسوار " (٢٠٠٦: ٥٠٣). وبما أن الطبقة المتوسطة العليا والنخبة فى القاهرة تمثلان أقلية فى المشهد المدينى، وفوق ذلك ليس بوسعها ضمان الاحترام فى الفضاءات العامة الأقل تحديداً من الناحية الطبقية، فإن تأمين أساليب حياتهم وفضاءاتهم المائزة يتحقق بالانغلاق.

وفيما تنطبع أشكال جديدة من التشظى والفصل على الخرائط الحقيقية والمتخيلة للمدينة، فإن الصحراء المحيطة بها تصبح حدوداً جديدة يمكن فيها تحقيق أحلام القاهرة العولمية الجديدة بأكثر الأساليب بذخًا (دينيس ١٩٩٧، ٢٠٠٦، ميتشيل ١٩٩٩).

وفى أماكن كثيرة فإن تزايد معدلات الجريمة يمثل بؤرة المخاوف الاجتماعية التى تصحب التفاوتات الاجتماعية المتنامية، وتضفى الشرعية على كل أشكال الانغلاق فى المشهد الحضرى (انظر، مثلاً، كالديرا ٢٠٠٠، لو ٢٠٠١). وفى القاهرة تعد السرقات

محدودة نسبيًا. وبدلاً من ذلك، تؤمن الاختلافات ذات الأساس الثقافى، خاصة تلك التى تتعلق بالجنوسة والجندر، مبررًا قويًا للمخاوف الاجتماعية ولمحاولات الاحتفاظ بمسافة اجتماعية فاصلة أو تأسيسها. والتباينات الخلقية والثقافية المفترضة هى بؤرة القلق وهى التى ينشأ عنها الميل إلى الانزواء الاجتماعى والفضاءات المتجانسة طبقيًا. وتتأسس أساليب الحياة المائزة للنساء اللاتى عرضت لهن فى المناقشة على الإقصاء. فهذه الأساليب تضفى شرعية على الفصل وعلى السياسات والممارسات القمعية إزاء القاهريين الأقل تميزًا. وتعبر شيلبا فادكى (٢٠٠٧) عن رؤية ثاقبة بقولها إن ما يقال عن ضعف نساء الطبقة المتوسطة وخطر الرجال من الطبقة الأدنى يساهم فى إقصاء كل من نساء الطبقة المتوسطة ورجال الطبقة الأدنى عن الفضاءات العامة فى مومباى. وبالمثل، فإن الدفوع حول السلوك المجندر والحاجة إلى حماية نساء " الطبقة الراقية، فى القاهرة، يمضى باتجاه إضفاء المشروعية على مشهد مدينى انفصالى.

ويمكننا، بالنهاية، أن نعود إلى شائعة القاتل المتعدد الضحايا الذى يستخدم سيارة التاكسى فى ارتكاب جرائمه فى مصر الجديدة وما حولها. فهذه الشائعة يمكن أن تقرأ كنسخة مبالغ فى مأساويتها من التباس الحضور العام للشابات من الطبقة المتوسطة العليا من المهنيات، وأميل أنا إلى القول بأنها تصور مدى تحول هذا الحضور إلى بؤرة صراعات طبقية محتدم. ويمثل سائق التاكسى الذى أصبح قاتلاً كل كوابيس هؤلاء النسوة. فالتاكسى يجسد لقاءً آمنًا بين المائزين وغير المائزين، حيث يقدم رجل من طبقة أدنى الوسيلة اللوجستية لأساليب الحياة العامة لزبونة من نساء الطبقة المتوسطة العليا. وفى تحول سادى مفاجئ ينقلب سائق التاكسى ضد المرأة التى يفترض فيه أن يخدمها، ليظهر حقيقته كشخص خطير على نحو مميت. فالتاكسى الذى كان يفترض أنه سيحمل هؤلاء النسوة، بأمان ودون أذى، عبر الفضاء العام يصبح منطقة خطر والرجل المنتمى لطبقة أدنى الذى يفترض فيه أن يقدم خدمة يصبح قاتلاً متعدد الضحايا. وردود الفعل المذعورة والمحاولات المستميتة لتحذير المعارف

والصديقات لها مغزاها. وقد رفضن أن يصدقن البيانات التى أعلنتها الحكومة نافية وقوع الأحداث البشعة؛ لأن قصة القاتل المتعدد الضحايا تتناغم مع مخاوف كامنة حول هشاشة تفاوضهن مع الفضاء العام.

وكما حدث من قبل، فإن الممارسات المجندرة ذات الطابع الطبقى المحدد تؤمن ميدان معركة مركزيًا للتدافعات حول انعدام المساواة. ويجسد الحضور العام لنساء شابات ميسورات واحدًا من أبرز التمثيلات للتشكيلات الطبقية المتحولة فى المشهد الحضرى. ويمكن أن يمثل ظهورهن فى العلن سببًا للشعور بمظالم جديدة، تمامًا كما أنه بالنسبة للقاهريين الموسرين يؤخذ رد الفعل المخوف من رجال الشارع سببًا لإضفاء الشرعية على المزيد من تجنب الفضاءات المفتوحة اجتماعيًا وعلى المشهد الحضرى الذى يتزايد طابعه الإقصائي والمتشظى.

خلاصة

أحلام عولمية وأزمات بعد كولونيالية

العثور على هويتنا: بحث عن الشباب المصرى " الحقيقى"

بدأ كل شىء بزيارة إلى بائع السجق زيزو فى السيدة زينب (الحى الشعبى القديم القريب من وسط البلد)[٥١]... أنا... لم أستطع أن أمنع نفسى من التساؤل " هل مخاطرتى بزيارات غير منتظمة لتناول ساندويتشات سجق زيزو مصحوبة بعصير القصب تصنفنى ضم الممثلين " الحقيقيين " للشباب من شعب مصر؟ "

لقد تسنى لى أن أخبر أشياء لم تخبرها إلا نسبة مئوية ضئيلة وغير ذات قيمة من شباب مصر، وهو ما لا يصنفنى، بالتأكيد، ضمن الممثلين الحقيقيين للشباب المصرى، فمن ذا الذى يمثلهم؟... بناء على تخميناتى الشخصية وحدها فإن الممثلين " الحقيقيين " للشباب المصرى هم أولئك الذين ينتمون إلى الطبقة الاجتماعية المتوسطة الدخل، الذين تعلموا فى مدارس وجامعات حكومية، وعرفوا أساليب الحياة المختلفة للطبقة الاجتماعية ذات الدخل الأعلى وللطبقة الاجتماعية ذات الدخل الأدنى، معًا. أولئك الذين يدرسون ليل نهار بهدف تحسين حياتهم، ثم يتخرجون فيقبلون بأى وظيفة تتاح لهم. أولئك الأكثر إخلاصًا للبلاد وإن كانوا قد فقدوا كل أمل فى تقدمها.

وأمل البلاد الوحيد فى النجاة هو فى هؤلاء الذين تسنى لهم امتياز العيش الكريم والذين أعطوا كل الأدوات الضرورية للتحرك إلى الأمام بهذه البلاد (التعليم المناسب، الثروة، السلطة، العلاقات)... أليس تناقضًا أن الطبقة الاجتماعية الوحيدة

التى بوسعها أن تنمى هذه البلاد هى الطبقة الوحيدة التى يبدو أن لديها أقل معرفة بها؟!؟

مى الخشن / مجلة كامبوس، يونيو ٢٠٠٤، ص ٣٤ - ٣٦

هذه المقالة التى نشرت فى واحدة من المجلات الإنكليزية العديدة التى ظهرت فى القاهرة. فى مطلع القرن الحادى والعشرين، تعالج مسألة الانتماء فى بلد تفرقت مصائره. وعلى خلفية أمة منقسمة فإن الكاتبة المنتمية لطبقة عليا تسأل: من الشباب المصرى الحقيقيون؟ ليس مدهشًا أن تبرز قضايا الانتماء والهوية الوطنية فى مدينة يتزايد تشظيها وتتسم بتفاوتات اجتماعية زاعقة، حيث الانقسامات المتزايدة القوة تلتهم الطبقة المتوسطة المهنية التى كانت لها قيمة رمزية عليا، فى وقت ما. ويستدعى تساؤلها كثيرًا من التيمات التى ناقشتها بخصوص قاهرة الطبقة المتوسطة فى العصر الليبرالى الجديد فى مصر.

ويستدعى بحث الخشن عن الشباب المصرى الحقيقى إلى الذاكرة الحداثة المحافظة للسرديات الناصرية عن التقدم الوطنى. ومثل هذه السرديات، تفترض أن الممثلين الحقيقيين لمصر هم المهنيون الشباب من الطبقة المتوسطة " الذين تعلموا فى مدارس وجامعات حكومية... أولئك الذين يدرسون ليل نهار بهدف تحسين حياتهم". لكن ممثلى الطبقة المتوسطة الناصرية هؤلاء يجرى تهميشهم بمعدل متصاعد وهم "يتخرجون فيقبلون بأى وظيفة تتاح لهم". ووفقًا لخطوط السرديات الوطنية للعصر الليبرالى الجديد فى مصر، فهى تصطفى القاهريين الميسورين من أمثالها كطليعة اجتماعية، باعتبارهم جيل المستقبل فى مصر. فبفضل خلفياتهم المائزة، هم الوحيدون القادرون على المضى قدمًا بالبلاد، كما تقول، لكن لا يبدو أن لديهم المعرفة أو الالتزام الضروريين لتولى هذا الدور القيادى.

ومحاولة الخشن اكتشاف ممثلى الشباب المصرى الحقيقيين تأخذها فى جولة عبر المشهد المدينى المتشظى للقاهرة. وفى حين تمثل فضاءات القاهرة الراقية الخلفية الواضحة لحياة القاهريين الميسورين مثلها، فإن أماكن أخرى فى المشهد المدينى المقسم فى القاهرة تبرز باعتبارها الرموز العليا للأصالة والاختلاف الذى يكاد يكون غرائبيًا(*) فأحياء الطبقة العاملة القديمة مثل السيدة زينب تصبح موئل أصالة السجق وعصير القصب - وهى أصالة يمكن حتى لشخص من الطبقة المتوسطة العليا أن يشارك فيها من باب المغامرة. لكن أحدث صور الحداثة فى مصر موجود فى موضع آخر، فى الفضاءات المعزولة اجتماعيًا فى القاهرة الراقية.

إصلاح الطبقة المتوسطة

بعد ثورة ١٩٥٢ كان يتعين أن تصبح الطبقة المتوسطة الموسعة عماد الأمة المصرية الحديثة والعادلة التى نالت استقلالها. وكان المهنيون الطالعون من الطبقة المتوسطة فى القاهرة أول المستفيدين من التوسع فى الخدمات العامة والتوظيف فى عهد عبد الناصر. وفى تسعينيات القرن العشرين أكد خطاب الدولة، بالمقابل، الحاجة إلى اللحاق بالمعايير القياسية العولمية فى ضوء المنافسة العالمية. وبالتوازى مع مراجعة المشروع القومى أعيدت صياغة العقد الاجتماعى الناصرى بين الدولة والسكان، بالتدريج. وشهد العقد الأخير تراجع أهمية المؤسسات العامة والخدمات وقوانين الرفاه الاجتماعى التى تعود للعهد الناصرى، مع ما صحب ذلك من نشوء تشكيلة واسعة من البدائل الخاصة. وقيل إن القطاعات العامة من سوق العمل والتعليم تدهورت بشكل لا يمكن إصلاحه. وبالنسبة لمن يملكون القدرة على الاستغناء عن الترتيبات والمؤسسات

(*) exotic وهذه نظرة المستشرقين للشرق وأهله - المترجم).

العامة فإن ما هو " عام " أصبح كابوساً لا علاقة لهم به، يتجسد فى الباصات العامة، ومكاتب الحكومة، والمدارس الحكومية. وخلقت الخصخصة، أيضًا، تقسيمات جديدة داخل المؤسسات الحكومية، لتؤسس فضاءات ذات بعد طبقى محدد، عامة لكن الوصول إليها مقصور على فئات بعينها. ففى الجامعات الحكومية فى القاهرة تؤمن كليات القمة وأقسام اللغات مسارات حصرية ومائزة للطلبة الذين درسوا فى مدارس لغات. وبالمثل فإن مكاتب الحكومة تضم حزرا مائزة تستخدم مهنيين من الطبقة المتوسطة العليا لأداء وظائف لا يمكن أن يعهد بها لبيروقراطية العمالة الزائدة ذات الأجور المتدنية. لقد أصبحت الطبقة المتوسطة القاهرية منقسمة، على نحو متزايد، بين أولئك الذين بوسعهم دفع نفقات الترتيبات الخاصة فى كل مجالات الحياة، وغيرهم ممن يتعين عليهم اللجوء إلى نظائرها الحكومية التى غالبًا ما تكون متردية ومتراجعة. وتدور هذه التقسيمات حول " المحلى " مقابل الكوزموبوليتانى من التوجهات والمؤهلات.

وفى حين يواصل نظام التعليم العام الذى صاغته سياسات العهد الناصرى تعليم نسبة عالية، نسبيا، من السكان حتى المستوى الجامعى، فإن سوق العمل لم يعد يجود على خريجيها بأساليب حياة الطبقة المتوسطة. فالنظام الذى كان القصد من إنشائه إنتاج طبقة متوسطة حضرية واسعة - عماد الأحلام والطموحات الوطنية - يخرج الآن خريجين زائدين عن الحاجة لم يعد بوسعهم أن يعينوا فى جهاز بيروقراطى مكدس بالفعل. وبدلاً من ذلك أصبح هؤلاء الخريجون العاطلون أو الذين توظف جزء منهم مستهدفين بالإصلاح. فهناك برامج خاصة تهدف إلى توجيههم بعيداً عن الوعود السابقة بحياة الطبقة المتوسطة النظيفة، وباتجاه الطريق غير الآمن للمشروع الصغير، لكن الحقوق الاجتماعية المكتسبة والاستثمارات الشخصية فى السرديات الوطنية الأقدم لا تتيسر تنحيتها جانبًا بسهولة. لقد واصلت بيانات حكومية كثيرة استخدام إشارات إلى العقد الاجتماعى المصرى القديم، فى حين قوبل إلغاء الحقوق الاجتماعية الراسخة باستنكار بالغ وعارضه المستفيدون القدامى. وفى الوقت ذاته فإن

الإستراتيجيات الفردية والعائلية تنم عن إصرار خفى على التحول إلى طبقة متوسطة والإبقاء على الانتماء إليها، برغم الإلحاح عليهم لاستثمار أموالهم وأوقاتهم وجهودهم فى اتجاهات أخرى.

وتجد المؤسسات التربوية ذات الطابع المحلى الواضح والدرجات العلمية لدى المهنيين من الطبقة المتوسطة الدنيا نظائرها فى المؤسسات الحصرية الخاصة الطالعة التى تزود أطفال الأسر الأكثر ثراء برأسمال كوزموبوليتانى مهم. فأولئك الذين يملكون رأس المال الكوزموبوليتانى والخلفية العائلية الميسورة يكون بوسعهم التطلع إلى وظائف فى الشركات والمؤسسات الراقية، فى حين تترك المؤهلات " المحلية " والأوساط العائلية الأقل يسراً، التى تم تخفيض قيمتها، معظم القاهريين من الطبقة المتوسطة ليواجهوا سوق عمل غير مستقر وضيقا ولا يقدم إلا وظائف غير مستقرة وفى أغلب الأحوال غير مجزية. وتتجسد تجاوزات العصر الليبرالى الجديد فى القاهرة فى الشخصيتين التوأمين لعملاق الأعمال العاجز عن سداد ديونه والخريج المتعطل الذى يخاطر بإنشاء مشروع صغير بقرض من الصندوق الاجتماعى للتنمية. أما الصورة الأكثر اعتيادية لخريج من طبقة متوسطة دنيا يخدم أقرانه المائزين فى كوفى شوب راق فتعكس حقائق الواقع اليومى فى قاهرة الطبقة المتوسطة.

وتتوازى هذه التحولات مع سرديات وطنية، يتزايد طابعها الحصرى، تركز على المنافسة على الساحة الكونية وعلى الحاجة إلى الالتزام بالمعايير القياسية والمؤهلات العالمية. وقد تحولت الاستثمارات، فى العصر الليبرالى الجديد فى مصر، إلى مشروعات ضخمة للبنية الأساسية ولمشروعات الاقتصاد الجديد فى محاولة لاقتناص حصة من التجارة العالمية. ويناسب المهنيون من الطبقة المتوسطة العليا بما لديهم من رأسمال كوزموبوليتانى بين الموظفين فى أماكن العمل ذات التوجه الدولى هذه السردية الوطنية وهذا المشروع الوطنى. وهم يصورون بصورة الوسطاء بين المحلى والعولى، ممثلى مصر الحديثة ذات الخبرة الكوزموبوليتانية القادرة على مواجهة

التيارات المتلاطمة للعصر العولى. وينطوى رأسمالهم الكوزموبوليتانى على مزايا مهمة. فهو يؤمن الوصول لوظائف راقية وإلى تنويعة تتسع بمعدل سريع من أماكن الاستهلاك الراقية، ويشير إلى الانتماء إلى القاهرة الراقية. لكن القطاع الراقى من الاقتصاد، ذلك القطاع الذى يستخدم هؤلاء المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا ظل محدوداً فى حجمه وشديد الاعتماد على تجربة مصر الهشة فى الاقتصاد " الليبرالى ". فالأزمة التى ابتلى بها الاقتصاد المصرى منذ عام ٢٠٠٠ قد كشفت عن هشاشته. خشى كثيرون من فقدان وظائفهم وظلوا حريصين على التشبث بوظائف أظهرت خبرتهم بها أنها مستنزفة للوقت والجهد وقليلة العائد أو غير مجزية. وفى دوائر الطبقة المتوسطة العليا نشأ عن الانكماش المتفاقم لسوق العمل وعدم استقراره وما ترتب على ذلك من احتدام التنافس على الوظائف الراقية سباق على المؤهلات الأفضل والأكثر حصرية.

خلق فضاءات للإصلاح

لعبت القاهرة، عاصمة مصر ومدينتها الرئيسية ومركز الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية فى البلاد والنقطة الرئيسية فى شبكاتها الدولية، دوراً مركزياً فى تحقيق المشروع النيوليبرالى فى مصر. ويعكس الطابع الخاص للقاهرة، بناطحات السحاب فيها والسيارات الباذخة، والبريق، هذا الدور المركزى، وتتصاعد هيمنة دوائر الاستهلاك والإنتاج الراقيين(*) – المتميزة بإحالات كوزموبوليتانية صارخة وبأسعار مرتفعة تتماشى مع هذه الإحالات – فى المناطق القاهرية الأكثر ثراء. فقد وصل بها الأمر إلى أنها أسست قاهرة راقية وسط محيط تم إهماله إلى حد كبير. هذه القاهرة الراقية مكرسة لقسم صغير من أهل المدينة ومعمورة بهم، وبين أعضاء هذا

(*) لاحظ أن المؤلفة وضعت الاستهلاك قبل الإنتاج، فى ترتيب له مغزاه – المترجم .

القسم الصغير يوجد المهنيون من الطبقة المتوسطة العليا. وقد أصبحت أساليب الحياة الكوزموبوليتانية الصارخة، وفى حدود الضوابط (الدينية) للطبقة المتوسطة العليا علامات مهمة على الانتماء إلى الطبقة المائزة. وفى دوائر الطبقة المتوسطة العليا، فإن هذه الطموحات والإحالات الكوزموبوليتانية أصبحت، فى آن واحد، معيارية ومبررة ذاتيًا. وفوق ذلك، فقد أصبحت أساليب الحياة الكوزموبوليتانية لدى الطبقة المتوسطة العليا نموذجًا لأساليب الحياة المثالية، بل للقياسات المعيارية فى الإعلانات وشرائط الفيديو الموسيقية والأفلام السينمائية التى تصور مصر الفتاة، الحديثة. وقد تشكلت هذه الهيمنة فى إطار تكامل مصر، قائم على التبعية، فى شبكات اقتصادية متنوعة، أهمها برامج التكيف الهيكلى التى حفزتها هيئة المعونة الأمريكية والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى.

ومحال الكوفى شوب الراقية التى ناقشتها بتوسع هى جزء من القاهرة الراقية، لكنها تمثل، وبتحديد أشد، حضوراً مدينيًا لطبقة متوسطة عليا شابة ناشئة. وقد كان لهذه الفضاءات الاجتماعية ولاجتماعياتها المختلطة الجندر حضور جنينى فى الممارسات الاجتماعية للطبقة المتوسطة العليا، فى مناطق الشغل والدرس وكذلك فى مخيال الخارج (بره) والرغبة فيه، فى عالم أول خارجى غامض الأقلمة. ومنذ تسعينيات القرن العشرين وما بعدها، أمدت هذه الفضاءات الاجتماعية المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا بفرص جديدة للاجتماعيات، وللعثور على شريك العمر، وبغير ذلك من أشكال التشبيك والتمثيل. وتراوغ الكوفى شوب، إلى حد كبير، الارتباطات السلبية مع الغرب. فهى تراعى الحساسيات الدينية ومبادئ اللياقة المجندرة، لكنها تشى بشعور بالانتماء إلى الغرب. فالاجتماعيات العفوية المختلطة الجندر التى تميز الحياة الاجتماعية فى محال الكوفى شوب هذه مقصورة على فضاءات حصرية، مغلقة، ومحددة فى البعد الطبقى. وتعبر فضاءات الترفيه العامة، مثل الكوفى شوب الراقية، ليس فقط عن ثقافة طبقية جديدة، بل أيضًا عن أشكال جديدة من التباعد والفصل الاجتماعيين فى المدينة، وتساعد على تأسيسها.

والجمهور العفوى المختلط الجندر وحضور الشابات المهنيات يعدان من أهم مؤشرات الحداثة الحصرية المواكبة لآخر لحظات العولمة، فى القاهرة. وفى حين تعتمد الفضاءات الراقية على الحضور العلنى لشابات الطبقة المتوسطة العليا، فإن الروتينات العلنية لهذه الفئة من النساء هشة وتعتمد على فضاءات ذات ارتباط طبقى محدد وعلى الانزواء والانغلاق الاجتماعيين. وتقدم هذه الفئة مبررات مهمة للانزواء والفصل الاجتماعيين اللذين أصبحا ملمحًا شائعًا فى المشهد المدينى القاهرى. فأجسادهن أصبحت ميادين معارك لتشكلات وتدافعات طبقية جديدة، تكشف، فى آن واحد، عن قوة وهشاشة الطبقة المتوسطة فى العصر الليبرالى الجديد فى مصر.

وقد أصبحت الفضاءات القاهرية العامة متشظية على نحو أشد وأشد بعد أن خضعت خرائطها إلى توزيع للدخل ذى قطبية فاضحة. فالمناطق التى كانت فيما مضى ضمن الأطراف، مثل المهندسين والمعادى ومصر الجديدة وامتداداتها الصحراوية المواكبة للطرق الرئيسية الثلاثة الخارجة من القاهرة أصبحت " هى " المدينة لكثير من القاهريين من الطبقة المتوسطة العليا. ونبتت تجمعات راقية لمجمعات سكنية، ومولات، ومدارس خاصة، وجامعات، ومستشفيات، ومدن ملاه، وفنادق على امتداد هذه الشرايين الرئيسية الثلاثة. وقد ساهمت هذه التجمعات فى مضاعفة المساحة السطحية الحضرية فى غضون سنوات قليلة، لتغير الجغرافية القاهرية المعيشة، تغييرًا راديكاليا، ولتفكك نسيجها الحضرى.

وصفة لأمة منقسمة

اقترحت مقالة آرجون آبادوراى عن دنيا من التدفقات العولمية الطباقية (١٩٩٠) طريقة لفهم التجليات اليومية للعولمة. أصبحت بالغة التأثير على الدراسات

الأنثروبولوجية. فالمقالة تقترح طرائق لفهم الطبيعة المركبة والطباقية(*) لـ " العولمة " وتوجه عنايتنا إلى الدور المضاعف القوة للخيال فى دنيا من التدفق العولى للصور والأفكار. لكن، وكما بينت هذه الدراسة، فإن هذه التدفقات العولمية يتعين أن تتموضع فى التواريخ العالمية والمحلية للتفاوت والسيطرة. فهى تيارات مغذية للتراتبيات الاجتماعية المحلية وتؤخذ باعتبارها أشكالاً للتميز الثقافى. وأساليب الحياة والمؤشرات الكوزموبوليتانية الجديدة للانتماء تتخلق عبر تلاق معقد للثقافات الطبقية المحلية المائزة والتدفقات الاقتصادية والثقافية العابرة للقومية والآن، وقد " عادت " مصر إلى السوق العالمى فقد أصبح اتصالها، وبالمقابل انفصالها عن الخارج (بره)، من جديد، وحدة قياس رئيسية للتفاوت والتمايز. فالتقسيمات الاجتماعية فى العصر الليبرالى الجديد فى مصر تجمع الشرائح المائزة من سكان القاهرة فى فضاءات حصرية، كوزموبوليتانية على نحو صارخ، للشغل والاستهلاك والترفيه والسكن. ولأن هذه الفضاءات مغلقة، إلى حد كبير، بوجه الحقائق الواقعية الأخرى فى القاهرة، فلها دورها فى تأسيس مرجعيات ومعايير قياسية كوزموبوليتانية وإحساس بالدعة والثراء كملامح معيارية واضحة بذاتها فى حياة القاهرة الراقية. وفى هذا السياق، فإن الهُجنة والخبرة الكوزموبوليتانية تحملان نصًا فرعيًا، لا تخطئه العين، يقوم على التمايز ذى الأساس الطبقى.

وقد وجه إيريك دينيس الاهتمام إلى التوازيات بين مصر فى عصرها الليبرالى الذى سبق الحرب العالمية الثانية وبين العصر الليبرالى الجديد فى مصر. وفى بداية القرن الحادى والعشرين بدا أن هذه المقارنات لها ما يبررها. فالفترتان موسومتان

(*) disjunctive مصطلح لغوى يستخدم هنا وكما حدث من قبل مع مصطلح آخر، استخداما سوسيولوجيا ليعنى هذا المصطلح الصيغة التى تنطوى على وضعيتين لا يربط بينهما رابط منطقى مثل غنى لكنه خائف، عولى لكنه متدين، حداثى لكنه منزو - المترجم .

بالتبعية للأجانب، وبأساليب الحياة الكوزموبوليتانية الصارخة، وبالتفاوتات الاجتماعية الهائلة، وبحرمان غالبية السكان. فالتناقض بين العالمين الاجتماعيين للنخبة وللجماهير، والتوجهات، وأساليب الحياة أصبحت تصور، مرة أخرى، على أساس التناقض بين الكوزموبوليتانى الصارخ والمحلى المعلن. ويعيد تجدد أهمية المعرفة والمهارات والأذواق الكوزموبوليتانية إنتاج خطوط قديمة للتشرذم الاجتماعى تقوم على الاتصالات مع الخارج. فالإحالات المشبعة بالحنين إلى أزمنة أرستقراطية سابقة على الناصرية يتزايد شيوعها، وتشهد القاهرة إعادة أقلمة عالم أول حصرى فى القاهرة الراقية فى شكل فضاءات حصرية، كوزموبوليتانية صارخة، وفى بعض الأحيان مشبعة بحنين إلى الماضى، محمية من الحقائق الواقعية الأخرى للمدينة. وقد كانت الطبقة المتوسطة المهنية فى القاهرة، دائماً، تتسم بتجانس اجتماعى – اقتصادى وثقافى. لكن هذه الطبقة المتوسطة أصبحت، فى العصر الليبرالى الجديد فى مصر، متشظية أكثر وأكثر، وخطوط الفصل والتراتبيات الاجتماعية – الاقتصادية والثقافية يتزايد وضوحها وصلابتها. وكما يقول أنطونى دى كينغ، ففى المدن الجنوبية مثل القاهرة فإن " البنية الانفصالية بطبيعتها للمدينة الكولونيالية وعلاقات القوة غير المتماثلة فيها يعاد اختراعها على نحو متواصل، وإن فى شكل كولونيالى داخلى جديد " (٢٠٠٤: ١٤٢).

فالمهنيون من الطبقة المتوسطة العليا هم سكان قاهرة راقية تتألف من فضاءات مترابطة أغلقت بوجه العوالم والحيوات الاجتماعية الأخرى. وهذا الانغلاق هو، بالطبع، مجرد مظهر خارجى مادامت هذه الفضاءات الراقية تعتمد على العمالة من القاهريين من الطبقة العاملة والدنيا. لكن هذه الفضاءات إقصائية بمعنى أنها تتحدد وفق امتيازات النخبة وتراتبياتها وتفضيلاتها، وتخضع لها، فهذه فضاءات يجد فيها القاهريون المائزون، وبعكس الحال فى بقية أنحاء العاصمة، أنهم " قادرون على فرض الرامـوز السلوكى الخاص بهم – بما يشمل من قواعد الاحترام – على المدينة " (كالديرا ٢٠٠٠: ٣١٩). ويستتبع مشروع مصر النيوليبرالى كلا من " البحث عن

العولمى " – محاولات اقتناص حصة من التجارة العولمية وإعادة تنشيط القطاع الخاص عبر استثمارات فى البنية التحتية، والمشاريع الجاذبة للاستثمار، ومختلف أشكال الدعم للقطاع الخاص – وسياسات التكيف الهيكلى التى تهدف إلى تقليص الموازنات الحكومية وإلى التخلى عن دور الدولة فى الرعاية. هذه المكونات التوأمية للمشروع النيوليبرالى يمكن النظر إليها كتوصيات تهدف إلى خلق أمة منقسمة. ففى حين يستهدف البحث عن العولمى أقلمة فضاءات العالم الأول فى المشهد الحضرى، يبدو أن سياسات التكيف الهيكلى تنذر بمستقبل عالم ثالثى للمشهد الاجتماعى المحيط.

ولمشاعر الإقصاء من رخاء العالم الأول والرغبة فيه وفيما ينطوى عليه من نضج وفى الفوز بعضويته، تواريخ طويلة فى المناطق بعد الكولونيالية مثل مصر. فبوسع تلك الأقسام من المجتمع التى أفادت من إعادة الهيكلة الاقتصادية، واللبرلة، والتكامل مع الشبكات الاقتصادية الكونية أن تتصرف وفقًا لهذه الرغبات. فبوسعهم أن يسكنوا أقاليم العالم الأول التى استوطنت القاهرة، والتى تنهى، على نحو متصاعد، التركيبات المتناقضة السابقة القائمة على رغبة فى الأحلام العولمية وشعور بالاستبعاد منها. وتشير الشعبية المتجددة للفترة الخديوية قبل الناصرية إلى التخلى عن المشروع التنموى الناصرى الاستيعابى، وتعبر عن ميل متزايد إلى القبول بالتفاوتات الاجتماعية المتفاقمة وبالحرمان المتزايد للغالبية الساحقة من سكان مصر، ومثل كل المراحل السابقة، فإن العصر الليبرالى الجديد فى مصر ينعم بالحياة الكوزموبوليتانية الحصرية على شرائح مائزة ومنتخبة من السكان.

والسؤال هو ما الذى ينشأ حول فضاءات العالم الأول التى تمت أقلمتها فى مصر وما بعدها. وإذا سرنا فى اتجاه التأكيد بأن عالمًا ثالثًا ينشأ فى مدن الغرب، كما تقول كيرستين كويتيوك، سيكون بوسعنا أن نقول إن قاهرة الطبقة المتوسطة تشهد ميلاد عالم ثالث (١٩٩٧). إنه عالم ثالث تلغى فيه الحقوق الاجتماعية ويعلن فيه عن أن السرديات التنموية الوطنية السابقة التى غذت تطلعات الطبقة المتوسطة تكاد تكون بلا

معنى. فالمهنيون المستغنى عنهم من الطبقة المتوسطة مطالبون بالتحول إلى ممارسات ومشروعات غير رسمية كان ينظر إليها، فيما مضى، باعتبارها تقليدية أو غير تنموية، ولكن يروج لها الآن باعتبارها ذروة الفهم الرأسمالى الصاعد من أسفل. وهكذا يجبر هؤلاء المهنيون الشباب على التفاوض حول طرائق أكثر تعقيداً للعيش فى البلاد مقارنة بأقرانهم المائزين.

الهوامش

(١) وفقًا لـ رجوى أسعد وملك رشدى، فى منتصف التسعينيات كان ربع السكان فى مصر من الفقراء بكل المعايير، فى حين كان ربع آخر على حواف الفقر (١٩٩٩: ١١). فقد زادت البطالة وتراجعت الأجور الحقيقية، على نحو ملموس، طوال الثمانينيات والتسعينيات (انظر أسعد ٢٠٠٢، عوض ١٩٩٩).

(٢) فى عام ٢٠٠٢ كانت ألف جنيه مصرى تساوى ما بين ٢٠٠ و ٢٥٠ يورو.

(٣) تحدد الطبيعة الشديدة التشظى للمجتمع المصرى وما يلازمها من فوارق طبقية من جدوى البيانات المجمعة على المستويين القطرى والمحلى. وتمثل مساهمة النساء فى قوة العمل مثالاً مناسبًا. ففى ١٩٩٨ قدرت مساهمة النساء الحضريات غير المتزوجات من الحاصلات على مؤهل متوسط بحوالى ٣ر٣٧ فى المائة، مقارنة إلى ٨٨ فى المائة للحاصلات على درجة جامعية (أسعد ٢٠٠٢: ٢٤). وفى ضوء هذه الفروق الواسعة، لا تكون القيمة التفسيرية للأرقام الوطنية محدودة فحسب، بل يمكن أن تخفى وجود اتجاهات معاكسة فى قطاعات مختلفة.

ومن المرجح أن تختلف الاتجاهات فى القاهرة الكبرى، على نحو ذى مغزى، عن غيرها من المناطق، سواء كانت ريفية أم حضرية، بسبب التركيز القديم العهد للموارد الاجتماعية الاقتصادية والسياسية فى القاهرة الكبرى. وهذه التفاوتات بين القاهرة وبقية مصر لها أهمية بالغة فى هذه الدراسة. والأرجح أن تكون السياسات النيوليبرالية و " تكون مدينة عولمية " قد زادت من الوضع الاستثنائى للقاهرة.

(٤) تفهم الطبقة المتوسطة المصرية على أنها تشمل كلاً من المهنيين والأقسام الأكثر ثراء بين من يعملون مستقلين أو أصحاب المشروعات الصغيرة (انظر، مثلا، أمين ٢٠٠٠: ٣١ - ٣٧، عادل معطى ٢٠٠٢، الفصل الخامس)، وإذا اتبعنا بيير بورديو فسوف يكون بوسعنا أن نعرف الطبقة المتوسطة المهنية بأنها تتألف من أولئك الناس الذين يتأسس وضعهم كطبقة متوسطة (اسميًا) على رأسمالهم التعليمى أكثر من الاقتصادى - مثل المهنيين والبيروقراطيين والموظفين الإداريين. ورغم أن هذه الأنماط من رأس المال لا يستبعد بعضها بعضا ورغم أن الشخص يمكن أن يمتلك مزيجًا من رؤوس الأموال، فبوسع المرء أن يميز بين أقسام تعتمد أساسًا على نوع أو آخر من رأس المال فى إعادة الإنتاج (بورديو ١٩٨٤: ١١٥). ونسبة العاملين المهنيين والفنيين فى قوة العمل فى محافظة القاهرة (التى لا تمثل سوى جزء من منطقة القاهرة الكبرى) تؤمن إشارة إلى حجم هذه الطبقة المتوسطة المهنية وقد قدرت فى ١٩٩٩ بحوالى ٣١ فى المائة، مقابل ٢ر١٩ فى المائة على المستوى القطرى (البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة ٢٠٠١: ١٤٧).

(٥) الفروق كبيرة فى مصر بين العامية المحلية والعربية الفصحى المكتوبة. ورغم أنى اكتسبت ألفة مع العامية، فقد بقى فهمى للعربية الفصحى المدونة محدوداً بدرجة أكبر. وقد ساعدتنى غادة طنطاوى فى مراجعة بعض الأدبيات المصرية حول الطبقة المتوسطة.

(٦) فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين كانت السلع الاستهلاكية تمثل ثلث الواردات، مقابل ما لا يزيد عن ١٠ فى المائة فى نهاية الستينيات. (يانكوفسكى ٢٠٠٠: ١٧٣).

(٧) يشير آلان ريتشاردز وجون ووتربيرى (١٩٩٦) إلى أن هجرة العمالة انتعشت مجدداً، بالفعل، عقب حرب الخليج، وأن ليبيا أمنت فرص عمل إضافية. لكنهما يريان أيضًا أن هجرة العمالة لم تكن كافية لمواجهة النمو فى قوة العمل المصرية (١٩٩٦: ٣٨٥). وفى ٢٠٠٢ كانت فرص هجرة العمالة تبدو محدودة للغاية، حسب وجهة النظر الشائعة. وزعم أناس أن الآسيويين يوظفون لأداء أعمال لم تكن تتطلب معرفة بالعربية، على وجه التحديد، لأنهم كانوا " أرخص " كثيراً من المصريين وغيرهم من العمال العرب المهاجرين. وفوق ذلك، فإن عدداً متزايداً من المهنيين المحليين يشغلون الوظائف التى يعلن عنها. بعد أن كانت فى عقود سابقة مجالاً حصرياً للعمال العرب المهاجرين (عبد المعطى ٢٠٠٢: ٣٣٦ – ٣٣٨).

(٨) انظر، مثلاً، فاطمة فرج " عودة إلى التراب " الأهرام ويكلى (العدد ٥٤٤، ٢٦ يوليو – أول أغسطس ٢٠٠١).

(٩) انظر، مثلاً، جمال عصام الدين " الدعم أو الموت " الأهرام ويكلى (العدد ٦٦١، ٢٣ – ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٣) وشيرين عبد الرازق " تحمل المسئولية " الأهرام ويكلى (العدد ٦٨٦، ١٥ – ٢١ إبريل ٢٠٠٤).

(١٠) يشير ريتشارد هـ. آدامز الابن إلى أن هذه هى حقيقة الأمر (٢٠٠٠: ٢٦٧ – ٢٦٨). وبالمثل فإن تقارير البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة تشير إلى المستويات المرتفعة للتفاوت الاجتماعى. وفى حين أن معامل جينى (Gini) لقياس التفاوتات فى الدخل والثروة وفقًا للطريقة التى ابتدعها كورادو جينى فى ١٩١٢ – المترجم) بالنسبة للقاهرة فى ١٩٩٥ كان ٣٢٫٧ فقد ارتفع فى ٢٠٠٠ إلى ٣٩، وهو أعلى مستوى بلغه فى البلاد (البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة ٢٠٠١: ١٥٨، البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة ١٩٩٩: ١٦٠) ووفقًا لـ " مؤشرات التنمية البشرية " (مزيج من المؤشرات عن الصحة، والتعليم، والدخل) فإن القاهرة الكبرى اختصت بثلاث من أعلى خمس مناطق مقدرة وبثلاث من أدنى خمس مناطق مقدرة فى البلاد (البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة ٢٠٠٣: ٤٤).

ويمكن أن تكون التفاوتات الاجتماعية الفعلية أعلى بكثير مما تشير إليه الإحصاءات التى نقلنا عنها. فإحصاءات توزيع الدخل المصرية لا يوثق بها كثيراً، كما لاحظ بارتش. وقد وجد أن نصف الإنفاق الاستهلاكى فى البلاد لم تشمله الإحصاءات التى تأسست عليها أرقام توزيع الدخل هذه. ومعظم الإنفاق المهمل يخص، على الأرجح، قسما صغيرا من الأسر الميسورة (نوقشت فى ميتشيل ٢٠٠٢: ٢٨٦ – ٢٨٧).

(١١) ظهرت الصور ذاتها على موقع مؤسسة جيل المستقبل. وقد حاكت المؤسسة، على نحو متفائل، سياسات صندوق النقد الدولى التى توحى بأن قدراً أكبر من الاندماج فى السوق العالمى سوف يفضى، مع الوقت، إلى مستويات معيشة أفضل للجميع. وطبقًا لبيان المهمة الخاص بالمؤسسة، فإن هدف المؤسسة كان " المساهمة فى تنمية مصر اقتصادياً وفى جهود المنافسة عالميا " عن طريق " المساعدة على ترقية ثقافة الشركات المحلية ". فترقية هذه الموارد البشرية " سوف تترجم إلى ازدهار مالى أكبر بالنسبة للبلاد على اتساعها، وإلى دور قيادى فى الاقتصاد الإقليمى، وإلى مركز قوى فى السوق العالمى "

http://www.fgf-egypt.com/english/foundation/fgf14.osp)

(تم الدخول إلى الموقع فى يوليو ٢٠٠٢)

(١٢) كما تلاحظ ليلى أبو لغد " فى حين أن أشكال التدين اليومية التى هى جزء من الحياة فى مصر، بدرجة كبيرة، تجد صدى لها فى المسلسلات الجماهيرية، أحيانًا، حيث يظهر الأشخاص الأكبر سنًا أو الفلاحون البسطاء، فى بعض الحالات، وهم يصلون أو يستخدمون عبارات دينية، فإن أشكال التدين الجديدة لا تظهر أبداً. لا يشاهد الشباب فى المدن، أبداً، وهم يؤكدون هويات دينية.. " (١٩٩٣: ٣٩٩). والحجاب هو أكثر علامات الهوية الإسلامية شيوعًا. وفى حين أن السنوات الأولى من القرن الحادى والعشرين شهدت تزايد فى المعروض من البرامج الدينية (تلاوات من القرآن، مواعظ وبرامج دينية، ومسلسلات تليفزيونية دينية) فإن البرامج الدينية بقيت منفصلة عن غيرها من البرامج (المرجع السابق، أبو لغد ١٩٩٥). وكانت النتيجة رسم صورة عصرية للحياة اليومية فى مصر باعتبارها علمانية، إلى حد كبير، وميسورة نسبيًا فى الغالب، وحيث لا ينخرط فى الممارسات الدينية إلا كبار السن و " التقليديون " من الناس. (تغير هذا كله، على نحو متصاعد منذ مبادرة وقف العنف الأصولى من جانب الجماعة الإسلامية التى دخلت حيز التنفيذ فى ١٩٩٧، ومنذ انطلاق المراجعات الفقهية التى أسفرت عن نبذ أهم تنظيمين إرهابيين فى مصر للعنف المسلح. وساعد ذلك على تهيئة الظروف لجرعة متزايدة من البرامج الدينية، ومن المكونات الدينية فى مختلف البرامج والأعمال الدرامية. وتحول الدعاة الشباب إلى فقرات ثابتة فى أهم وأنجح البرامج، مثل " البيت بيتك " الذى أصبح " مصر النهاردة ". وبعد مذبحة نجع حمادى تنوعت المكونات الدينية فأصبح رجال الدين المسيحى يقدمون إسهاماتهم فى الرد على تساؤلات الجماهير فى برامج تعالج الأحوال العائلية والنفسية وغيرها- المترجم)

(١٣) قد يكون هذا تحويراً غير إرادى للاسم الرسمى " جيل المستقبل ".

(١٤) إعادة اختراع الحاضر والمستقبل والماضى بالكامل، وعلى هذا النحو هو، بالتأكيد، أمر لا تنفرد به مصر. وتجد إيمانويلا غوانو اختراعًا مماثلاً لماضٍ صناعى كهذا - وهو ما تسميه " أكل لحم التاريخ " - فى ابتداع " عالم أول " راق على ساحل بوينيس أيريس (٢٠٠٢: ١٨٩).

(١٥) فيما أصبحت أساليب الحياة الكوزموبوليتانية للطبقة المتوسطة العليا تمثل مثلاً إعلانية شائعة، فإن إعلانات التليفزيون تصور المستهلكين الأقل ثراء وتخاطبهم. ويعكس هذا التنوع اللغات الإعلانية المتنوعة

التى يميزها راجا جوبال (٢٠٠١، انظر أيضًا راجا جوبال ١٩٩٩) فى المشهد التليفزيونى الهندى. فالمشاهدون المختلفون تجرى تربيتهم على المواطنة الاستهلاكية القومية بأساليب مختلفة. فإعلان أرييل، مثلاً، استخدم الصيغة المجربة للزيارات التى تمر من باب لباب فى الأحياء الشعبية، حيث المستهلكات المخلصات يكافأن بهدية لها قيمتها محليًا، هى فى هذه الحالة عملات ذهبية. وقد عرض التليفزيون المصرى الرسمى أيضًا كثيرًا من الإعلانات الظريفة التى لعبت على جوهر شخصيات تليفزيونية شعبية مشهورة. وسرعان ما دخلت الشخصيات والتيمات والعبارات الواردة فى هذه الإعلانات فى الفكاهة اليومية.

(١٦) بايات ودينيس ٢٠٠٠، حيث توجد خرائط القاهرة التى تفصل توزيع التحصيل التعليمى فى القاهرة.

(١٧) إضافةً إلى هذه الكومباوندات الحصرية، هناك أيضًا مشروعات إسكان فى الصحراء موجهة إلى القاهريين الأقل ثراء. وبعض المجتمعات المسورة التى شيدت بمبادرات خاصة موجهة للقاهريين من الطبقة المتوسطة حتى المتوسطة العليا، وبكثافة بناء أعلى وحصة من العمارات السكنية المرتفعة تفوق حصة الفيلات (كوبنجر ٢٠٠٤). وتطرح مشروعات الإسكان الحكومية إسكانًا يقدر عليه القاهريون من الطبقة المتوسطة الدنيا حتى المتوسطة.

ومنذ منتصف السبعينيات وللآن تحاول الحكومة تحويل فائض النمو السكانى فى القاهرة إلى مدن جديدة فى الصحراء حول القاهرة (ستيوارت ١٩٩٩: ١٤٠). ومع نجاح مدينة السادس من أكتوبر القريبة نسبيًا، فإن المدن الأبعد لم تجتذب العدد المتوقع من السكان. وتعانى هذه المدن من انعدام الخدمات ومن بعدها عن القاهرة، وغياب المواصلات المناسبة جعلها غير جاذبة لمن بقيت أعمالهم وحياتهم الاجتماعية متموضعة فى المدينة. وأحدث طبعة للقاهرة هى القاهرة الجديدة، التى تقع على مشارف مدينة نصر. وبعض عمارات القاهرة الجديدة ذات التصميم الذى يقوم على الاتساع إسكان يقدر عليه القاهريون من الطبقة المتوسطة الدنيا (دى كويننغ ٢٠٠١).

(١٨) نوقشت هذه المصطلحات ذات الأهمية المركزية، باستفاضة، من قبل كثيرين بينهم أرمبراست (١٩٩٦: ٢٦ – ٢٧) وسيغرمان (١٩٩٧: ١١ – ١٤) وغنام (٢٠٠٢).

(١٩) صدر قانون ينص على ضمان تعيين خريجى الجامعات فى ١٩٦١، وصدر قانون ثان فى ١٩٦٤ يمد هذا الحق إلى حملة الشهادات من المعاهد العليا والمدارس الثانوية الفنية. وقد تآكلت قوة هذا الحق القانونى، فى الممارسة، بفعل الزيادة التدريجية فى فترة الانتظار للحصول على وظيفة مضمونة، من عشرة أشهر فى ١٩٨٢ إلى خمس أو ست سنوات فى ١٩٨٧ وإلى ١٣ سنة فى ١٩٩٥ (تورنيه ٢٠٠٣: ٢٢).

(٢٠) وفقًا للأرقام الرسمية، التى تجنح إلى زيادة معدلات الحضور الفعلى فى المدارس، فقد وصل الحجم الكلى للالتحاق بالمدارس إلى ٤٢ فى المائة فى ١٩٦٠ (بالنسبة للإناث لم يتجاوز ٣٢٫١ فى المائة)، وقد ارتفع مع حلول العام ٢٠٠٠/٢٠٠١ إلى ٨٦ فى المائة (بالنسبة للإناث لم يتجاوز ٨٣ فى المائة) (البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة ٢٠٠٢: ١٢٥). وقد ارتفع الالتحاق بالتعليم العالى (بالجامعات والمعاهد العليا) من ٦٫٩ فى المائة للفئة العمرية بين ١٧ و٢٢ عامًا فى ١٩٧٠ إلى ٢٠٫٢ فى المائة فى ١٩٩٦ (جلال ٢٠٠٢: ٢).

(٢١) يقع ٦٦ فى المائة من المدارس الخاصة فى القاهرة الكبرى (وتعنى هنا محافظة القاهرة ومدينة الجيزة) مقابل ما لا يزيد عن ٥ر٢٨ فى المائة من المدارس الحكومية (أحصيت وفقًا لبيانات غير منشورة لدى وزارة التربية).

(٢٢) حتى منتصف التسعينيات من القرن العشرين لم يكن فى مصر سوى جامعة خاصة واحدة هى الجامعة الأمريكية بالقاهرة. ورغم المناظرات التى دارت حول السماح للجامعات الخاصة بالعمل فى مصر، والتى كانت بداياتها الأولى فى أواخر السبعينيات من القرن الماضى، فقد بقى إنشاء جامعات خاصة، لفترة طويلة، قضية سياسية شائكة (ووتر بير ١٩٨٣: ٢٤١). لكن هذه " الإهانة " للفلسفة التربوية والتنموية الناصرية أصبحت مشروعة فى منتصف التسعينيات. ففى ١٩٩٦ تم التصريح بأربع جامعات خاصة جديدة. وفى ٢٠٠٣ فتحت جامعتان فرنسية وألمانية أبوابهما. وتتموضع كل هذه الجامعات الخاصة على مشارف القاهرة.

(٢٣) اختيار الانتقال من مدرسة إعدادية خاصة إلى ثانوية حكومية دافعة الاعتقاد بأن المدارس " العربية " الثانوية الخاصة هى، فى الحقيقة، أسوأ من الحكومية. فالأولى ينظر إليها باعتبارها تخدم التلاميذ الذين حصلوا على درجات متدنية فى امتحانات الشهادة الإعدادية ولم يعودوا قادرين، بالتالى، على دخول مدرسة ثانوية حكومية.

(٢٤) فى ١٩٩٧ قتل ثمانية وخمسون سائحًا أجنبيًا وأربعة من رجال الشرطة المصريين فى هجوم لعناصر إسلامية على موقع فرعونى فى الأقصر.

(٢٥) يستخدم المهنيون الذين تلقوا تعليمًا فرنسيًا أو ألمانيًا الخليط اللغوى ذاته من العربية والإنكليزية، إلا إذا كان كل الحاضرين وراءهم مسار تعليمى متماثل. وفى ظروف كهذه فقد يستغرقون فى الرطانة العربية - الفرنسية أو العربية - الألمانية كما كانوا يفعلون أيام دراستهم.

(٢٦) يستخدم عدد من المهنيين من الطبقة المتوسطة العليا التصنيفين " فئة A " و" فئة B " عند الحديث عن الطبقات فى مصر. وهذه التعبيرات مأخوذة من مصطلحات التسويق. وبالمثل، فإن مورين دوهارتى تلاحظ أن البرازيليين من الطبقة المتوسطة يستخدمون هذه التعبيرات للحديث عن الطبقات (٢٠٠٢: ٩٧). ويشير استخدام هذه التعبيرات إلى التآلف مع الخطاب التسويقى والأهمية المتنامية لهذا الخطاب فى مخيال المجتمع. وينظر إلى اختلافات الدخل وما يرتبط بها من قدرة على الاستهلاك باعتبارها خواص تمييزية داخل الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة. وأولئك الذين يستخدمون هذه المصطلحات يشيرون بـ " الفئة A " على ما يبدو، إلى أولئك القادرين على الانخراط فى الاستهلاك الكوزموبوليتانى الباذخ، فى المقام الأول، وذلك بالسفر المتكرر إلى الخارج، مثلاً. ومن المدهش أن الفئتين A,B هما وحدهما اللتان يرد ذكرهما، دون غيرهما. ولأن الشريحتين من المستهلكين تقعان، معًا، ضمن الطبقة المتوسطة العليا/ النخبة فكل من يقع تحت هذا المستوى من الدخل هو، على ما يبدو، فى عداد من ينظر إليهم ببساطة على أنهم بغير قيمة فيما يخص المناقشات حول الجيل الجديد فى مصر أو المشهد الحضرى الجديد فى القاهرة.

(٢٧) فى حين كان توزيع المجلة فى البداية قاصراً على القاهرة، فمنذ ٢٠٠٣ أصبحت المجلة توزع فى مناطق محدودة فى الإسكندرية.

(٢٨) بينما تكاد البطالة تكون غير موجودة بين من يقف تعليمهم، فى حده الأعلى، عند معرفة القراءة والكتابة، فإنها بالغة الارتفاع فى أوساط الحاصلين على مؤهلات متوسطة، وتبقى مرتفعة بدرجة ملموسة فى أوساط خريجى التعليم العالى من الجنسين. وتظهر الإحصاءات المتاحة زيادة فى أعداد حملة المؤهلات العليا من العاطلين من الذكور الذين تتراوح أعمارهم بين ٢٢ و ٣٥ عامًا، من ١٠ فى المائة فى ١٩٨٨ إلى ١٦ فى المائة فى ١٩٩٨. أما الزيادة فى البطالة بين الإناث المناظرات لهم فمضت من ١٨ فى المائة إلى ٢٦ فى المائة (عامر ٢٠٠٢: ٢٣٢). وتتركز البطالة، إجمالاً، فى الأجيال الشابة، بين الداخلين الجدد إلى سوق العمل (أسعد ٢٠٠٢: ٣٤). لكن أسعد رجوى يرى أن القاهرة الكبرى، بخلاف المناطق الأخرى، خبرت بالفعل تراجع معدلات البطالة (٢٠٠٢: ٢٦). ولا يحدد هو توزيع التراجع على المستويات التعليمية. ورغم أن هذا الاتجاه المختلف فى القاهرة الكبرى له أهميته بالنسبة لهذه الدراسة، فإن غياب المزيد من البيانات يجعل من الصعب التوصل إلى أى خلاصات. وهذه الأرقام تغطى السنوات السابقة على التباطؤ الاقتصادى الذى بدأ بعد عام ٢٠٠٠، وخلال السنوات التى أجريت فيها الدراسة. يرجح أن يكون الموقف ساء على نحو كبير.

(٢٩) بما أنه أشبه بالمستحيل رسم حدود هذا القطاع الراقى، فمن الصعب الإشارة إلى حجمه. فعدد الموظفين فى المشروعات الأجنبية لا يحدد حجم هذه الشريحة الراقية على نحو كاف؛ إذ إنه برغم النمو الملموس فى عدد الأشخاص المعينين فى مشروعات أجنبية فإجماليهم يقدر بما لا يتجاوز ١٥ر٠ من العدد الإجمالى للموظفين فى القطر كله (من صفر فى ١٩٧٦ إلى ١٠ر٠٠٠ فى ١٩٨٦ و ٢٣٠٠٠ فى ١٩٩٦) (البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة ٢٠٠١: ٩٧). وتبين النسبة المئوية للتلاميذ فى المدارس الخاصة للتعليم الثانوى العام حصة الطبقة المتوسطة العليا فى الفئة المهنية من الطبقة المتوسطة فى القاهرة. ففى القاهرة الكبرى التحق ٢٠ فى المائة من التلاميذ فى التعليم الثانوى العام بمدارس خاصة فى العام ١٩٩٩/٢٠٠٠، مقابل ٥ر٨ فى المائة على مستوى القطر (حسبت النسب بناء على إحصاءات وزارة التربية). وقد تشير هذه الأرقام إلى أن الحصة النسبية للطبقة المتوسطة العليا تقع بين ١٥ و ٢٠ فى المائة من الطبقة المتوسطة المهنية بالقاهرة، وحوالى ٥ إلى ٧ فى المائة من كل القاهريين.

(٣٠) فى عام ٢٠٠٢ كانت ألف جنيه مصرى تساوى ٢٥٠ يورو، وخفضت قيمتها إلى ٢٠٠ يورو قرب نهاية العام. وكان متوسط دخل الفرد يقدر بحوالى ٥٦٠ جنيها مصريا بالشهر.

(قدرت فى ضوء بيانات من http://devdata.worldbank.org)

(٣١) انظر، مثلاً، تقرير الأهرام ويكلى عن مؤتمر الحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم فى ٢٠٠٤. يناقش التقرير سيطرة جمال مبارك فى الحزب الحاكم، ونفوذه المتزايد على اتجاه السياسات، وتفضيله الواضح لليبرالية الاقتصادية ولمزيد من التكامل مع السوق العالمى.

(http://weekly.ahram.org.eg/2004/709/fri.htm)

(تم الدخول للموقع فى ١٤ ديسمبر ٢٠٠٨)

(٣٢) http://www.fgf_egypt.com/english/foundation/fgf14.asp

(تم الدخول على الموقع فى يوليو ٢٠٠٣)

(٣٣) عبد الملك فى الأهرام ويكلى (العدد ٦١١، ٧ - ١٣ نوفمبر ٢٠٠٢) يعبر عن شكوك مماثلة حول فاعلية الصندوق.

(٣٤) لو فاتك الميرى، إتمرغ فى ترابه.

(٣٥) فاطمة فرج " العودة إلى التراب " الأهرام ويكلى (العدد ٦٤٤، ٢٦ يوليو - أول أغسطس ٢٠٠١). فى حين أن " التراب " تحيل إلى المثل الشائع، فهى تستثير، أيضًا، تداعيات تخص كثيرًا من الموظفين الحكوميين: المكاتب المتربة المزحمة بعمالة زائدة وقلقة، وبما أن الوظيفة الحكومية ترتبط لدى الكثيرين بانخفاض الراتب. وبالمكاتب الشديدة التكدس وبالركود المهنى، فالقراءة الساخرة قد توحى بأن كل هؤلاء الباحثين عن وظائف يقاتلون من أجل التراب. (هذه تخريجات خاصة بالمؤلفة. ولا علاقة لها بالمفاهيم المرتبطة بهذا المثل عند المصريين، وإن كانت تخريجات لها وجاهتها - المترجم)

(٣٦) رغم الإلغاء، بحكم الواقع، لضمانات التعيين والنوايا المعلنة حول تقليص معدلات التعيين أو حتى تخفيض حجم الجهاز البيروقراطى، فقد واصل عدد موظفى الحكومة النمو، دون انقطاع. ويرى أسعد رجوى أن هذا النمو يرجع، أساسًا، إلى إصرار أكبر من جانب قدامى الموظفين فى الجهاز الحكومى، خاصة العناصر النسائية، على البقاء فى الخدمة. ولا يعوض هذا التشبث بالبقاء بخفض معدلات التعيين (٢٠٠٢: ٤٥).

(٣٧) الحب فوق هضبة الهرم (١٩٨٤) مأخوذ من قصة قصيرة لنجيب محفوظ نشرت فى ١٩٧٩. ويعالج الفيلم مشكلة على، خريج الجامعة الذى يعمل ضمن جهاز البيروقراطية الحكومية. وهو ينتمى لعائلة متعلمة ويخاطب الجيران والده بلقب أفندى، الذى أصبح الآن لقبًا قديمًا من ألقاب المتعلمين. ويقع على فى غرام إحدى زميلاته الجديدات، لكنهما يعجزان عن الزواج لسوء حالته المالية. ويروى الفيلم قصة كفاحهما للبقاء مخلصين لحبهما المتبادل، رغم الظروف المعاكسة.

(٣٨) أقر البرلمان المصرى فى ٢٠٠٢ قانون عمل جديدًا يوسع حقوق أصحاب العمل فى القطاع الخاص فى الاستغناء عن العمالة. ورغم أن هذا التشريع العمالى " الليبرالى " يلغى كثيرًا من أشكال الحماية القانونية التى أمنتها قوانين العهد الناصرى السابقة، فإن حرية التنظيم الجماعى المستقل أو الإضراب أو المساومة بقيت مقيدة بشدة (فرغنى ١٩٩٨).

(٣٩) أرمبراست (١٩٩٦: ٢٢٥). لاحظت أنا أيضًا تعبيرًا ذا صلة يساوى بين كون المرء أجنبيًا / غربيًا وبين تمتعه بخبرة ذات مستوى أعلى. " الأجنبى بتاعنا " تعنى حرفيا الشخص الأجنبى أو الغربى الذى معنا، لكنها تستخدم أيضًا بمعنى " الخبير الذى عندنا ".

(٤٠) يتبين من أعمال إيلين موير عن عمالة الشارع فى دار السلام بتنزانيا، مثلاً، أنه فيما تعيش أقسام كبيرة من الطبقة المتوسطة المتعلمة تجربة تدهور مستويات المعيشة، وفيما يجد أبناء وبنات موظفى الدولة صعوبة فى إعادة إنتاج مستويات معيشة الطبقة المتوسطة التى عرفها آباؤهم، فإن " العصر الليبرالى " فى تنزانيا أتاح فرصاً جديدة فى القطاع الحضرى غير الرسمى للمهاجرين من الريف إلى المدن، الذين كان محظوراً عليهم، من قبل، المجيء إلى الحضر (موير ٢٠٠٣، انظر، مثلا، زهانغ ٢٠٠٢ وآنا غنوست ٢٠٠٤ اللذين يناقشان التأثير المتباين لتجربة الصين الاشتراكية السالفة).

ورغم أن هذه قد تكون نقطة واضحة، فإن التموضع الاجتماعى لمثل هذه الحكايا من التمكين والحرمان هو، على سبيل المثال، لا وجود له فى المناقشة التى بقيت، من ناحية أخرى، مناقشة ذكية، عند أتشيل مبيمبى وجانيت رويتمان (١٩٩٥) التى تناولت " أزمة الذات " فى أثر انهيار دولة الكاميرون، وهى أزمة تنطوى على قصة من قصص الطبقة المتوسطة.

(٤١) تؤمن التواريخ الكولونيالية والإمبريالية مصدر إلهام مهماً لأساليب الحياة الرخية فى ظروف ما بعد الكولونيالية وما بعد الإمبريالية. وتمثل هذه الأساليب " الكولونيالية " أحد الأساليب البارزة والمائزة لفضاءات العالم الأول، عبر العالم. فهى تكرار لمسارات كولونيالية وبعد كولونيالية محلية محددة، كما يرى أنطونى دى كينغ، مثلاً، بالنسبة للكومباوندات الهندية التى تشير أسماؤها إلى أكسفورد أو كامبريدج ٢٠٠٤: ١٣٣).

(٤٢) فى حين يستخدم الحجاب للإشارة إلى " الغطاء " بمعنى عام، فهو يحدد شكلاً، دون غيره، من الغطاء، وهو منديل الرأس، مميزاً له عن غيره من أشكال التغطية: الخمار، الذى يغطى الجزء الأعلى من البدن، والنقاب الذى هو تغطية الجسد بالكامل، مع حجاب على الوجه. ومنديل الرأس، الذى غالباً ما تلبس معه ملابس محكمة على الجسد وإن كانت ساترة له وبألوان متناغمة، هو شكل الملبس الأكثر انتشاراً بين محجبات الطبقة المتوسطة العليا. وقد تختار بعض المحجبات أسلوباً يمكن أن يسمى " الشياكة المتأسلمة " ويتألف من أثواب فضفاضة بتفصيل راق ومعها منديل رأس مناسب.

(٤٣) المطاعم التى تخدم الجمهور الشاب الميسور ذاته، مثل فرايديز وتشيليز هى، بالمقابل، فروع من سلاسل أمريكية شمالية.

(٤٤) تلاحظ منى أباظة أن " بيئة " تفوقت على " بلدى" فى مصطلحات الشتيمة. وبعكس ما أمضى إليه فى تفسيراتى، فهى ترى أن المصطلح يستخدم للإشارة إلى الذوق السقيم للطبقات الأدنى (٢٠٠١: ١٢٠).

(٤٥) تعلق منى أباظة على انتشار مماثل لتقاليد شعبية خالصة من هذا النوع فى مولات التسوق القاهرية (٢٠٠١: ١١١). وهذا الأسلوب " المصرى التقليدى " أصبح شائعًا، على نحو متزايد، فى المؤسسات الأقل حصرية، خاصة أثناء رمضان. وقد أسفر التبنى الأكثر شيوعاً لهذا الأسلوب إلى خط ممارسات محلية موجودة بالفعل بالصيغ الاستشراقية المحاكية لها، وهو ما أضعف نسبياً من محتواها الدلالى الاستشراقى.

(٤٦) من أجل مناقشة مفصلة للقصة اقرأ الأهرام ويكلى، ٢٨ فبراير - ٦ مارس ٢٠٠٢

http://weckly.ahram.org.eg/2003/577/egq.htm#3

(تم الدخول إلى الموقع فى ١٤ ديسمبر ٢٠٠٨). ويعلن بيان مقتضب فى عدد ١٤ - ٢٠ مارس ٢٠٠٢ عن القبض على المتهم بإرسال الرسائل الإلكترونية.

(٤٧) رغم أن ما يرويه الناس عن الحجاب هو جزء من تحليلات متضاربة وعالية التسييس لنمو التدين فى المجتمع، فهم يلاحظون عامة زيادة فى الحجاب فى الآونة الأخيرة فى الطبقة المتوسطة العليا. ففيما كان ظهور المحجبات نادراً فى معظم الشركات والمؤسسات الراقية، فإن عدداً لا بأس به من موظفاتها بدأن بارتداء الحجاب منذ نهاية تسعينيات القرن العشرين وما بعدها.

(٤٨) يعد مرّوش نوعًا وسطًا بين القهوة البلدى والكوفى شوب. ويقع على رصيف ميدان مزدحم فى المهندسين. ويمثل مرّوش استثناء من القاعدة العامة التى تقول إن الكوفى شوب التى لها جمهور من الطبقة المتوسطة العليا تكون محجوبة عن الرؤية من الشارع. لكنه يجتذب، بالفعل، جمهوراً من الطبقة المتوسطة للمتوسطة العليا ممن يرتادون محال الكوفى شوب، على نحو مماثل.

(٤٩) انظر ويلسون حيث نقد الافتراضات الشمولية فيما يخص التحديق الذكورى (٢٠٠١: ٨٣).

(٥٠) تختلف الشوارع فى أحياء النخبة مثل الزمالك والمعادى، اختلافًا واضحًا، عن الشوارع فى المناطق الشعبية، كما تختلف الشوارع التجارية عن الشوارع الرئيسية الكبرى والشوارع التى يغلب عليها الطابع السكنى. ورغم فروق مهمة كهذه، فإن الحضور الذكورى المهيمن وهامشية الوجود النسائى العابر هما من الملامح المشتركة فى حياة الشارع القاهرى. وفوق ذلك فالشوارع تشترك فى غياب طابع محدد بالنسبة للطبقة. ويمثل بعض الأحياء الشعبية استثناءات ملحوظة من هذه التحديدات المجندرة للشارع، فى حين يتحدى وجود البائعات اللاتى يحتللن الأرصفة فى الشوارع الرئيسية الأفكار الشائعة عن هامشية المرأة. (هنا تناقض واضح بين ميل المؤلفة للقبول بفكرة هامشية المرأة المصرية، وهى فكرة مضحكة تشيع فى كثير من الأدبيات المصرية والأجنبية، وواقع الوجود المتصاعد، بكل قوة، للمرأة فى كل القطاعات، رغم أن التوازن يميل لصالح الرجل، كما هو الحال فى العالم كله، مع تفاوت درجات هذا الميل، من بلد لآخر - المترجم).

(٥١) فى مجلة كامبوس تنقش الكلمات العربية ووفقًا لنظام غير رسمى يستخدمه معظم القاهريين فى اتصالاتهم بالبريد الإلكترونى. فالحرف (ع) يرمز له بالرقم ٣، والحرف (ح) بالرقم ٧، والحرف (ق) والهمزة بالرقم ٢ وهكذا يكتبون سجق sogo2 وحجاب 7 igab .

المؤلفة فى سطور:

آنوك دى كونينغ

حاصلة على درجة الدكتوراه من جامعة أمستردام وواحدة ممن شاركوا فى تأليف الكتاب المهم " القاهرة الكوزموبوليتانية: السياسة والثقافة والفضاء الحضرى فى الشرق الأوسط المعولم الجديد " والذى حرره كل من ديان سينغرمان وبول عمار.

المترجم فى سطور:

أسامة الغزولى

صحفى ومترجم منذ ١٩٦٨ نقل عدداً من الكتب عن اللغتين الروسية والإنكليزية إلى العربية إضافةً إلى ترجمات صحفية على نطاق واسع.

التصحيح اللغــوى : **إبراهيم عبد التواب**
الإشـــراف الفنـــى : **حسن كامل**

تمضي دي كونينغ بالقارئ، على نحو جميل، إلى عالم النخبة النيوليبرالية، الطامحة، العولمية، المنتمية إلى الطبقة المتوسطة العليا فى القاهرة وإلى تناقضاتها... وتسمح لنا بأن نرى ما تدور حوله الخلافات، بالفعل، حول الطبقة والثقافة والامتيازات، كما تسمح لنا بأن نفهم الإطار السياسي الأوسع الذي أنتج هذه الطبقة الجديدة والشابة نسبيًّا، وحافظ عليها. فالولع الاستهلاكي والأناقة والمقاهي والتكنولوجيا هى العلامة التي تفوق التوجهات الإسلامية فى تمييز هذه النخبة وإن كان غير واضح بعد ما إذا كانت أحلام العولمة والنيوليبرالية سوف تشعل حماسهم أم أنها سوف تصيبهم بخيبة الأمل.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح